

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





893.7 H 954
O 36

39141

17/5
10/3/95
149
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

لِلدَّكْتُور طه حُسَيْن بَك

مَصَادِرُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَأْثِيرُهَا فِي الْخَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ
لِلدُّسْتَاذِ مُحَمَّدِ كَرْدِ عَلِي

الْأَثَرُ الْعِلْمِيُّ فِي الثَّقَافَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ
لِلدَّكْتُورِ عَلِيِّ مُصْطَفَى مُسْرِفَةٍ

مُعْنَى بِنَشْرِهِ

قسم الخدمة العامة

بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

والتمت طبعه وبيعه

المطبعة العصرية

بشارع الخديوي الناصري رقم ٦ بالقاهرة - مصر

مذوق برست ١٩٥٤ - مصر

محاضرة مصر الحديثة

يشمل هذا الكتاب العظيم اثني عشر محاضرة ألقاها اثنا عشر عالم اختصاصي من أكبر علماء مصر المعاصرين . وكلها تدور حول موضوع واحد يهم كل شرقي الاطلاع عليه وهو ، حضارة مصر الحديثة ، فمنها الثلاثة الأولى تناول موارد البلاد المادية . وبلي ذلك ستة محاضرات تبحث في حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمها . ثم ثلاثة في التنظيم الاجتماعي . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا نشوب آراءهم صبغة أجنبية أو حزبية مثل حضرة صاحب المالى المرحوم الدكتور محمد شاهين باشا أول وزير لوزارة الصحة . وفؤاد بك أباطه مدير الجمعية الزراعية الملكية ، وعبد الرحمن بك فكري سكرتير عام مجلس الشيوخ ، والدكتور بهم من طبيب الأمراض العقلية ، والاستاذ علي بك عبد الرازق ، والدكتور حسين هيكل بك ، والآنسة « مي » وأحمد بك صفوت ، وسابا بك حبشي ، والاستاذ سلامة موسى ، والدكتور هيوم ، والاستاذ اسماعيل القباني - وثمته ١٥ قرشاً .





هذه القواميس

قد قررتها وزارة المعارف المصرية لمدارسها الثانوية والابتدائية

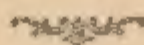
القاموس المصري الانكليزي أو العربي ٧٠ قرشاً ، والمدرسي ٣٥ قرشاً
 والجيب الانكليزي ١٥ قرشاً ، والعربي ٢٠ قرشاً ، الاثنان معاً ٣٠ قرشاً

التمن

فهرس

صفحة

مقدمة - الدكتور وندل كليلاند	٥
أثر المدينة العربية القديمة في ثقافة مصر الحديثة - الأستاذ محمد كرد علي	٩
تمازج الحضارتين العربية والعربية - أثر	٣١
» » » »	
العرب في الأندلس وصقلية وما اليهما	
أثر الحضارة العربية في الحروب الصليبية -	٤٨
» » » »	
وأثر الحضارة العربية على عهد الاستعمار الحديث	
أثر علوم العرب وفنونهم وما كشفوه واخترعوه -	٦٤
» » » »	
أثر المدينة القرية في البلاد العربية . . . -	٧٩
» » » »	
التنظيم بين المدينيتين وأهلها -	٩٦
» » » »	
الأثر العلمي في الثقافة المصرية الحديثة . - الدكتور علي مصطفى مشرفة	١١٥
الرأى الحر - نشأته وأثره - الدكتور طه حسين بك	١٢٥
» » » »	
فولتير -	١٣٩
» » » »	
روسو -	١٥٥
» » » »	
ريتان -	١٦٩
» » » »	
تين -	١٨٥
» » » »	



Mar 30 1953

1953



مقدمة

بين اليوم الحاضر والأمس الدابر روابط وصلات وثيقة العرى موصولة النسب لذلك ينبغي لنا في نهضنا احضرة أن نشدد الحظي وأن نسم النظر والاعتبار القبية أثر المينة في ذلك الإثرت الرثع الجليل . فلا نتقدم خطوة حتى نأخذ لها أهيتها ونعد لها عذتها ، نستضيء بأشعة الماضي لنهتدى في الحاضر الى سواء السبيل من أحل هذا وضع هذا الكتاب وهو يضم بين دفتيه سلسلة من المحاضرات التي نظمها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكرم بالقائها نخبة ممتدة من أعلام النهضة الفكرية

وهي تنقسم في مجموعها الى قسمين أولهما أثر الثقافة الغربية في العربية وأثر الثقافة العربية في العربية . وقد اتى الاستاذ محمد كرد علي منها ست محاضرات والى الاستاذ علي مصطفى مشرفة محاضرة واحدة . أما القسم الثاني فيشمل أثر الفكر الحر المستقل منوها بقيادة الفكر في القرن الثامن عشر في فرنسا كمولتيير وروسو وريان وتين . وقد اتى حمزة صاحب المرة الدكتور طه بك حسين خمس محاضرات فيها . وليس من شك في أن الثقافة العربية قد تأثرت الى حد كبير بهذه الثقافة الغربية سواء أكان ذلك في القانون أم في الفن أم في التربية أم في الاقتصاد . هذا موضوع هذا الكتاب وقد تركنا لمحاضرات المحاضرين وهم من الأعلام البارزين مطلق الحرية للتعبير عن آرائهم ومراجعة التجارب المطبعية ثناء طبع الكتاب . والبهم وحدهم ترجع التبعة والمسئولية

ويعتبط قسم الخدمة العامة بأن يقدم هذه البحوث القيمة في كذاب واحد يجمع بين أثر الحضارة والثقافة في الحركة الفكرية وهو يسدى جزيل شكره وعاطف ثنائه لمحاضرات من ساهموا في اعداد هذا الكتاب ما

ونزل كليطون



مصرفه الأستاذ محمد كرد علي
وقد بحث الموضوعات الست التالية

أثر المدينة العربية القديمة في ثقافة مصر الحديثة

يتفحص الناظر في بحث الله العربية في مصر قديماً أن تقف لحظة على روح الفاعل العربي وعلى حالة البلاد التي فتحها وعلى سيرة الفتح التي أدت إلى سرعة انتشار تلك الثقافة. ولو قمنا أن العرب لم يفتحوا قطراً من الأقطار على صورة سهلة كما فتحوا مصر، فلم يتكبدوا في مناصبتهم من المال والرجال إلا ما لا بد منه في حصر بعض المواقع الحربية. وبجنت في هذه الحجة، وكان التفسير مؤيلاً لها من كل وجه، روية عمر بن الخطاب الخليفة منقطع القرين عدله وأقد طرده والبيعة عمر بن العاص أثبتت لدى مجازب مذهبه أكثر مما يحارب بحبسه، ومن الذين تولوا معاونته من رجال الصحابة في الفتح وبعد فتح، مرة كان أبو جند منهم مقدم لألف صماتة السامية، ومنهم الزبير بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وخالد بن الوليد وعبد الله بن عمرو وسعد بن عمر وسادة بن الصامت وخديجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية بن حذيفة وقيس بن أبي العاص وسعد بن سعد وعقبة بن نافع ومحمد بن مسلمة الأنصاري ولقد دأب الأسود وأبو ذر جندب بن جادة العمري وثوبان الددائي وعويمر بن عامر وعقبة بن عامر والميرة بن شعبة وأمثالهم وأمثالهم ومن تولوا بعد فتح إفريقية وحررت البحر لرومي وقصرو على أسطول الروم عتق وقبضة الصوري ومن هؤلاء الصحابة من كان خط مصر لعرص التجارة في الجاهلية وانتشر فيها، أثبت لأول عمرو بن العاص بالأندلس والطيب فتعرف مداحها ومخارجها، وكان يعرف أن أهل مصر يجهدون حمل عليهم فوق طاقتهم، وهو الذي حسن للبيعة التي فتحها وسهل عليه الأمر. وقيل له إن فتحها كانت قوة المسلمين وعوناً لهم وهي أكثر الأرض أموالاً وأمنحز عن القتال والحرب.

واتفق أن كان ستم خط مصر، وهم كثرتهم العسرة. يحكم روم أمير طين لما

أرهبهم به من المظالم والمعازم ، ولما ساموهم من الخسف والنعف مدة ثني عشر قرناً ، ثم حاولوا إدخالهم في مذهب الكيسة الملكية . وترادوهم على أن يصاؤوا عن مذهب النصارى البعافه ، فأهلكوا منهم نوصاً ، وخربو يوتكا ، وأتوا على بيع وديار ، والخلاف على أشد ما يكون في مسألة الشيعة الواحدة أو المشبتهين في السيد المسيح . يصطهد كل من لا يشايح أهل دين الدولة لحاكة . وروم في دور انحطاطهم يرتكون كل مكر ، ويبنون كل شدة . وعامة البلاد التي يخفى عنهما علامهم في حالة تشبه مصر في تبرها وتقلها . وتناصرت لأحر في مصر على أن العرب أصحبت لدولة الفتيبة التي فحت الشام والعراق وبعض فارس هم على جانب من العدل والرحمة في أحكامهم وشرعت لأسوق اليهم وود الناس ونفذوهم بما هم فيه . وكان رسول بعث الى لقونس أكبر عمل للروم من انقط كتباً يدعو به الى الاسلام . فتلطف في حوائه وهدى اليه جارية قطبة سمها مارية بنى بها صاحب الرسالة فولدت له ابنه ابراهيم وغدت من نهبت مؤمنين . ذكر عمرو بن العاص في إحدى خطبه قال حدثنا عمر أمير مؤمنين أنه سمع رسول الله يقول « إن الله سيمنح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها حبراً » وب لم مكر صهر ودية « وفي رواية « استوصوا بقبطيين حبراً لأن لم رحماً ودية » والطحاوي أوصى لرسول بأهل الذمة وقال « من أدى ذمياً فله حقيقته ومن قتل قبلاً من أهل الذمة لم يرح راحة » الجفة وقال « من قتل معاً معدة بعير حباً حرم الله عليه الجنة أن يشهها » وجعلت الشريعة دية لمعاهد كدية لمسلم الف دينار ، ويطه قتل مسلم « لسمي » ، ويطه خان ازوم وعبرهم عهد العرب قتل لمسلمون « وود بعد حيز من عذر مدرة . وقد حسن سامون النصارى خاصة . منذ بعثت دعوتهم في جزيرة العرب ، لأن نصارى نجران الذين كانوا أول من أدى الحرية ولم ينجحهم عمر عن أرضهم . ويوصي بهم أهل العراق والشام إلا لما أكلوا الربا ، وكانت شرط عليهم لا تشع عنه . أما اليهود فحاشنهم رسول أيضاً ولكهم آدوه مرراً فحلام في حبانه من الحبحر الى الشام . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « أهل مصر أكرم الأتباع كلها وأسمحهم يداً وأفضلهم عصرراً وأقربهم رحماً » لعرب عامة وبقريش خاصة .

ورأيا الروم يصنعون العرب منهم « فرسان في النهار رهن في الليل يدوون بالقرآن إذا حن سبهم الليل ذوي النحل وهم آساد الناس لا يشبهون الأسود » .
ولما عد رسل الموقس من عند عمرو بن العاص قل لم : كيف رأيتم هؤلاء . قالوا :
« رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والنوصع أحب إلى أحدهم من الرقة . لبس لأحدهم في الديار رعة ولا نعمة ، إلى حلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم . وأميرهم كوحده منهم ، ما يعرف رقيعهم من وضعهم . ولا السيد منهم من العمد ، وإذا حصرت الصلاة لم يتحلب بها منهم أحد ، يمسكون أطرافهم بالمال ويحشعون في صلاتهم » . وقد كان من أهم العوامل في فتح مصر كور العرب يتتارون بصمات لا مثيل لها في دولتي فارس والروم وهم صدق العريضة وصحة الإيدين ، وأنهم ما كانوا يعرفون ابن زريق ونوصيع ولموفق ومخالف في طسق قوتهم . ويديون ناطقة لرؤسهم ويصبرون ويصرون ويذمعدون عن عيش الدج والإسراف ، ويعرفون هدف الأنبياء الذي يهوى به . ويخطبون من أحواش الشعوب التي يملكون عبيد أكثر مما تعرف هذه الشعوب من حواطم .

وفي لحق من مصر كان طامع من نفوس العرب وبكبي نبت يحبها اليهم ذكرها في الكتاب العزيز في أربعة وسشرين موضعاً . ما هو بصرى العاط . ومنه ما دلت عليه القريش وسنسير . ولم يقع مثل هذا فيه لمصر من الأضرار . وما كان مصر البلد العربي كثيراً من العرب عامة . ومن أحذرهم الغدوم كانوا حتلوا أمكن منهم . وعمروهم مدداً متطولة . وسائر المتحرون في اللغة المصرية القديمة على ألوف من الألفاظ العربية . والعالم أن عرو العرب مصر كان أيام القحوط والحروب التي طالما أصيبت بها بلاد العرب . فكانوا يندفعون ما جاورهم من الأصفاء . فإذا تبرم بخورهم أعقب عروهم . ثم إن بلاد العرب تخرج أصنافاً من الزراعة لا توجد في غيرها . وتجار العرب ينفون تجارة أقطار الشرق إلى الشام ومصر وإفريقية . والعرب كانوا الساميين تجار قحاح مد عرف تاريخهم . وانحر من شأنه التعرف إلى الناس والبلاد . ويكتب أبو ميامين أسقف القبط بالاسكندرية إلى جاسته يبعثهم أنه لا يكون للروم دولة . وأن ملكهم قد انقطع . ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص . فيقول إن القبط

الذين كانوا «عمر» ما كانوا يومئذ لعمره أعواناً . ثم نوحه عمرو لا يدافع إلا بالأسلحة الخفيفة . وكان عمرو لما نزل على شيس قتل مئتين من كان بها وأمر جماعة وهرم من بقي ووقعت في أسرهم مئة مقوقس فأرسلها إلى والدهم مكرمة في جميع ما طلبوا . ولما نزل عمرو على القوم عين شمس قال أهل مصر لعلمهم ما يريد إلى قوم فلو حيوش كسرى وقبصر وعسوم على بلادهم . صاع القوم واعتقد منهم ولا تعرض لهم ولا تعرضناهم . وأرسل صاحب الاسكندرية إلى عمرو إلى قد كسب حرج الجارية إلى من هو انص إلى مسكن معشر العرب بدين ولروم . فإن تحت أنت أعطيك الحرية على أن ترد على ما نصحتهم من مبيد أرضي نعمت . وكانت السبا قد أرسلهم عمرو إلى الحجاز واليمن ورددوا لطائفة إلى قراها وصيرهم وجمع فقط على ذمة . والسب في سبهم أن أهل مصر كانوا أعواناً عمرو بن العاص على أهل الاسكندرية إلا أهل تلب وحنيس وساطيس وسند وغيرهم فبهم غابوا لروم على المسلمين . وسام عمرو وحبرهم عمر بن لا سلام ودين قومهم . فمن احذر منهم لا سلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم . ومن احذر دين قومه وضع عليه من الجارية ما يوضع على أهل دينه فدخل كثير منهم في الاسلام .

وذا عطف الصبح على القط للأساب التي ذكره وذلك لأن جمهورهم حسنة وما حسنة . ولذلك شاهدناه يصاعف الحرية على روم نوعين على البلاد . ويأخذ من القط الجارية بدين على كل حال إلا أن يكون فقيراً . وقد قر الصصاري واليهود على ما بأيديهم من أرض مصر يعمرونها ويؤدون حراجها . وأزم كل دي أرض مع الديرين ثلاثة أرباب حطة وفسطي ريت وقسطي عمل وقسطي حل . ورقاً للمسلمين تجمع في در لورق وتقسّم فيهم . وأزم لكل رجل حصة صوف وبرسا أو عمامة وسرويل وحميل في كل عام أو بدل لجة الصوف ثوباً قبطياً . وما كان الخراج يحجب منهم إلا في إياه . محقه « أن يخرج لولي بهم فيصيروا إلى بيع ما لا يبقى لهم عه » ووقع بعد ذلك الدور بعض الحب على من عاهدوا على حسن الطاعة وارتضوا بالحرية . ثم ما عتصموا أن عمدوا إلى أساليب للتمت من أدائها . كأن يدعي بعضهم أنه من رجال الدين يمتصم بالدبرة والبيع . حتى اضطرب عبد العزيز

ابن مرون أن يحصي لرهان ما حصو وأخذت الحرية عن كل رهب دير . وهي أول حرية أخذت من لرهان . ومنهم من كان سحر لده وينزل لده بحر ، حتى اضطرب اولاة بعد القرن لأول أن لا يبحرروا فقال أحد من قريته ولده لا يبحرر لحاكم وتنقض بعضهم غير مرة مدفوعين بمو مل كثيرة لما وسع الدولة لا أن تردهم إلى الطاعة ، ولما سب في كل هد كما قال المؤرخون من غير المسلمين أن المال كان عزيزاً على قلوب أهل البلاد يستحلون لأجله ما يسكره دينهم عيهم . وهو القائل « اعطوا ما لقيصر ، بعصروا لله الله » .

وذلك ما فتح لقط وشهم في كسبه وديره . وعاد اليهم . كان أحدهم لوم المسكيون منهم . وأطلق لهم الحرية في أن يسو منها ما طاب لهم . وما عدم في القرن الثاني على من صيغ بعض الكائنات حنح موسى بن عيسى ولي مصر من قبل الرشيد من هذه الكائنات مما سب في عهد الصاعدة والكاهن . وفي البيت من سعد وعند الله بن طبة من أحبار الأمة بأرجعي إلى صالف عهد . وقالاهي من عمرة البلاد . أما الاسام والتمثيل فقد صدر أمر الخليفة في سنة ١٠٤٤ بكسره ومحوها في مصر لأن دس التوحيد لا يحمّل شعاً الونية . وقد جاء للقضاء عليها . وما ينبغي الروم لمح لا يستلم أن يشاهيم العرب عليه . وهو ليس من طيقتهم ولا من أصل دينهم . والاسلام كما قال عمرو بن العاص يهدم ما كان قبله . قال هذا لما أبطل مسة المصريين في النيل . وكانوا يعتقدون أنه لا يبحرر إلا اذا أنقت فيه كل سنة جارية بكر وزنت نصف ما يكون من الخيلي والنياب . ولما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب اليه عمر بن الخطاب أن صيف في مصر فكتب اليه .

ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر . أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية عبرة . وسجرة خضراء . طولها شهر ، وعرضها عشر . يكتفها حل أعبر . ورمل أسمر . بخط وسطها نيل مبارك العذوت . ميمون أروحات . تحرى فيه لزيادة والقصان كجرى الشمس والقمر . له أوائل يدير جلاله ويكثر فيه دُناؤه . ثمذه عيون الأرض وبياضها . حتى إذا ما اصطخم عجاجة . وتعظمت أموجه . فاص على جانبها . فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صفار لمراكب . وخفاف

القوارب ، وزوارق كأنهن في المَحَابِلِ وَزُقِيَ الْأَصَائِلُ ، وإذا تَكَمَّلَ في رِيادته ،
نَكَّصَ على عَقِيه ، كأول ما بدا في جريته . وط في درجته ، فعند ذلك تخرج أهل مكة
مَحْقُورَةً ، وذمة مَحْمُورَةً . يَحْرُثُونَ بَطُونِ الْأَرْضِ ، وَيَبْذِرُونَ فِيهَا الْحَبَّ ، يَرْحُونَ بِذَلِكَ
النَّمَاءَ مِنْ رَبِّهِ ، لَعِيرِهِمْ مَا سَعَوْا مِنْ كَدِّهِمْ ، فَالَهُ مِنْهُمْ بَعِيرٌ جَدُّهُمْ . فإذا حَقَّقَ نَزْعَ
وَأَشْرَقَ ، سَقَا الدُّدَى ، وَغَسَّذَهُ مِنْ نَحْتِ الثَّرَى ، فَمِنَا مِصْرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَا
بَيْضَتُهُ ، إِذْ هِيَ عَنَبَةٌ سَوْدَاءُ . وَإِذَا هِيَ زَمْرَدَةٌ حَصْرَاءُ ، قَادَاهِيَ دِيحَةٌ وَقَشَاءُ ،
فَتَارَكَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِمَا يَشَاءُ . لَدَى يَصْنَعُ هَذِهِ الْبِلَادَ وَيَسْمِيهَا ، وَيَقْرَأُ قَاصِبَهَا فِيهَا
أَلَّا يَقْبَلَ قَوْلَ حَسْبِهَا فِي رَيْسِهَا ، وَلَا يُسْتَدَى حَرْجُ ثَمَرَةٍ إِلَّا فِي أَوَانِهَا ، وَنَ
يَصْرِفُ ثَلَاثَ إِزْدَعَمَاءَ فِي عَمَلِ جَسُودِهَا وَنَزْعِهَا ، فَإِذَا قَرَّرَ الْحُلَّ مَعَ الْعَمَالِ فِي هَذِهِ
الْأَحْوَالِ ، تَصَاعَفَ ارْتِجَاعُ الدُّلِّ ، وَتَنَالَى بِوَفْقٍ فِي الْمَدَى . وَآل . هـ
فما ورد الكتاب على عمر قال لله دُرُّكُمَا بن الدمن لقد وصفت لي حبراً
كأني أشاهده .

الآن وقد تمَّ إلمامُ حبيبة بموضوع الفتح وصلات العرب بمصر مع ما النظر
في الثقة التي حمىها العرب المتحمسون إلى هذه الديار . وهي ثقة دينية وأدبية معاً ،
مارجتها بعد حين ثقة علمية وحماسية . كان أن حرج من مجموعته لَوْنٍ مِنْ أَوَّلِ
الثقة لا يشبه ما كان من نوعه في الأمم الأخرى . وهت بعرب مصر وإسلامها .
فقد كان من عمر بن الخطاب وهو في صدد الفتح في الشرق والغرب أن لا يعقل
عن إرسال البعوث الدينية إلى كل بلد إسلامي رية الإسلامية يرسل البعثات ، وأقرء
والقصاص يفتخرون المسلمين ويقرؤهم ويقصون عليهم في كل مُنْشَى وَتُضَمَّنَ ما يرق
قلوبهم ، ويختارهم من فقه الصحابة وقرآنهم وأبائهم ليتأدب العامة والخاصة بأدب
الدين ويجمع المسلمون إلى فطرتهم لذكى معارف كسبية .

كان أول من قرأ القرآن بمصر ممن شهد فتحها أبو الهيثم . ومن فقهائها
جند بن عمرو وثقة بن الحارث الفهري وحبان بن أبي جولة . ومن قصصهم كعب
ابن يسار . كان قاضياً في الجهمية ، وهو أول من أسند إليه القضاء في مصر . وروى
بعد القضاء والقصاص فيها سليمان بن عتر التميمي (٨٣٩) وهو أول من أسحل

بمصر محلاً في الموريت . ومن حكماء الصحابة أبرهة بن شرحبيل ، ومن فصحاءهم
أعين بن حُرَيْم ، وكان يسمى خليل الخنفة لا لعجائبهم به وبجديته لفصاحته وعظه . أما
الشعر فكثير من الصحابة ومن بعدهم كانوا يقرضونه بالقطرة ، ويحطون الخطب البليغة
من دون ما تعمل ولا تكلف .

قلد من العرب كانوا يستحقون مصر ويمرون أطرافها وري قاموا بها رمًا في
بعض الأذوار . وسكن العرب في مصر وقد فتحها دونهم قد تبدل مقامهم فيها .
فما لم سوق إلى الرحيل البه ابتزوها ويستعمروها ، وتكون لهم ولقد رايهم موطأ .
ولما لم يرض المتبع أن يسلب لأرض من أهل الأصليين . وقرم عليها يؤدون عنها
الخروج ، حص الدليل من القبائل العربية بأرض ارتحل عنهم أصحابها فأحيوها .
وجاءت قبائل العرب وطوبهم يحطون رحالهم في أريف يقتلون الأرض ،
ويبتعدون من لروع معاشنا وكسبا . ومنهم من حصار سكى لمدن يجرحون إلى
مصيف لهم . وقد تكون لهم تلك المصيف ما كن دنة . وكان أكثر من نزل
مصر من العرب من سكان وادي الحمار ، عرفوا في طول البلاد وعرضها ،
وتسمت معيشتهم لخصوبة مصر ولذلتهم المتبع من رعائته . وكان يحظر على
الجسد لأول المتبع أن يقتلوا لأرض لثلا يجرحهم رراعة عن القيام بأعمالهم .
فانصرف إلى لرعة فيها . وداً سريع ما نبي العرب مارلهم حتى باب من الصحابة من
احتط له دركي أرض مصر وحتط عمرو بن العاص داراً لأمير المؤمنين عمر بن
الخطاب عند مسجد بفسطاط فكتب إليه عمر أن لرحل الحمار يكون له در
بمصر ، وأمره أن يجمعها سوفاً له سمين . وكثرت هجرة العرب إلى مصر في عصور
مختلفة ، والمورد العذب كثير لأحلام . وما نلت الحرية في القرون التالية عند مصر
بالرجال ، يكتفون سود سكاب . حتى أصبح انقط إلى قبة في القرن الثالث . وكان
عدد من وحبب عليهم الحرية في المتبع أربعة ملايين رجل وعدة الروم ثلثمائة ألف .
وانتشرت لغة العربية بين السكان منذ البدء فلم يغب زمن طويل بعد المتبع ولا
ورأيت رحال الكهوت القبطي يكتبون بالعربية يتهموا قومهم . طاهرة عربية في
الإسلام . ذلك لأن مصر لم يسبق لها أن عيرت دينها سوى مرة واحدة ؛ عيرته بمجد

السيف ، وما غيرت قط في الترويج عنها ، ولا في لاسلام . وفي لاسلام عيرت دينها
ولسانها معاً من دون اكره وسدّة كل الحكمة وموعظة خسة .

كان اللبح يستوفي حقه برمته من أهل ذمته ، ويشملهم برفته وعديته . دكروا
أنه رفع إلى عمرو بن العاص أن عُرِفَ بن الحُرث الكندي ، وكان من الصحة الذين
سكرو مصر ، ضرب رجلاً نصرانياً فوق شقه ، فقال عمره للصحناني : يا قد أعظمهم
العهد ، كأنه : يد أن يؤخذ الصحناني بفعل . فقل عرفة : معاد الله أن يعطيهم
العهد على أن يظهر وشم لي ، وإن أعظمهم العهد على أن تحببهم . وفي رك شهم ،
يقولون فيها : ما دالهم ، وأن لا تحبهم ما لا يطيقون . وفي أردهم عدو سوء ، فالتك
دونهم ، وعلى أن تحببهم . وفي حكمهم : لأن يؤمنهم . وفي حكمهم : فحكم
نهم . وفي سبهم : فكل عمرو صدقت .

انقاد جمهور القبط إلى لاسلام ، وحظت أنفسهم بأحسن المصالح . فكيف اذا
لما أسعوا من اسلمت . والمخافة فقط يتعلم معبود لمساك ، فكيف اذا
احتياط دمه دمه ، وتبعت مصالحة مصالحة . ولأجل ذلك : ثم وركا في من عالية
من إقامة الشعائر فقط : نظم دافع لي تنفذ له به . يسمع حجاب الخطاء في الجمع
والمواسم وأيام العمل . في موضوعات همه تهم . ثم يستمع إلى قصص القصص في
المسرح وحدد . وكان يجتمع إلى قصص الدماء العبر من الناس يعظونهم
ويذكرونهم . ويكون القصص كالحلقات من مثل العلف . على لا أكثر ، ويتولى
خطبة الجامع الأعظم أمير البلاد . ومن يتولى الصلاة يرحح إلى من يتولى الأموال ،
فإذا جمع بينهما لوحد كان الأمير كل الأمير .

وكانت الحوامع والمساجد مجامع ومدارس لتعليم البنين والنساء ، يختلف إليها
النساء كما يختلف إليها الرجال . ولجميع مستديرات تقوم وعون : تقصصهم يخطب فيها
في اسماء وتلقى فيها دروس خاصة وعامة وتتخذ للعبادة في أوقات الصلوات ، وقما
يخول جامع من إقامة كتاب على مقربة منه لتعليم الأولاد ، وجب من النساء المحدثات
والواضعات والأديبات والشاعرات ، وعددهن يقطع أقل من عدد الرجال في هذا
الشأن وكان هن من تربية أولادهن ما يشغلن في موتهن عن أمور يقوم بها الرجال .

وتعلم المرأة مهما كانت منزلتها سور من القرآن وما يدرها من حصول الدين وتحفظ الأسماء
والأخبار وتحضر القصص وتوسط وتتم الأحوال في المساجد. والعالم أنه كان الرسم منذ
القديم أن لا يجوز لأحد من أرباب اليسار من فيه يختص أيها يعلم الأبناء والبنين
ويتقنه به الصغير والكبير ، ومن قرأ يتلو حصصاً من الكتب العزير في الليل أو
النهار . وكانت العدة أن من بركة كل بيت مهما علت مكانة شخصه أن يعلم بعض شأنه
العلم الديني على لأصول ويتخرج شيوخاً ويتخذ عن الفروع ، وحفظ القرآن من
الأموال التي شاع في القصر النبوي ، عندئذ برهنة من وحب اسم أن يعلم حبره
ويقههم ويعظمهم ، ومن مصحة تقضي ورومي أن يتعلم لغة العرب للعلم وللإبحار .
والعرب عن لغة قد لا يحسن إلا إلى شهر قبيلة حتى يتعلمها ، ولما كان
منذ وجد لا يسر ، يعلم الثقلين والذوق ، ويرجع السماع ولا يطبع ، أكثر من
قراءة الصحف والكتب ، وهذه . كانت تصل في الصدر الأول إلى غير يدي
الخاصة من الأسر لعائلتها وعربها . وفي حدود ثماني وثلاثين من طهارة فقط ، اتخذ
الكعبداني لورق من اعطى فرخص في الطومر والفرطيس . وكانت الصحف
تكتب على لسب ابردي وهو عالي ثمن . ويطلقون اسم الصحفي على من لم يأت
العلماء ويتخذ عنه عن الصحف . ولعلم للإسلامي ومن بدأ تدوينه في زمن الصحابة
لأن المساهمين كانوا يجزئوا ، علمهم في الصدور ، أكثر مما يرقونه في السطور ، وربما
لم تبلغ أمة من الأمم شأن العرب في الروية والدرية .

وملأه كان من الخير للمعنيين وبشر نفعهم وبسبهم كونهم ، تصموا في إشراف
بناء الذمة في المصلحة العامة ، واستعملوه مدلول الفتح في بعض شؤون الدولة
ولاسيما في حيازة الأموال وصرفي . ومنذ القرن الأول كان جميع عمال الأرباب
من القبط . وكان نافذ مالية الدولة لأمانة على عتيد معاوية نصرياً وتولى ذلك يوم
للخدمة من بعده . ولما نقلت الدواوين إلى العربية على عهد عبد الملك بن مروان ،
ونقل ديون مصر من الرومية والقبطية إلى العربية ، كما نقل ديوان الشام والعراق من
الرومية والعربية عن العتقون بأرباب الكفاءات من العمل السابقين فما صرفهم
من التصرف والخدمة ، وما كان يشترط للعمل غير معرفة لسائر الدولة والأمانة

السلطان حتى يوليّه ثقته ويحاطه نفسه . وحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص كان أول من اتصل بالملك من القبط والروم وأنه كانت له صحبة مع يحيى عرماطيقوس أي النحوي الفيلسوف وأعجب كلاهما بصاحبه ، وأن خالد بن يزيد لأُموي عالم قریش وحكيمها لجأ إلى عماء من القبط لما أرد نقل بعض العلوم إلى العربية ، فنقلوا له شيئاً في الطب والكيمياء وغيرها ، وكان يفصل عنهم وعلى العماء لآخرين من روم والسرمان كثيراً ، حتى قلت له مادي الصاعات والعلوم والحجور والحروب .

وتدين مصر لسي أمة خاصة بأوضاع من العدل والعمرن كثيرة . ذلك لأنهم كانوا يرسلون لإمارتها أمثال رجالهم ونظول مدرتهم فيها ليتكسبوا من معرفة ما يصدر . ومن كعمرو بن العاص بداره الحسة وسياسة رشيدة ، ومن كعتة بن أبي سبيان شقيق معاوية ، وكان من أحط حطه العرب بطي في ولايته القصيرة الفنة ويشتر السلام وكان بعض أهل مصر من العرب اشتركوا كأهل الكوفة والبصرة بقتل عثمان بن عفان الخبيثة الثالث . ومن كعتة الله بن سعد في حسن سيرته ومعرفة سياسته الملك ، وفيها حدثت أيامه كطاط إمارة مصلحة بن مُحمَّد خمس عشرة سنة ، وحملت أيام عبد العزيز بن مروان إحدى وعشرين سنة . وفي أيامه عمرت مصر عمرها ليس مثله ، وبني في حلون لدور ومباحث وغيرها أحسن عمارة وأحكمها وعمرس كرها ونعم . وهو ولد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة العدل الذي أشبه حده لأنمه عمر بن الخطاب عدله وإحسانه ، وهو الذي كتب في عمله على مصر وقد شكاه إليه نفس الحساية لإفدل الدس على لدحول في لاسلام من الله بعث محمد هاديًا ولم يبعثه حيا . وهو لذي حمل الفتيان نصر إلى ثلاثة رجال رحلين من لمولي ورحل من العرب فأمر العرب فعنه فقال : ما ذنبني أن كانت لمولي تسموا بأسمها فعند وتم لا تسمون . وهو الذي قل لأسامة بن زيد ، وقد بعثه سبيان بن عبد الملك على ديوان حند مصر وحثه على توفير الخرج ويحكم بأسماء إياك نتي قومًا قد نجح عليهم السلاء منذ دهر طويل وإن قدرت أن تعشهم فأعشهم ، كأنه كان يشعر وهو من مواليد مصر ونحو أميرها . أرى إمارة لدولة شيئًا من اعظم تجب دلائله . ومثل هذه الشفقة والرحمة والعطف كانت تحب لإسلام إلى القوم

فيهمون ويتمرجون برجال الدولة ، أو يبقون على دينهم لا يفتنون عنه ، ولا تؤخذ كتابتهم ، ولا يهان قساوستهم .

أصبح سكان مصر في القرن الرابع أحلاطاً من الناس محتاجي الأحماس من قط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم ووتر وأرمن وحشاش وغير ذلك من الأوصاف والأحاساس ، وجهودهم القبط ، وحتطت الأنساب واقتصروا من الإنساب على ذكر مسافط رؤوسهم ، وفي هذا القرن كان القبط يتحدثون بالقبطية على رواية القديسي ولم كما قال ابن حوقل السبع الكثيرة وهم أهل يسار وفهم قلة شر وكثرة خير ، ويقول الطاهري في القرن التاسع إن الصعيد من الكناس والديورة قريب ألف ومائت أهل بصاري أي قباط .

إذا عرفنا هذا فليس ما يجمع من القول إن بوتقة مصري لدول الإسلامية كانت تمثل فيها العناصر العربية فتصمم صممها ، محبها مصرية صرفة بعد جيل أو جيلين . وساعد على مرج الدحيل والأصيل فيها ورود الهي من التبحر بطبعية والقومية ، وعدم التعريق بين العربي والأعجمي ، لا بالتقوى . ومن مصطلح العرب أن كل من أقام بلدة ولومدة وحيرة ، ثم مات فيها عدث من أهلها وسب إليها ، ولما كان بين وادي النيل وبين طبقة موحاً كانه وهونه ، صعب عليه أن يهجره إلى قطار أخرى بكثير سود تبع غير شمه . والمصري منذ القديم لا يبعي عن مصر حولاً ، فهو معشط ببلده ، عاشق ترثته ، راض بما قسم له . فكان مصر منذ عهد الفراعسة الأولين بلد استبرد أكثر مما هو بلد مستدر . ولولا فرصة لحج في الإسلام ما حرج المصري إلى الحجاز أيضاً بعريق ما في دمه من العجم لمقيم .

وكانت مصر في لدول العربية زردب الرحلات من محدثين والفقهاء والادباء والعلماء أكثر اتصالاً فكرياً بالقطار لأخرى من معظم لأمصار ، لتوسطها بين البلدان العربية ، ورسلى إلى الأصمغ الأخرى ما لا يكلفها حمله كبير عناء من مصانع عجمها وقسمها وتمكبرها ، وبذ عاجر أحد أبنائها فبهجته موقته . والعريب قد تقنننه فيتخذها مسكناً دائماً . وقد كثرت هجرة العلماء إليها من قطار الأرض بعد القرن الثالث ، لأن الفتى اندلع لسانها ، ولا سيما في العرق والشام ، والعجم أخرج الناس

الى السلام ، وكانت مصر سكة هادئة مفصل من استولوا عليها في ذلك الدور . ولما حُرِّبَ المماليك بعدد في انقراض المماليك رحل العلماء منهم الى مصر ، على نحو ما جرى لما استولى الأتراك على الأستانة في القرن السابع فرحل منهم الى يطيا بعض علماء اليونان ، وكانوا من عوامل نهضتها . وفي رحلات لمرتبين من مصر واليه صرب من ضروب تدل العلم ولا فكاك . وكانت الطومع تؤوي هذه الاغنياء من المستعدين ، قبل أن تنشأ لهم رس في الغرب امددس . وما حدث يوت العلية من الناس في كل محلة ومثله من قول البراء على ربح والسعة . وانكره من قطعه من مصر في دور من دورها ، ذلك لأن المصري كالمصري بعد الشح منه وفي مثله . وفي قصة امرأة الله طيبة مشهورة مثل من هذا المكرم المطري . ذلك أن الحايمة المأمون مرّ بقرينها طاعة (ملأمل) في مصر ، فبأنه أن يقال قرينها . وعند ركت تكاء كثيرا وأوقات . لا تشب بى لأعداء ولا تحرمي هذا اشرف لدي نوبية وعقي ، فزل عليها رحاله وحيشه . فطعمتهم من فخر الطعم ولدند . وبعثت في الحايمة في الصباح عشرون صنف مع كل وصيفة حق . في كل صنف كمن من ذهب . متحس ذلك وأمره باعادته . فقلت : والله لا أقبل . فمأمل المأمون لذهب ، فذابه صرب عام واحد كاه . فقال هذا والله نجح . وروا يعمر بيت ما عن مثل ذلك . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تكسر عيونا ولا نخفرك . فقل : إن في بعض ما صنعت الحكمة . ولا نجح التقليل عيبك ، فودي مالك برك الله بك ، فحدث قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا - وأشرت الى ذهب من هذا وأشرت إلى الطين - ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا شيء كثير فأمره فخذ منها ، وقطعها عدة خياع وقطعها من مص حرج أرضها .

رأينا العرب ينقلون من دأعرائهم أساس الثقافة العربية على نحو ما حروا في كل قطر فتحوه ، فبشخص اليها رجال القرآن والعقبة ورواة من التجار واليهن وبعدهم الجهتي والمهري والتميمي والسويحي والمحمدي والمصري والبخاري والقرشي والحراعي والقصابي والأزدي والحضرمي ، ثم صار يغشاها الجرجاني والبغدادية والمروزي والشيرازي والديوبندي والسمرقندي والحورزمي والمصري والطبري

والهند في بطومي والخبتي والتبرزي والشهرزوري ولقروبي والرتوي
والبروي والخرساني والسني والسخي والسيفي ولاصطحري ولاهوراي والسيرافي
والعدي والارابي والكوفي والنصري والموصلي والخرزني ووسيطي والمصبي
والشمردي والخرري والبرديي والطرسومي والتعليبي والمشتي وخليي والشمسي
والملكي والخموي ونعروسي والديلمي والصفدي والمقدسي والعسقلاني والانطاكي
والصعالي والحولاني، ثم المرطابي والفرطبي والقيرواني والعاسي والتوسي والشومي
والصفقي والصفلي والبيروني والصماحي والياضي . فكان علماءها ولماثرون
من دخلوا من اصول عربية أو من مستعربة ، وبعد حين صارت تسميهم
لاسكدراني ولديبطي ولشيدني والديبي والخي ولاصيوطي ولتويطي ولاسوني
والطحاوي والعلطوي والمهدي والديبي واللوصري ولاخميبي والسحويبي
واقايشدي ولاسوي والاسني والهيدي ونقاسي والخريري والقبلي والطوسي
والبحوري والديروطي والشرقي والخرري والخرروي والخرجاوي ولداشوي
والدمنوي واليهوي والعدلي والارمني وركلوني ومانوي وسباوي والديبيبي
والانباري ولاذوي والحويني والسطوي والتمني واليهادي أو الهنسي ولاشويبي
والسمودي ، إلى غيرهم من زحل الذين سوا إلى مسيط رؤوسهم فذكر لا أول
وهلة منهم من صميم المصريين .

عرفنا أن الثقافة التي نشرت في مصر جمعت بين الفرس والسنة والشعر والأدب،
ولما تعينت لمداها نشرقه شاككي والشامي ، ثم فقه أبي حنيفة وانفقه الحنيلي على
قوله ثم الفقه لا يماسجلي مذهب المذمومين من آل البيت ، ففرض هذا الفقه الشيعي
وأول عميد دولة بني زياد ، ونشر التصوف أكثر من الفلسفة ، وعرف الناس
همهم في الدين ، وعدوا من فروعها التصوف والاسقفة والاسعة وحكى الأماص
ماحت في عصر من لأعصار من مذهب وحكمة لواقع ايد كل ما دور في هذا
الشان لعرا طبقة كبيرة من هذه الأصناف . ففند طيقات لسرير لمحدثين
والحناف والشافعية والحنفية والمالكية والحابلة والأدباء والشعراء والأطباء والحكام
والصوفية وما سقطا في تركة السلف على طبقات المصورين والنفسين والمهندسين

والموصيقيين بل عرفهم بالشيء القليل الذي جاء عرضاً في الكتب الناقية التي ما كسرت عليهم ، ولو كتبوا هم أنفسهم عن آراء قسهم لاطلعا من مخلفاتهم على أسرار في هذه المدينة التي تمت عنها مصانهم ونحلت بها هندستهم الجميلة وترايتهم التي ما حلت من إبداع ، وتم ذلك تاريخ التهذيب العربي وما نتج من بدائع وروائع . ولا يعقل أن لا يترجم المسون لرحلهم ، وبعد أن مدوناهم فُقدت في حملة ما فُقد من ثروتنا العسية والأدبية في النسخ والثورت والعوامل الأرضية والمبارية . ولو وقع اليأس ما دونه أرباب الصنائع والصنوف كما انتهى إليه ما دونه علماء الشريعة والآداب والتاريخ لعرفهم جهراً أنجيله من الدس . ولم من علم يذهب في صدره ، ومن من ما يفسره الدس قدره ، فبعد الدس فيه . وهذه المصاع التي أقت لأيم على خطوطها ورسومها في العساط والمقطوع وما في حوارها من القهرة المعزية من مدرس والخوامع ورباطات والمستغنيات شاهدة على لدهر ما أبدعت تلك المقول والأنامل التي حمت شيئاً كثيراً من العلم والعمل ، وقد شذرت الطوائف للدينية الثلاث على السوء في حراجه الدس ، وكاتب سود لأطباء ومسحمين ولمسلمين من غير المسلمين ، وخاصة من اليهود ذوي اليد . فاصبح سوادهم الأعظم من المسلمين في لأدور التي كثرت فيها من تحلو لأسلام .

أحد القوم في أنثر الدس يشئون مدارس ، يبرون فيها كل من يحب طلب العلم ، ويعتقون على المدرسين ومدرسين ما يفهمهم على حد الكسبية . ندعة حسنة ابتداعها عقل صلاح الدين يوسف بن توب صحب مصر والشام ، وكثرت اندرس بعد ذلك حتى لا تكاد تخلو منهم الخواصر القمعية ، وضع كثير من حصرها في جملة ما تمت عليه الأيم ، فقد كان في قوص في القرن السابع ستة عشر مكاناً لتدريس وياصور ثلاثة وثلاثين مدرسة و : لأفصر مدرسة و : زمت مدرسة وبقا مدرستان لا حرم أنه كان في المدن لأخرى كالاسكندرية و طيس ودمهور وبنوفية وغيرها محاسن ومدارس بطلب العلم الديني ، وعلوم العربية قاعة له ومعينة على تفهمه . وكان الحاكم بأمر الله الهلطي أنشأ في سنة ٣٩٥ دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة ، فجلس فيها الفقهاء والعلماء والمحققون والمصنفات والمصنفات والأخبار ،

ورث فيها قوماً يدرسون الناس العلوم ، وسئل عليهم خزانه كتب عظيمة فيها من كل فن حبر ، وكان من جملة ما يعلم فيها الطب والرياضيات والمنطق وبقيت نحو ١٧٥ سنة عمرة وعاد الفصل في حرأام العبيديين فأسس دار العلم سنة ٥٧١ هـ واستخدم فيها مفرئين ولم تزل عمرة الى انقرض الدولة الدامية . وكان القائد جوهر الصقلي فاتح مصر «سم المطيبين» ثأ لأزهر فأصبح منذ عهدهم الى اليوم مصدر العلوم الشرعية ومائة لآداب . أشأوه بشر التشيع ، وظل على ذلك طول أيامهم ، وكان عزمهم كثير في لدعوة لمذهبهم نقرأ على رئيسه ، ويسمونه دعي المصاة كتبهم مدار العلم ، وضبعي أن يسع تعميم المذهب تلقين العربية على أصولها لأن البراعة في الشريعة تنوقف على البراعة في مود العربية والمنطق والجدل والحكمة القديمة .

وعبر الناس في مصر يستبدون من كل ما تنهم به لدولة حكمة . والواقع أن كل دولة حكمت مصر ولو حقة صغيرة من بدهر نقت أثر من آثار غيرها على العلوم والصناع وعيد بشر لآداب ينترأى ذلك من النظر الى المصانع والآثار ، وما ذؤن المدون من ملح وأحبار ، وكان عزمهم ظهراً «بشأ» مساحد ، وقد صامت مرة بيوت لأمول من مال شخص في مصر فصدر أمر الخليفة «بأ» المساحد واستعى الناس أرم كاهن لا يحشدي ولم يحشد أرباب لأمول من يقل منهم الزكاة فأمرهم أن يسو بها مساحد ويتحدوا لاؤوق . وما كانوا يعملون مع هذا من ماء القاطر والجسور والعزز الدفعة لجاب السعة الى لمصريين ، وثلاً يقل الارتدع دأهم نمره . وبعد من كان يظن أن دولة الأيوبيين التي حلفت وماتت في لحروب الصليبية وما كانت الشام ومصر في مر مرجع ثنى أيبك بالعلوم والصناعات وأعمل للممر . هه ولدولة في حلة تقتل عظم لدفع صائل نحل أو ما عن هذا القطر ولديز اشامية . وقد وصف بن حير في القرن السادس مع حر لاسكدرية وعـ منها المدرس وعمرس أي الأترح موضوعة فيها لأهل انطلب والتمد ، يعدون من الأقطار الدنية فيبقى كل واحد منهم مسكاً بأوي إليه . ومدرسا بعمه العن لذي يريد تعلمه . وإحمر يقوم به في جميع أحواله ، قال واتسع عشاء السلطان ، أي صلاح الدين بن أيوب ، بهؤلاء العرابة المطارئين حتى أمر شعبين حمامات يستحمون

فيها متى احتاجوا إلى ذلك . ونصب لهم ما رست به علاج من مرض منهم ، وقال في كلامه على مصر والقاهرة وما منها جامع من الخوم ، ولا مسجد من المساجد ، ولا روضة من الروضات المنيعة على القصور ، ولا محرم من المحرمات ، ولا مدرسة من المدارس ، ولا فصل السلطان يعم جميع من يدوي إليها ويلزم السكنى فيها ، نهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال ، ونه نزع ردة محضر أزمها معلمين يكتب الله عز وجل يعلمون أبناء العفر ، ولا يقيم خاصة ونجاري عليهم لجراية الكافية لهم ، وذكر غيره أن جامع مصر بين العشائين كان عاماً بمحقق الفقه ، وثمة القراء ، وأهل الأدب والحكمة ، ولا نرى أحداً من محسب القراء ، وإن هذه المحاسن كثيرة ورعا لا يكاد يخلو مسجد كبير من محسب يسمع فيه الناس عملاً وحكمة وعظة . ويقول المقدسي في المساطلة إنه ليس في الإسلام أكثر محاسن من جامع وأهله معدن العلم ، وإن نعمة أهل مصر بالقرآن حسنة .

بل من كان يغفل أن دولتي لم يترك الحرية والحرية وفي درنتها بعض المصلحة تعينان بالأدب والمعارف على مثل لدول العربية السنية حتى كثرت في أيامهم المدرس والبلو مع والبر كثرة بحرية ورتقي من النساء وصارت علامته الذرف . وكثر المؤلفون والباحثون ، وردت علاقات مصر دول العرب وعلاقاتهم بدول الشرق . نعم في أيامهم تدهس لأمر ، في تشديد الرواية ، وكانت كل رواية عصر معينة لطائفة من القراء ، وفي عهد بعض ملوكهم تدهس لأمر ، وللكبر . في ساء المساجد وراودوا وعانوا ، لأن أمير الوقت كان يعنى عليه الإصلاح ، وحبيب إلى قلبه أن يرى ذلك من رعيته ورحائه . والناس على دين ملوكهم ، وما يراه في بعض لأحبابه لقريته في القاهرة من قيم الخدم إلى حب أخيه ، هو أثر من آثار هذه العلية ، ولو كان اجتماع على بناء الجامع الواحد يدل اختصاص كل فرد بعمده ، لجاء العرب في مصر وغير مصر صورة عظيمة من صور التضامن الاجتماعي ، ولكنك القاء المصاع الكبرى أكثر من غيرها .

وأكثر ما هم مصري عنها وحمل لمعظم مظهر العمل فيها مظهر خاصاً بها تمتعت من العهد الأموي والعباسي بأجل أيامها ، وكان لها أنداً شبه إدارة خاصة ،

وطناً برعت إلى الاستقلال الحرفي أو السكي . واستقلال بن طوبون هـ عرت
عرباً عربياً ما عهدته منذ قرون ومن ثم هـ حط مصر شخصتهم ، وثيق سببها
أشده ، وبم صحر . التيه في طريق إلى الان شرق ، فتدعى كثير من الفتحين
فقدم من مصر ، وكان من الصعب فقدم من طريق الحرفي عصور سفن أهو هـ
ومن هـ مصر أن بيت مقدس حدد عن حدود هـ ، ثم عرها العيسيون مئتي سنة
لاستصلاحه كما وقع في الشام ، ومن حين الطبع فمما أن نشر انجيين فمثل
حكماء وهؤلاء كرو عران وتيجور لك ما حدثهم أنفسهم في القدر لاحتلاله فبحث
من نحو منهم على ما حررو كل لد تروود من الان لإسلام في القرن التاسع والثامن
والثاسع ، ومنها ما درود من آرد هـ ولم يقوا من أهله دياراً .

وأبت الأقدار إلا أن هـ مصر راحة سائر الأنظار العربية في حظها من
النجين هـ ، ثم سيم لأول انجيين اندعو حذر (يدر) من طريق صحر التيه
بصر على أنسب فريك فيه ، وكانت هـ من مصر بين قد منبب حكماءهم أو حر
أيهم وفي إلى مصر بين من حذر لدلة العنة هـ بعريها ، فمفقو على منهم
مصر إلى لأرك أملاً طولاً يد هـ لاحتكك ترك العيسيين طر هـ طسعة
المعول وحدة ، لأنهم ورك من خمس واحد ، حولاً لا يصلة فمهم إلا لأنهم دنوا
بالاستاء هـ منهم إن يحمر تحريك الان التي يحتمو على الغلب هـ يتخرجون من
إدخال ومن عى مقودهم ، وقد عم الساطن سيم في هـ الطير فعمالاً نانية عن
حد لاصف ، ومن هـ أنه حد إلى المصططبية لمشارين من رجاء ، والد هين
من رباب الصنع فيه ، فطقت فمهم حسون صعة ، هذا إلى هـ حمله معه من ذهب
وحورها وديهم وكنيه وعلاقها ، وثيق فمبل فتحة ش كان البر تقديون وقو
إلى الطواف حول إفريقية . فتحو طريق رمن لرحا الصالح ، وحول تجارة الشرق
عن مصر ، وكانت سوق الكرى دهر طويلاً ، وبجر القدرم أهم معدط ، وكان
من هـ الاحتلاط والخراج مع أهل لاقطر الأخرى دندة لمصر ، فاصعت
تجورها افتقرت كمعلم هذا الشرق الغريب ، ومتى دب الفقر في أمة فتقر على الأغلب
أعمال العقل في بنين ، وكان من عومل التفتقر أيضاً نشر لأوثة كل مدة لانتق

من الناس ولا تذر . ونحن قلت : لازل مصر في أكثر ما كانت طواعينها الجارية .
 كانت الحكومات التي سبق تعيينهم فيها كان لو أنها تفكر في خير مصر ، لأنها
 تأكل كل مه وتستمتع به ، فتعطل على رجل لأدب وجملة الشريعة وتشتط الصناعات
 والتجارة والزراعة . ومذبح الدخ مدينة القسطنطينية حاول أن يشي له مدينة
 إسلامية تصاهي على الأقل مدينة مصري عهد المليك . فاحقق لأن اعتماد أمته
 للصناعات العمية والعلمية كان صعباً ، ومنه حربه صرفة . ورجع بعد لأترك أعمال
 اليد والمكر ، لا يتناسب مع عظمه لأمة الحاكم ، فتركوا بمصر الإسلامية وشأنها
 تنفخ وهم يتبعون . وما كان ثم الدولة في مصر غير جمع مال من عيادات وإعلاء طلبة
 خاصة من رجاله على نحو ما كان من رجال رومية على عهد دولة الرومان ، فتركت
 القطر عرض الرعاة من ولادة ، وكثيراً ما كانت تصبهم أشهراً قليلة تسلا يخرجوا
 أطول الزمن عن طاعتها ، ومن كان منزله منزل فدية كيف يتبع له الوقت لمكر في
 إصلاح محتل ويحدد مفقود ، هذا كان على اعتماد عمل الخبير للناس . وحل
 نقايا المليك على كثرة من قتل منهم في الفتح المماني حكام مصر بالعمل ، ولا تكاد
 تقع في أهل هذه الدولة الانغمية على شيء سمع ثقة أو أدب أو عمار ، واصمحل
 في عهدها كثير من مشحصات الأمن وأصبحت المدارس مصطلبات ودوراً ، وظل
 التدريس فيها ، واستصفت الوقوف التي كان أهل لإحسان من ملوك والامر .
 والأغنياء حاسوها عليها ، وانحط لأرهم في أيامهم إلى التي ليس بعده ، ورفع منسه
 معظم ما يفتح الذهن من الفنون شمدت ونعمدت طريقة التعليم فيه ، فصرت
 قواعد العلوم العساراً وأصاحي حملت الكتب منها أجلاً ، وضاع الجوهر الواقع في
 عمار الحواشي والشروح والتعليق والاختلافات وشيت العلوم الدينية بما لم يكن فيها
 فضلت الأهم لزهة العلاء في كتب الأقدمين المسهلة الواضحة ، وتعليم كتب
 المتأخرين وما فيها من خط وحلط أحياناً تضع في حل رمورها الأعمد جزافاً .
 وسقط الشعر إلى الدرك الأسفل ، وأمسى الشعر يبرد من عصر س ، وأص الطب
 والهندسة وسائر الفنون سبلاً مسمى .

نعم ضمنت الآداب حتى ما تكاد تعد مصر بعد القرن الثامن من الشعر . من

يحدث باسم أن يدقوا كلالهم ، وفقدت الكتابة بالسجع السخيف . وفي الكتب عوذات من كل عصر لا ترضيك منها السلطيات ولا الإحيويات ، أي ما صدر عن الملوك والأمراء وما صدر عن الأفراد من لأدباء . وعلى تلك النسبة انحطت الخطاة وكان لها في عصور الأرتقاء مواسم حية الثروات ، تنفع في رفع مستوى العقول في الأخلاق والسياسة ومعظم انطباع الاحتجاجية ، فاصبحت في هذا العهد عملاً من عمل برهد والتوكل ونسب يد الذي في وحوه من يسمعونها ، وتعليمهم الرضا بالدور من العيش . فحدث لهم ، وترعت الشم ، ولقت الناس منازع لو سار عليها ساجدون في قرونهم الأولى لما أنشأ مدينة جميلة ، ولا أسسوا ملكاً ضخماً ، بل كانوا بلا مراء أحط من زئوج إفريقية .

وتحدرت لأعصاب فوهت المدنية ، وهل المدنية غير ابنة الأعصاب القوية ، وذلك ما نشرف في زجاء القطر من أهواء حديدة علمت الناس الكسل وأعدتهم عن حياة العمل ، فرحب الخرافات والتراعات ، واعتمد من اعتقد بأسكر مات ، وكثر الاستمداد من أهل القبور وأسدرها ولاجماع حولها . بما لم يعهده مثيل في الحضرة القرون الأولى للإسلام . كأن سحارين عرفوا من روح الذين ما لم يعرفه جهنمات الصحابة والتابعين وتابعهم . وظل حكم الملوك لمدينة وما عادت الآداب تنفع في إنارة الألبان وتحسين حال المجتمع . وحلت عن يستحسنها أو يستهجنها ، وعن يقرها أو ينقدها ، وكان الشرعي الدهر الميريقم القبيلة وتقعدها ، والخطبة الواحدة تعقد الصبح أو تشهر الحرب . وعدا الدس لا يتدهمون في مصالحهم الجبرية مع عمالم إلا بواسطة التزاحمة ، والقضاء تركي ، ولادرة تركية ، والروح تركي ، ومثبات الألوف من أهل مصر لا تقض لهم ولا يبرم في ترتيب بلادهم وموارد حياتهم .

يقول مؤرخو الترك إن السلطان سليماً فتح مصر وبلاد العرب كان يسوي أن ينجلى غير المسلمين عن بلاده بحيث تصح إسلامية صرفة شعبه من ذلك شيخ الإسلام زبيلي علي أحمدي وقال ليس لك أن تزجرهم عن أرضهم ولا حقلك في غير الجزية منهم ، وإنه كان من أماني هذا السلطان أن يحمل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ولكن الأجل لم يساعده على إيفاد مبعثه لما شغل به مدة حكمه من الحروب

ولعارت . ومما أحسن الظن به كان من بينه ، فاعبارة . بإخراج أفكاره من حيز القول إلى ميدان العمل . ولو كان بدأ على الأقل بأن يكتب أو يقرأ في اللاد العربية بنفسه لقلنا به يهد السبيل لما يرى فيه سلامة لدولة ولأمة ، ولأفكاره كثيرات كثيرة ، والمهيج لا حد لها ، وقد بُنيت آحاد الناس أفكاراً جديدة لا تعد في معرض العمل إلا من عالم الخيال . وبعض أفكاره الغامضة يصعب د طغفت كانت شيئاً مذكوراً .

ومارلت حال القطر مصري في تفكيره خلال القرون الثلاثة التي حكمت لدولة العثمانية فيه مباشرة حتى قيصر له رحل عصمي صحت عريته إلى تأسيس مملكة عربية . غيد محمد علي الكبير . وفي مسكه سيرة من مسكه في لإسلامه من خمس وترك ولشركس والسكرد والبربر والعرس والديم . في به لم يتخذ غير لمرسة لعمارة برسم حظي من سقوطه إلى حكم مصر من غير عثمانيين . ونفي عنه حاصه بذكر السادة العربية ينفذ عن فر . وعبره فحار بما كادت تفي ، ودخل وحاً إلى حصم عتي إلى « والعلم مد كان محج إلى العلم » ولهم مصر من العلوم لادنية التي « محمد » مصالح الحديد ، وما قوم رجال الدين فير الذي نسب إيهام وعصو محمد لم يستحسنوه كثيراً في صهم ، خلافاً لما كان لمن نظموا في مثل سبهم في فروع عاصمة خلافة ، فبهم قوموا الطلبة ، ونفي مصهم بتحرير طبع العرب ، وقوموا العلوم لادنية وحفظوا لغاتهم ، وقاموا لاس العرب ونظر بوش . كما كانوا من قبل حرموا القهوة والسكر ، فقتل في هذه السبيل أولاً وأخراً ثوف من لخلق . والعربي على ما يظهر أكثر الشعوب لإسلامية تاجاً وحرية ، ون كان العرب مارأوا مد عصر صاحب رسالة دعة لدين وأمسد . ونساجهم مع من يحولهم موضع العجب .

دخل لإصلاح ديد مصر يتناول أكثر الفروع والمظاهر ، فتعل للدينون يث ثقافتهم ولحكومة من ورثهم تخمهم ونصرهم . ولم ير الدينون مد قبل من التاكؤ إلا أن يسأروا الزمن ورضو أن يدخلو في أنظمتهم وتراتبهم شيئاً من الجديد المبد . وبذوا أو كادوا موضع من الكتب في عصور لإخطاط الفكرى . وأنشأوا يطبقون مفاصل لإصلاح على طرقهم ببطء وتأن ، وفتحوا السبيل إلى أن

يتذوق طلاب العلم لدى لائحة من العلوم التي دعوه ، معصرية ، وكان لأولى أن تسمى القديسة كالرياضيات والطبيات والنلك والتدريج وتقويم البلدان ، خرج من لأرهر وصائر امدهد ليدية في القصر عه : تعموا في الحجة على غير الطريقة التي كانوا يمارسونها قبل ثلاثة أجيال ، وكانت تصعب العقل ، وشتم الخرس .

وكان الفصل الأعظم في تجديد هذه المجموعة الجديدة من الثقافة وإحياء الآداب العربية ، درس الحكومة على خلاف درجتها ، حتى يصل الطالب إلى الجامعة ، وخرج درس تعليم تلاميذ كرامهم في العلوم والآداب ، ولمحمد أيضا قصد لمدرس خاصة في بعض طلابها للحياة الحرة ، لا حرم أن وزارة معارف منذ تأسيسها لم تكن جهدا في تحقيق علم في مشرقهم ولذلك كانت تسائر زمن في شوقهم وقلقهم ، ومما نظم أمر المبعوث إلى مند من العرب ، ترسب الحكومة أو الأفراد ، دحاج ثمانية معصر في طور جديد ، وأصبح فريق للتدريس وفريق للتدريس ، لا يصر كل منهما إلى صاحبه البصر لأول ، ويرى نصير الواحد للآخر حرمة وحدشته معه وشدة ربه في كل شيء ودرس ، وقد في مصر رقي رجال العهد القديم الذين تخرجوا من التعليم الدينية ، وورقي طمة من رجال العلم الحديث تفقوا أحدث الأساليب العربية ، وسنابع ثلاثهم طريقتهم ، وهم قسطة من تربية أمم مصر ، ورائد وتدعوا إلى نصي جديد ممكن ، وتوثق ألا تنقح حجة من واعي العلوم والمعنون لم يعالجوا فيهم ويبرزو فيها بقدر ما سمحت فرنجهم وساعدهم بنهاهم ، وأصبح لأحدهم ، وعد العلم لأولى في رتبه المعرف في العرب مما يحرس على الأخذ به المتبعون ، وكان من يطلق عليه من العلم في لغزوب العارة ثمة بدعي معرفة كل شيء ، ولا يكاد يتقن مسألة من المسائل .

ومن نظر اليوم في مدرس على اختلاف درجاتهم ، وعرضها بما كان من نوعها مدحيا من الناس ، ونفس البطر فيها تخرج اليوم من الطلاب المحزين بأجل حبر عقيقي ، ومكان يصدر عن المؤنسين والكتب وشعراء من الآثار ، وما يخرجون للناس منها ، لم يهدأ ، ومكانت عليه الصحافة المصرية من لخدوي امبايل وعهد انه حلالة الملك فؤاد الأول ، وكيف كادت صحفة مصر في هذه الأعوام القليلة

تصايف صحافة لأهم التي بدأت بالتهضة منذ أربعة قرون - من رنى هذا يجعل
خجوراً بأن قرناً واحداً ، تحلته فترات وهجمات ، كفى هذا القطر أن يصطلع له ثقافة
فيها كل الخير لحياة مصر في مادياتها ومصوغياتها .

الجوامع والسع ، والمدارس ولحب كم والأندية والصحافة ، ودور تمثيل والعمه ،
غيرت طحات القوم ، حتى قوت اللغة الدمية من الفصحى قرناً عرياً . ولت
أديسون اخترع الحاكى في القرن لماضي فحطمت لما في أسطواناته طحة الناس منذ
مئة سنة لقارنها بهجنتهم اليوم ، وسنم كيف كانت أبحاثهم في الجناس والمدارس
ومواعظهم في الجوامع والكاتس ، وحطبتهم في الأندية ونصؤهم في المحاكم . وعسى
أن لا ينقصي حيل ، ومض حيل حتى نصح لغة التحدث كلمة التكايب ، والكمال
في ذلك مصبون كما تسلسل الترقى في أساء مصر واستوفو نصيبهم من المعارف ،
ودأبوا على التحصيل ولا تقى حاء ، لعلم العالم لارعة في بيل اشهدت ولألقاب
وعتلاء لمصوب والمراتب فقط وعندها يجلولت عن أسمهم ويقعون من كانوا الى
أمس ينكرون ، مومل حسية أو دبية أو سبسية ، فضل لمصري في تقدمه شواطئاً
في طريق الحضارة العالمية .

و بعد فلا عيب وقد أجهلنا لأدور التي قللت على ثقافة مصر أن نوحرف في
تعريف هذه النهضة الحديثة التي نمت في ظل الدولة العلوية الكريمة وفضل من
اخبارتهم من حيرة المصريين ، وما حجاج ، يقال فيهم . إلا أنها إصلاح ثقافة قديمة ،
واقباس ثقافة حديثة ضمت الى حنتها ، فكانت سيرة لدولة لمصرية في هذا الشأن
سيرة الدولة العباسية في أول أمرها ، ارتقت فيها العلوم العقلية والعلوم العقلية معاً ،
ونظرت في عامة علوم الدين وما يسمى لها ، وقبست علومها مادية كانت راحة عند
من تقدموها في لأخذ بذهب الحضارة فصح أن تدعى الثقافة لمصرية لأن
ثقافة عربية غربية إسلامية نحس فيها روح العرب وروح العرب وروح لإسلام
وفيه أثر حكمة القدماء والمحدثين ، ومن كل معنى طرف



تمازج الحضارتين العربية والفارسية

أثر العرب في الأندلس وصقلية وما إليهما

لما بدأ العرب فتوحاتهم في لإسلام فقصو على درس ، وقنطوا من بزنطية ممسكة لروم شرقية ، الشام ومصر وسوجل إفريقية ، كانت فارس وروم أقوى دول الله لم وأكثرها حصارة ، وكان العرب نسبه متحصرين يعلمون ممن علومهم يصلح ملك ولساطن ، وه انقضى ثاقون سنة على خروج العرب من حيزيرتهم حتى أضفوا ما عرفه الملوكون الى ما عرفوه من نصيب الحرب ولا يدرة ، قرأبهم وقد مكس لهم في العرب يستولون على لأندلس ويتوسعون في فتوحهم حولي قرنساء ، ويب كان سومية في الشام يديرون مسكاً عظيماً ، ويصمون أسس المدينة العربية نقل العلوم لمدينة عن السريانية ولعظية ولرومية ، ويعموت كل العاية شروين العلوم للدينية ولأدبية ، وقد بدت طلائع الحصارة في البلاد التي أظاها ملطهم - كانت ملاد العرب اللابني في نخط دركات المدينة ، بل كانت الى محمية مرصصة ، تعددوة العرب في تحريرتهم فيل لإسلام مدينة إذا قيت بيدوة العرب . بل كان الناس يعيشون في ملاد اللانين والآنحلو سكسويين والخرمايين ولصقانية في نوحش مدائم ، وأوربا عصة للمهابث الكثيفة ، متآخرة في زراعتها ، والمستقعات في كل ناحية محصد الأرواح ، والوالالة والأولئ تعادي تلك الشعوب القذرة وتراوحها ، لا يعرفون البيوت الصحية ، ولا الفرش الوثيرة ، تمام الأسرة كلها في عرفة واحدة على فرش من تنس أو سات مخفف ، وهي الى الفطرة بعدائها وأكلها وشربها ولباسها وبجاسها ، وبيوت لندرا وبارير أكواح صغيرة بيت من أحجار مصفورة مصفوفة كيفما تنق ، وهناك قلاع وأبراج وكائنس لا هندسة لها .

وليس في العرب شيء ، منه آمن وأمن ، يقضى على كل إنسان أن يكون على

استعد في كل حين ليرد لأشقياء عن ذره وحقه ، وفي عدوه وروحه ، فلا يد
 ولا سلاحه إلى حبه ولا يستطيع المرء أن يسير فواسج قبيلة ، دون أن يستهدف
 القتل أو السلب ، وقد جعل بعض زناد القوة من تهب عرس الناس في الطرق
 مهنة لهم يعيشون منها ، يقاتلون ويقتلون ، وما من حكومة قوية تناقشهم لحرب على
 ما تحي يبطيهم ، لأن لأمراء كانوا مع رجال ندين أنه برؤساء عقدت معهم
 برعاء بلاد ، ولم تكن نوره كله قد دست النصرية ، بل كان من مملكتها من لم
 يرل على محوميته ووثنيته ، والصصرية دحنت مدن أولاً ونشرت في القرى
 والدماساكر بعد أزمان

وبما كان ثالم الأعظم موره عرب ثميا أو يقرب من لامية ، كان يصور
 والرشد واثمون تترجمهم كتب الطهات وزيهيت واثالث والطب والعسفة
 والبصاء ، وما كان أهل عيا ثمين كهده دوبر كته ولا أحمر ولا عرو
 أدنا ولا شعرا ، كان العرب قد نشأ في كل قطر وود كبلأ عصية ومحسن دية ،
 وضح منهم يقرؤن ويكتبون وحصصهم سطوم ويثرون ويخطبون ويؤثرون
 ويعشون في العلم والسمعة على طريقة أشبه بطرق أهل مدريت لحديثه ، على حين
 كان بلاد القروى وسطى في العرب لا تذا من عن الاملاحين تمديهم وعصهم ،
 وكلهم أميون جهلاء فسة الطمع ، يستعملون كل مكر لا همهم غير شراب والطعام
 والصيد والفارات .

وبما كان العرب لا يعرف حية ووعية ، ومن هذه كسكان ششوق
 (شرويك هراشناين) في لديميك من كاو كافر حوش يسكنون عو ، نهم الطمع من
 الجود ، ش كثير من الشعوب في شرقي أورده وشبط ولا يحسون لفق حود ولا
 حباطتها أيضاً ، كان العرب قد دخلوا في مديح حية وروعة عيش يسكنون وسائهم
 أهل لأ كسية من الحرير وتقطن والصوف والكثن يسكنونها في معاملهم
 ويحكوكمها على أنولهم وهي وفيه بحجات الحصري والقروي منهم على خلاف
 الفصول .

كان أول حشاك مدني وقع بين العربي والعربي في سيب نصري لأنها كانت

ميداناً للعارث بين العرب وروم منذ قنطع العرب شتم من مملأ البيزنطيين ،
 وحاولوا أن يتقدموا إلى فتح القسطنطينية . وكون العرب بين الفريقين محالاً
 فيأخذ كل فريق من الفريق الآخر سارى ، قد يقصون في بلاد عدوهم أعواناً .
 فيتعم العربي روميه وتعلم رومى العربية ، ويروى أيام مهادت والسلام بعض
 أهل الطبقة العالية والوسطى البلاد المحورة ، ويرى كل ما عند الفريقين من أسباب
 العوق وما حلت بلاده من عند حاد من عوامل اليهود وأسباب القوة في الأمم .
 ولم يلبح خرق ثيابي ردت من حاد أخرى لشعاف العربي بالعربي وهي
 مساحة جنوب وروم العربية فيصير إلى ماله حاد أو الشرقية فتح العرب
 لأندلس سنة ٥٩٢ هـ عند قصور على مكة فزعوت أو العوط كما كان يطلق
 عليهم العرب . ونحو لاسيوس في شأن حرية ابيز بايعتصمون في حاد جانية
 ويستأن الله بعملة بلاد اسبانيا والبربر ، يستصمون من البحر اروي إلى بحر
 الصامت ويروون عن البلاد على قصصهم وديارهم ويعلمون فيهم ويقلدونهم بعض
 الأعمال الصغرى منهم . وفي كبريتهم بعد من قليل . ومن عادة العرب إذا
 دحرو قفاً أن ينفوا لأهل أوصافهم ومسلطحتهم وترتيبهم وأن يحكموه لأول
 الأمر حكماً شديداً ثم يجيئهم مكر صريفاً ، وعد من يدبج سياستهم ، وكانت
 الحربة التي صر بها العرب على غير المسلمين وهذه تقيس إلى ما كانوا يستعملون به
 من راحة والخفة ، وقصب شروص يصلح أن يحمل على كل رجل حراً نافع ديدار
 وحدي لينة ورية مدد شح . ربة أمد دشعر ومقدر من خل ولعل ولزيت
 وعلى العد نصف ذلك ، وأب تخط على عن البلاد دوزم فلا يسون ولا يفرق
 بينهم وبين أولادهم وسنهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كسايتهم .

وه غتم لاسيوس والبيزنطيون شهدوا الفرق المحوس بين ثقافة العرب
 الدين وثقافة الملوين ، ودعى بعضهم أن حصاره الأندلس كانت لاسيوس
 بدحول العرب وفاته أن اعوم سواهم بمحمد حنبله العربي على إسبانيا ، ف
 انقضت ثلاثون سنة على اعتنح حتى أصبح الناس يسخون الكتب اللاتينية بحروف
 عربية ، كما كان يفعل اليهود بخطوطهم العربية ، ومضى نصف قرن حتى دعت

الحال الى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية الى اللغة العربية يتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها ، وما أنت على الفتح خمسون سنة حتى اصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية والعقود ولوائح تكتب بالعربية حتى بين لاسيات أنفسهم ، واتحد النصارى من اللغة العربية ترجحاً لمواطنهم وقلوبهم ، وأخذوا يحجون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب عبد الإسلام وفلاسفتهم ، لا يريدون عليها بل ليحأوا بها مصطلحاتهم يقرؤن العربية لمدة ويقومون كتبهم ، لأنهم العلية ، يؤلفون منها حزن نفيسة ، ويدكرون في كل مكان أن كتب العرب لم يعجب به ، وأن حدثتهم عن كتبهم الدينية أجابوا رددها من هذه الكتب غير حرة ، واثبتهم ، وما كنت نجد في ألف رجل من يكتب رقعة مناسبة باللغة اللاتينية ، وثبت إذا كتبت أحدهم أن يكتب بالعربية نجد جمهوراً يعيرون عن أفكارهم بهذه اللغة على صورة تديعة ، وقد يطمعون من الشعر العربي ما يهوق فيه من الصداقة شعر العرب أنفسهم ،

لم يمض قرن على فتح لأندلس حتى أحصت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران وترجم الناس الكتب في المدن ، وعدت قرطبة عاصمة البلاد كموطن وروا اليوم ، دار ليل المصباح يستضيء الذي سرحها ثلاثة فرسخ ، وكان من رجال الحسنة وهي أشبه بالجناس البلدية ودواوين الشرطة اليوم ، من سطو الشوارع وأخذوا كل يوم يرفعون القمامات والقدورات ويرل صرر المحجري وانفي لثلا يندى بهم السكان . ولا يدعي من يحب الساء إلا على طريقة هندسية يعينها له ديون الحسنة ليتترك فرعاً يتمتع به الجيران وأسة السيل . لا يبيع عنهم النمس ولها ولا تنضابق المارة مما أكثر سودهم ، فقرطبة إذاً أول مدينة في العالم كان لها مثل هذا النظم ، وما شئت أن غدت عاصمة علم وصناعة وفن ونجارة ، وكهه بحج البها بعض الديون من أهل العرب يطورون الى تراتيب العرب وعملهم وأحكامهم نظر الدهشة والاستغراب ، ومثلها كانت طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس في الشمال والحبوب .

وقل سومية الى لأندلس منذ كانت إحدى ولايتهم ، وبعد أن فتحها صليهم عد الرحمن الدخول الأموي فتحاً ثانياً واستقل ملكها بعد تصب العاسيين على دولة أهله في الشرق - أصولهم في الإدارة والأحكام والأوضاع وطرارهم في هندسة

القلاع والحصور والدور والقصور والجمع ، وحمل العرب البيوت ولمد كفى رضى الأندلس على الطراز الذي عرفوه في عاصمتهم القديمة دمشق ، كأن تدخل البيت من دهليز طويل ينتهي ماء واسع وشطه حوض ماء ، وعلى حوض صحن لدر غرف وبيوت ومقاصير يأوي إليها أهل البيت في الصيف ، وفي الشتاء ينزلون في الطقة الثانية من الدار وفيها جميع المرافق ، وفي الدار طقت فقط ويكون عرف الزوجين ومثوي الصيوف منقورة عن عرف النساء ، ولا يبرهن هذا الخرب في البيوت محسباً إلى الناس في الولايات معروفة الولايات لأندلسية في يوم الدس هـ محمدون درهم على هذا الطراز .

وأصبحت الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث لأموي عام الملوك وحاشي لآداب والعلوم والصنائع والتجارة وعلى عهد خلافة ، ولا سيما به الحكيم الثاني ، أحسن ممالك حصرة وعملاً وحسن إدارة في القرون الوسطى ، وما وسع لمراطين والملوحدين ، وإن كانوا من البربر ، لأنهم قدوة الحصار العربية ، إلى أن الملوك من بني الأحمر لم يسمهم فيما بعد إلا أن ينسحبوا في الأندلس على موال الأمويين ، كما لم يجد ملوك الطوائف وملتصون على الأطراف مدوحة من أخرى على هذا المثال في خدمة العلوم والآداب ، يقولون في حيدر حيرة العرب ، ولأدباء لتقليدهم الأعمال . ولقد وهت في الأندلس بمدني مئة مور كثيرة ولا سيما سياستهم ، ولم يصعب فيهم العلم والصنائع والتجارة والزراعة ، وكان ولاية الأمر إلى الخبير في عامة أحوالهم تقل الرقعة بهم ، وينتدون عن كل ما لا يعش نصل من أصول الدين في الجملة .

كان معظم ملوك العرب على نصل دشم بمرك الأندلس ومرتها يوم كانوا الأول سلطانهم في عاصمة قرطبة ، وكذلك لما ضغط عليهم ملوك قشتالة وقموا في عاصمتهم غرناطة . وما بقي من آثار العرب الكثيرة في جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة إلى اليوم دليل ناطق ، بلعنه حصارهم من مر في الفلاح الباهر .

وأدخل العرب الذين حلوا في الأندلس وسكنوا اندلس ولأرياف سكى دائمة طرائق معيشتهم وأصول رزقهم وصناعاتهم على النحو الذي نعه في المشرق

أدخلو اليها كثيراً من أصناف الحبوب والقول والأشجار وزرعوا الفلوات وحيروا
لموات وعمررو القرى ومدن ، ودخلوا إلى الأندلس معظمه لصنائع وأخذوا يجررون
الماء في سائط الجورة بما أقدموه من الخربات والوعر ، وعما عرفوه من أساليب
المهندسة في تقسيم المياه ، وأسددوا نسبة القنينة إلى اليوم شهادة تفهم في أعمال
الري والسقي وهي أثر من آثار سوعهم في الهندسة . وعسى هذا العلم على أهل هذه
الولاية حتى ينقري نوحهم لرجل من فلاسفة بلادهم لجميع لأعظم كان مهندسا وفلاسا
قاضي حجة وقضى القضاة كان مهندسا راضيا .

وتمتع العرب في بلاد من النصارى وكانوا يسمونه استعربين كما يسمون
المسلمين الخاضعين لأصحابنا المذبحيين . مدة حكمهم يسمونه شامو من بعد وكسان
ويصفون جميع أعمالهم ، وقد عمده سنة ٧٨٢ م جمعاً في تنبيه وفي سنة ٨٥٢ م
تجماً في قرصة وكان رجال المدن من النصارى يدعون إلى دينهم في تنعيم بلاد
الخليفة الأندلسي وزعموا وقد عني نوب لم أحد ينسقطون للمسلمين يشو دينهم
يهم ، يتصرفون للمسلمين والإدانة حتى تكتب لهم الشهادة وسعة فيهم وأد
مرأهم منصوصهم وكرماً ، ومع من سب سب العرب في الأندلس نه إاد شجر
خلاف بين مسلم وعربي من الحدود على خلق عاباً للشرابي . ففشأت بذلك وحدة
وطيبة بين العرب والنصارى ، وكان العرب يومئذ في أقصى قمة عظمتهم وقوتهم .

وقد علمت العرب الشعوب المصرية كما من العلامة حوسوف لوف ثمن
القصص الإيسانية وعني مما استمتع وم من الدول التسدد في دحونه في العرب
أدوية ولعقيات عظمى من قديم في تخمين لأخلاق ، وكان العرب يطاؤون على
صناعاتهم الكرم والإحسان ، وفيهم أشبه بكرة الشمس ، مما لم يكن نه أثر عند غيرهم .
وتحسن للإسلام كثير من الأندلسيين ، وما كان هم غير مصالحة صليبة في ذلك ،
لأن النصارى في الحكم العربي كانوا يدمون كيهود أيضاً بقواعد مساواة ، ولهم
أن يتولو جميع أعمال المملكة ، وكانت تجري على سادس للإسلام أحكام الإسلام
فيحتلطون بأشراف العرب ، ومن طل مختطاً منهم بدينه ندي عادته ، فصار
يحبب نفسه كالمسلمين ، ويقتدى بآدابهم وتدينتهم وعدائهم في مآذهم ورفهيتهم

ولذا ندمهم ، ويرصد في لغة ملايكية ويبحث في تعلم لغة العربية وناسي الإسمين
 صولهم واستعربو بحضرتهم وأخلاقهم ونشأوا يقصصون العربية وحسن الخطب
 بحر ورومهم عملاً لإدراكهم وماء لشورهم ، يقصصون إليهم ومرهم . وكان كثير من
 ذكبي . الخلافة وقشتاين واليوين والدرين ، دع من كذا في البلاد الواقعة في
 حكم المسلمين من أرض الأندلس ، يتبعون العربية ويقدمون عليه لأندلسي أو
 أحد رجاله يستخدمون في أرضه .

وروح العرب من است لا يست و برقائت . وسبع هد نواح بين
 العرب ، ومنى ملك سغري على عهد عبد الله الأندلسي من مولد الطوائف
 بنو حو من است مرة لمعين ، فقد . روح نفوس اندلس ريدة منه مر
 وشبيهه ، وعقد من هد . روح غير مرة وكان عدد . بروحت من الإسمانيات
 والدرين مر . مسعين وعدد من است بروحت من لاسيين وأبره من حر
 يوم الأندلس كذا . حتى جرى لذلك كلام في شروط التي تمت بين
 القالب والمطلوب

ومن ثم من أثر لاسيين من لاس ، لاس ، وللمع والروح ،
 وكلف منهم ، وكثير من هن صفة به من اسعين كذا يعرفون من حينهم
 ويتشبهون بهم في الأكل والحديث وكثير من لاسول ولحيات . وكان مص ملك
 بني لاسير يري لاس . وكذلك لاسهم ، وذكر العلامة بن حلدون في
 الأندلسيين لاسهم تشبهون . ثم الخلافة في ملاسهم وشراهم واسكين من
 عوئدهم وأحوطهم حتى في رسم الحيل في الحدرن ومصع والسيوت وعد ذلك من
 علامات لاسيلا . وبعد قذا من غريير خطب ، وكان من كابر العباد ، الملك
 على مرتبة ستمع خطبة الخطيب حاسر لاس على مثل موش لا فرنج ، وكذلك
 كان بن هود يسير في ملاده حاسر . وعلى هد درج بنو الأحمر ، وكان يسبح لاس
 لاسين هدا أن يروحو ذواتهم على مثل رجال الصون ولاد من لاسيان . وأخذ
 النساء والبنات المسكت يقلدن الاسانيات في العهد الأخير بلاسهم والسمور أو
 الحجب الخفيف وبلغ من تسامح أمراء المسلمين في الأندلس أن منذر بن يحيى صاحب

مرفضة وذوئها حري صهر ريمد الجليقي وشانجة القسطل من ملوك الإسبان على يده وكث عقد الكاخ بينهم بحصرة مرفضة في حمل من أهل المئين . ودكروا أن مص ملوك الأندلس كانوا يعرضون في قصورهم التائيل الجميلة وفي صور الآديين وغيرهم

كانت الأندلس العربية البلد لوحيدي العرب الذي كانت فيه حقوق اليهود مصونة من حور الخورة فامالوا عليها من كل فج وكثر فيهم سودهم ، ومنهم من انصرف الى خدمة الدولة وتعلم العلوم كاطب ونحوه ، ومنهم من انتمى به رطلته حكومة لأندلس مع بلاد الخورة من الصلات اندرية ، فكانوا من أول التجار الذين تسافر متاجرهم مع مشاعر العرب والبربر وغيرهم على الأسطيل البحرية مقلعة من مائة والعربية وشونة وبرتونة تحمل الى الشرق والى شمالي افريقية وجنوبي أور « غلات لأندلس ، وتأتي إليها غلات اللاد القامية ، وبعد انقضاء عقود من السنين كان الفصل لبعض هذه اليهود في الأندلس نقل الحصرة من العربية الى المرابية واللاتينية ، فملوا علم مدتهم بالأمن الى من لم يلقوا منهم في معظم الأدوار الا اعمت ولا يهق . ورب كذب صاع أصله العربي وقيت ترجمته اللاتينية أو المرابية على نحو ما كان من السنين كتمانها التي فيها في مدينة حيطلة من العربية الى اللاتينية جيراردو دي كرموني في القرن الثاني عشر وهي في طيبة والمحموم والمندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة .

وعذت عرب الأندلس المتاحم على احتلالات ضروبها ، فكانوا يبعثون بما يستخرجونه من أرضهم ويصنعونه من السلاح في معاملهم ، والحريير والخوخ والجلد والسكر والورق الى افريقية وسائر بلاد المشرق والمغرب ، واشتهرت معامل الورق في شاطبة اشتهر قرطبة بجلودها وسلاحها وحليها ، وشبيلية بحريرها ، ومالقة بزجاجها ، والمربية بوشبها وديباحها وحوحها ، ودحة بنسج كنفها ، وسرقسطة بسلاحها ، ودية بسجادها ، وطليطلة ومرسية بأسلحتها ، وكانت أوربا العربية تأخذ ورقها من الأندلس وأوربا الشرقية تنقصه من معامل دمشق وحلب وطبرية وطرابلس من الديار الشامية . وحمل العرب الى العرب من حملة الصنائع صناعة السجاد وصناعة السفن

اجتمعوا في كل قرصه من موني الأندلس على البحر الرومي وبحر الفنت دور مضدة
تخرج لهم السمن الواقعة بالعرض في تلك المصور . فكان الانتفاع من البحر والبحر على
أهم حالاته ، وكانوا يسترحون من دة تحت محبرة على شط البحر في شمرين وبراً
في لون الحز لونه لون مذهب وهو عز قبيل تسج منه ثوب فيثون في اليوم ألواناً ،
ويحجر عليهم ملوك بني قبة فلا تقل لا صراً ، وتريد قبعة الثوب على الف دينار بعزته
وحسه . وبلغ من عزهم ملوك عرصة نعلم أن فرسوا حواتر لصحترعين ليشطوهم
ويقلوا مائة يسهم ، وري مبروم «ميتارت خاصة ، وجارو بأمل الكثير من
يستظفرون كثنائاً يعبونه طر في امن الملائي ، وكما كانت للأندلسيين مجمع عمية
تجتمع في وقت مخصوصة من السنة كان عليهم يؤمون رسائل يهملها كل إنسان
تكون له عزماً على الانتفاع بالأعمال العامة ، أي دسائير سهلة الدول بتدريسها الصناعات
والعملة فتفيدهم فيما هم ببيلة .

وانقلت بعض صناعات العرب وأساليبهم في حرفة ولا سيما في زراعة وحفر
الزروع والطحنان وطام الزري ، وكانوا أنشأوا الطرق والجسور والنفادق للسباح
والمنشقيات والحوامع والرباطات في كل محنة ومبرل ، ورأى الفرنسي كيف عز
العرب «ارون وبروفسيا لما ستولوا عليهما وكيف سطوا أساليب السقي فيهما ودخلوا
أساليب عمرانهم الى قرطشونه وبهم وأيون وساس واقبيون ومرسيليا وبرل وبردو ،
ومنها ما جعلوه قاعدة لأعمالهم الحربية والبحرية ، ووقفوا عند حدود ستمانيا أقاموا لهم
فيهم مراكز دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد . وكان رجال الكهوت في تلك
الاصناف يؤثرون حكم العرب على حكم العزاة من الجرمايين لأن هؤلاء ما كانوا
يتحرجون من الاستيلاء على أملاك الكساس ، وأحدث الصلوات البديدة تنعقد
بين المسلمين والصاري ، ولما ارتد العرب عن اقليم ستمانيا سنة ٧٥٩ م احتفظوا هناك
بأملاكهم ويونهم .

كان احتلاط العرب بالإسبانيين والبرتغاليين والكتالانيين والفرنسيين والنشكش
(Les Basques) اختلاط محارب محارب ، يعرفونهم لأول الأمر بعزاتهم ، يأخذ
بعضهم من بعض أمري ، فلما طال الزمن رأت تلك الأمم المصعوفة انه لا ماص لها

من أن تعلم في مدارس لأمة لرغوة وهكذا كان من كثيرين من بني الإفرنج
رحلوا إلى لأندلس يأخذون من علمها العلم ويفتخرون من توارثهم، ومنهم أو من
مشهورهم إلى سلطنت إسبانيا (حربت)، وقد درس الريدصيت والفلك عند
علماء العرب في إشبيلية وقرطبة فكان أعظم علماء عصره في فومه، وقد صعد الكرسي
البياسوي سنة ٩٩٩ م كان أول من وثق الذين وحيو وجهتهم إلى توحيد قوى
العرب المقاومة للمسلمين في ستورهم في شرق العرب، وشبه كذبون ممن أخذوا
من العرب وكنت لهم مكافة تنفقه عنهم من قومهم.

وذكر أن شاذلي ميرليون كان يثبث في العرب وطلب العرب من
الأندلسيين هم الذين بقوا لطلب إلى في زمن شاذلي في الأندلس في كل
أحبة من الإدم المدارس وحرث الكتب والمصنفات العربية في العصور وغيرها،
فكانت موطن العلم في العرب زماناً طويلاً ومن يومه من مكافة جامعة العلم في إسبانيا،
والمؤثرية في عصره العلم في الأندلس، على نحو ما شهد له من مدينة إشبيلية في ذلك
وكسفورد في إنجلترا، وروى الأندلس في شاذلي من المدارس،
وكان في قرصة عشرت من الكتب له، وط، ونصيح لرحل وأمساء على
الدو، يكتنون ويقرون، بل كان من ذلك السلاطين من يزارون ويعطون.

وتجد لأندلس عن العرب في الأندلس وصفية معي الشعر وبعض أوربه
وموضوعاته، ولم يكن للشعر العربي إلى عهد العرب من سر فرمحي يرفع الرمن، ما حلا
عالي هي شبه شعر العامة منهم شعر الخاصة، وحتى لا يور حدود العرب في
القصائد التاريخية والمواويل، وتمت ربح لأندلس في فتعشت عدوى الاشتغال
بالأندلس العربي بين أمة صمدى مستعربين، وراحوا يفرضون لغة عربية
عالية، وكثير من قصائد لشعراء الذين كانوا يجهلون في بولايات (تروبادور وترووير)^(١)

(١) Les Troubadours et les Trouveres (التروبادور شعر، يعطون باللغة

الفرنسية بقصة كانوا بعد القرن الحادي عشر من القرن الخامس عشر إلى اليوم شعر، يعطون
كانوا يعطون ذلك من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر يعطون إلى الملوك والعظماء
يشدون لأشعار ويعطون على لأندلس ورما في قصورهم مدة

هي قصائد عربية، واقتبس دوتي شعر لغير كثير من أفكار العرب في رويته
 للمهزبة لاهلية، وخصوصاً عن أبي العلاء، معري، واثار لأدب الرومي والشعر لإسباني
 الأسلوب العربي، وأخذوا عن العرب أدب المتن عبد الله بن النعمان، ولا عني لإسبانية
 القديمة متخذة من دواوين شعراء العرب في غير ذلك، ثم إن إسبانية تأثرت أيضاً
 بالموسيقى العربية، وه زالت الموسيقى لإسبانية في إسبانية وجميع للبلاد التي استولت
 عليها في إسبانية للشعر، ولا إسبانية الأرحنين والبربر بل هي موسيقى العربية، بل
 مرت هذه الموسيقى إلى البيعة لإسبانية، وه كانت أخيراً لإسبانية في القرب
 الثالث عشر الميلاد، وكذلك بقول في الرقص وه رقص لإسبانية في اليوم هو
 رقص العربي نفسه، وبقيته ونلاحظه عنق، وهكذا بقول في كثير من أدب
 الموسيقى لإسبانية وه، وكثيراً ما يسود عن العرب وهؤلاء جاءوا به من
 الجحار وهذه نفسها عن درس وعي وه.

ويقول إسبانية اليوم ذلك قد نصت للعهد في شوع فرصة وه شيلية وعمره
 نوقس نه عهد عربي، وه قد طبعت في دار لاهلية بحمد الطعاه حياء معرياً، وه قد
 شهدت من إسبانية في حور في نهى بحسب لم عهدت أهبة خاصه، ون
 جميع حبة لأهس ركز لأمة عربية القديمة، وه لحدائق ولطائف تنقي من
 ترع وهي عربية وه موسيقى عربية، وه قد صدرت صغيرة وبحر معدود وقوافل
 من حيرة لأهس نحر الأربعة على بحور في بلاد العربية، وه قد سمعت من
 بعد إلى القسط أهل تلك المدن لأهسية يتكلمون لإسبانية تحسبهم يتكلمون
 بالعربية لإسبانية، وه ههستهم وشو رعيم وأخذوا وقتي يونهم وهي عربية
 صرفة على مثل ما هو من نوعها في دمشق وتونس

ويقول حور إن تأثر العرب في العرب كان عظيماً، وه ليهم يرجع الفصل في
 حصرة أوروبا ولم يكن مودهم في العرب قل مما كان في الشرق ولكنه كان يختلف
 عنه، ثروا في بلاد الشرق بالدين واللغة والصنيع، وه في العرب هم يؤثروا في الدين،
 وكان تأثيرهم في العلوم واللغة ضعيفاً، وعظم تأثيرهم في العلم ولأدب والاحلاق،
 ولا يشاقى هذه معرفة التأثير الذي أثره العرب في العرب إلا إذا عني به حبة أوروبا

في الزمن الذي دحت فيه الحصرة . وقد رحلنا إلى القربين اتسع والعاشر من
الميلاد يوم كانت مدينة لاسلامية في سائر رهرة باهرة ترى المراكز العمية لوجيدة
في عامة البلاد العرب عذرة عن مجموعة يراج يسكنهم مائة نصف متوحشين ،
يفحرون منهم ، ميون لا يقرون ولا يكتنون ، وكانت الطبقة العالية مستنيرة في
النصرية عبارة عن دهان فقر . حجة يقصون لوفت تنكس في أديارهم مسح كتب
القدماء ليتاعو ورق البزدي لاستباح كتب العباد .

قال وطال عهد الحجة في أوربا وعاء تأثيره بحيث لم تعد تشعر شوحشهم ولم سد
فما بعض ميل للعلم لا في لغز الحادي عشر ، وبعبارة أصح في القرن الثاني عشر ،
ولم شعرت بعض العقول مستنيرة دبالاً بالحجة إلى بصوكم الحيل الثقيل الذي كان
الناس يؤتون تحت طرؤوا . واب العرب يستندونهم ما يحسون اليه ، لأنهم وحدهم
كانوا سادة العلم في ذلك العهد . ولم بدخل العلم أور في الحروب الصليبية كما هو
الزري الشاع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا وفي سنة ١١٣٠ م
أشئت مدرسة للترجمة في طليطلة بعناية تيس الأساقفة وأحدثت نقل إلى اللاتينية
أشهر مؤلفات العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمة وعرف العرب علماً جديداً ، ولم
تفتقر الحركة في هذه السبيل خلال القرن الثاني عشر ولثالث عشر ورابع عشر .
ولم تنقل إلى اللاتينية كتب الزري وفي القدم وين صينا وابن رشد وغيرهم ، بل
نقلت إليها كتب اليونان مثل جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقيدس
وأرخميدس وطيبيوس ، وهي الكتب التي كان المسلمون نقلوها إلى لسانهم .

أصبحت اللغة العربية منذ الصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند
الخواص في العالم المتقدم ، وحافظت على مرتبتها لأولى بين سائر اللغات إلى آخر
القرن الحادي عشر ، وكان يقص على كل من يحب الإطلاع من أهل القرن الحادي
عشر على آراء عصره أن يتعلم اللغة العربية ، ولذلك قالوا إن كثيرين من رعاياه انتهت
كروجر باكون وغيره كانوا يعرفون لغته . وكان ملوك الأندلس يفاوضون حبرائهم
باللغة العربية ، وهؤلاء يجيئونهم بها على لسان تراحم لم يجيدون العربية ، ويقص على
أكثر شعراء الأندلس عند ملوك الأندلس أن يدوا ولو بإماماً ختيماً بلغة العرب

و بعد أن أخذ العرب العلم عن كتب العرب وفقدوا في محبرهم ومعاملهم
وجامعاتهم ومدارسهم ، وقرئت كتبهم وتغريهم في جامعات العرب مدة ستة مئة سنة
ودم ذلك إلى القرن الثامن عشر ، لا يستعرب أن تدخل في جميع اللغات العربية
لأنها اللغة العربية ولا سيما في الإيطالية والعربية والآرامية والبرقالية وفي كل
لغة من هذه اللغات الآرامية بصيغة ألوف من لأحد العرب ، أخذوها مصطرين
عن العرب لأن هؤلاء أخذوا الألف أو ما كانت منها بل لأن العلم العربي كان
وحده هو مشوق في العالم وكان العرب دعاته ورعاة خلال بضعة قرون .

نعم لم يجد العلم منحنياً ميباً له غير العرب في تلك القرون . وهذه فرنسا لم تنهض
من كونها بعد عارت البربرية إلا مدنية قرون وذلك بفضل العرب ، ومن أعاد
فرنسا من يعرفهم الاستغرف بهذه حقيقة . وبها كانت لمدينة الآرامية رهرة
كانت قرب في أحد ديكات النهر . ولم ينشر الطب والصيدية في ربوعها إلا عندما
اطاع اليهود الذين غنصوا سبب ثم «قيم لاكدوك» بعد القرن الحادي عشر ،
وفي لاكدوك نشأ عدة مدرسين ومها مدرسة موبلية ، وصطرت بعض الأمم
العربية أن تحمل بعض أسنانها على تعلم اللغة العربية ، ونسبت حصة مدرستها لتعليم
العربية سنة ١٢٧٧ م ورأى ملوك قسالة بعد وقعة العقاب التي كتب فيها النصر
للإسبان على العرب أن لا يقطعوا لماضي القديم ونهم في حاجة إلى أن يتعلموا من
معلميهم القدماء من العرب أصول الفوس العشر أن يعمل لاسباب النصرية ما عمله
العرب لأعلاء شأن الإسلام . وذلك بالأخذ من أحسن ما في الحضارتين الإسلامية
والنصرانية ومرحهما بالحضارة الآرامية ، فأست سنة ١٢٥٤ م في إشبيلية مدرسة
عامة لآرامية وعربية ، وسندعى الملك إلى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤمّن
مدرسة طليطلة الثانية يجمع فيها بين الأوضاع العربية وغيرها . وقصى مجمع فينا الأدبي
سنة ١٣١١ م أن تؤسس في بارر و كمورد وبولون وسلمسكة دروس عربية
لتنصير المسلمين ، ودروس عبرية لتنصير اليهود . وعينت إيطاليا منذ ذلك العهد
عناية خاصة بالعربية ترى تعليمها من الضرورات لكل تاجر المدن البحرية ، وكان
من ذلك أن حكرت البندقية تجارة أوروبا مع الشرق ، واستأثرت بتجارة آسيا

الصعري، وتمت للسديقية وير وحصة وطسفة معرفة الشعوب لإسلامية أكثر من عامة أهل أور، وكان من العدة لجارية في طقة التحذ من آباء السديقية أن يتكلموا بالتركية والعربية، ويأخذوا أنفسهم ببعض العادات والآسة بالمصطلحات الشرقية. ومالك البيربون والحمويون والسادقة أملا كما مهمة في الشوطي، الشرقية من البحر المتوسط وفي غيرها، و مترجو أهل البلاد، وتآخرت بذلك لأخرى في تلقف العربية إلى القرن السابع عشر والثامن عشر.

أصبح البحر الرومي في فمحة العرب من شواطئه بحر عريباً في أوائل القرن الثالث وذلك لأن شوطي، إفريقية ومسييا وكثير من خبر كثر في موزونة وموزونة وباسية معروفة بحر زاببار، والحرز الشرقية وغيرها قد دحت في حكمهم. وما فتحوا في سنة ٢١٢ هـ جزيرة صقلية، وكابو عرود غير مرة عند حدودها بسجرون على سفنهم على عهد الخليفة الثالث، وسعوه بجزيرة صرديا وغيرها، تراحت سفن بروم إلى ملوى القريبة من الإدم، وامتدت عربت العرب إلى بلاد بكبردة والمباردي، وقبوية في كالار من حوئي إيطاليا، وسنوي على أكثر أصغتها لحوية نحو تسع وعشرين سنة. ومن البلاد التي فتحوها خلالاً موقفاً وأعرودها ونحوها ريو والسديقية وطارب وسارن وماني ول ورومية وحنة. والعت أن العرب في لوليات التي تربوها من حوئي ابيضايب لم يؤثر صباغاتهم وعهدهم، ولم يجمعوا نر من آثارهم كالعمود والروك والمصانع والجوامع على ما حقق ذلك العلامة نابو.

في جزيرة صقلية بين العرب طست فيهم بأبهم في سنة ٤٨٤ هـ وترو فيها أنواع التأثير. فتركوا لأهليها ولا عاداتهم وقوانينهم وحرينهم للمدينة المطلقة، وكتفوا منهم بحبوبة قليلة كان مقدرها قس مما كان يستوفيه البوس منهم، وعصوا منها النساء والأولاد ورهت وحفظوا على جميع الكنائس لموحودة ولم يسمحوا بآبث غيرها، على خلاف ما حروا عليه في الأندلس، وعمدوا إلى الزرعة والصنائع فأحبوها، وأدخلوا أصداغاً من الزرع لم تعرفها الجزيرة، ومنها الفطن وقصب السكر وريثون والبيردي والسكران والمزن. وقدموا لبحري التي لم تبرح مائلة للعبان،

وعسوا الدمن عمل القبي ذات الأبيات لمقتضة (السيفونات) وكانت قبلهم غير معروفة .

وُنشئت العرب في صقبة مصانع لصنع بوردق ومنه نشرت لورقة في إيطاليا . وعدنوا مباحة لخريرة وعمو نهم لصنع لخرير ، والله لب أن صناعه صنع الثياب نشرت في أورده من صقبة . ومن مصانع الصقبيين كانت تصدر الأكسية لمحلة بالخور واطلس المصورة والمنقوشة . وأخذت تدبغ والحلي الدبغ ، والإجمال حمل العرب إلى صقبة مظاهر عربية من فخرهم العدية الجميلة وقوشهم من المقرسات وحال قاشيهم دي لياض والمسيحة ، الممولة من ربح الملون وصورهم الجميلة وسبح صناعتهم ، وما كادت أعلامهم تنمو هذه حرية التعليم حتى تمت التجارة وكانت قبلهم عشية ، وتشاور يسعون على سهمهم إلى الجبل لأربع وكانت لهم حكومة ذات محد ورتي ، وكثير لمسهون في حلال قربن حتى أصبحوا صف سكان الجزيرة .

وسر الدورس على سياسة رسة ، ستولوا على صقبة وقصور على سلطان العرب فيم فاقو مسلمين على عاداتهم ودينهم ولباسهم ، واستعملو منهم كثيرين في قصورهم وحروبهم . فكان منهم القود والعاه . والمدة في خدمة لدولة الجديدة . وقبيل منهم رسميه في الحرية مدة حكم سورمانيين وتعلم ملوك العربية ومنهم من برزرو فيها . وعلمو بها لأشعار وطربو لأدبهم . وهكذا تحقق الورمان بأحلاق رعايهم وعمومهم معدنة . درة في أب التامام السبسي وعدم التحرب لديبي في القرون الوسطى ، حتى هم البات وأمر الورمان أنهم كانوا بالإسلام وما راوا بهم حتى قصو عليهم بهذه التهمة وغيره .

كان روح أول ملك نورماني متحضر صقبة من العرب هو وضع أساس هذا التامام مع المسلمين . وهو يدي استقدم اليه من بر العدو وبر العدو ما سمعت لاندس وصقبة من شه في إفريقيا ويعنون العدو للعرب الأقصى والأوسط والأدنى الشريف الأدريسي والمع في إكرامه ، وطلب اليه أن يبقى في صقبة ون يحقق له أحسن البلاد بالمدينة لا بما ينقل من الكنف ، وبذلك

أما الباء وحبرهم وروح إلى قديم الشرق والعرب والحبوب وشمل وسير معهم قوماً مصورين ليصوروا ما شاهدوه عياناً ، فكان إذا حصر أحدهم شكل شئ الشريف لا يدرسي حتى تكامل له ما أراد وحمله مصغراً معه ثم يمشي في حنراق الأفاق وهو من أجل كتب الجغرافيا التي غيت من آداب العرب ، وعمل لا يدرسي لروح ككرة أرضية من القصص كانت من أجل ما تدرسته فريجة عربية رسم فيها العالم سحره وبره وجبله وسهوله ونهره وبحيره ومدنه وممالكه .

كان تأثير العرب في صقبة معهم أكثر من تأثيرهم علىهم ومصنعهم ، وكان لروح فيه عاصياتهم وطبقات لأن سبب الألعاب مرة فريجة في توس للمسيحيين نوباً ذلك منها أولاً ، ثم جاءه طبعيون خضعوا لسلطانهم ، ثم في لاندس فكان لروح ثوباً محمداً لا سلطان فيه عبر العرب ، يقول العلامة آري لشرق الصقلي إن صقبة مدينة للعرب وإيطاليا مدينة لصقبة ، تكرار الشعر لوطى ، انتهى به مدد داندالاط الصقلي اللاط لمسكي لاسلامي بذات العدة بقرص الشعر تلك العدة التي كانت السبب في نهوض الشعر لاطالي ، وقال ريدلدي لم يدع العرب فقط على نهوض الشعر الصقلي ولا لاطالي بل منهم أمدوا القصص لاطية شكاه ومدتها . وفي لرم انني نأخذ العرب عاصمة صقبة وعمرت عمرها عربياً ، نشأت العرب أول مدرسة للطب وما عهد منها في جميع أوربا ، فقد نشأت مدارس الطب في العرب بعد مدرسة صقبة العربية أعوام . ومن نشر هذا الفن في بلاد إيطاليا . ومن بعد أن البانوات كابو ، رحلوا إلى أفينيون من أرض فرنسا فخلوا لحو للعلم العربي . ثم فرغ العرب بعد ذهاب سلطانهم من الجزيرة إلى العالم والتجارة . فكانوا نحو قرون آخرين بعد خروج صقبة من أيديهم رجال لال والأعمال فيها . لي كابو مدتهم . العمل . ومن كان له العلم وشال لا يقصه شئ من القوى .

أحرحت هذه الجزيرة في العهد العربي عظماء من الرجال في العلم والأدب ، وكان عددهم بالنسبة إلى من أخرجت لاندلس قبلاً ، وفي فهم النوب في علوم العقل على نحو ما كان في لاندلس ، ولكن عمل صقبة في التقدير لم ينقص كثيراً عن لاندلس ، إذ كانت هذه الجزيرة غدت غربي أوربا بضعة قرون بديتها ، ومن

صفية كانت مدة رسالتهم ثلاثة فروع ترسل تسعة مديية العربية إلى أوسط أوروبا .
والمثل ما دعا صفية إلى أن تكون دون الأندلس في هذا المصير كون العرب فيها
قلائل و أكثر من نزلوها من البربر بخلاف الأندلس التي كان فيها العرب كثرة
سيرة هاجروا اليها ، وحدث لهم مستقر ومقاماً .

وقصارى القول إلى العرب في الأندلس وصفية ما كان لعصرهم من المروية
تغلب كل دفع بقول حسن كتب لهم لا بدع في صانعهم ومصانعهم وشعرهم
ونبيهم وعلمهم وعملهم ، كان هو العرب عنهم أن يعيروا ما حلوا معهم من مديية
الشرق بما يلائم تلك البيئة الجديدة ، وحسو من دون ذكره ما نقلوه إلى أهل البلاد
فعلعولهم بطاعتهم ومعونتهم العبيدة التي لا بد في مدتهم ونصبتهم ، فقر بولهم من مدحهم
ومدحهم ووقوتهم على مر حصارهم وموتهم ، وصرى البور من كل أرض احتلوها
إلى أرض بعيدة عنهم ومن شعوب قتلو فيهم بعض اشياء إلى شعوب ما وصفت
إلا أن تحاربهم فيها لا يجرحهم ، عن لاحتها طمعتهم منهم ، من حسن وعة .



أثر الحضارة العربية

في الحروب الصليبية واثر الحضارة الغربية

على عهد الاستعمار الحديث

لما صحت عزمه الداء على إخراج العرب من أصل البريقال داء الفريسيين
ولأنه يميز والموره بيني ولأنه يميز والمحيكين في معونة البريديين لبرع سطة العرب
عن بلاد البريقال. وما رد الداء الفصا على دولة موحدتين في لانداس (٥٦٥)
نادى بالحرب المقدسة تحت جيوش المصرية من مصر وقره وذي. وتحدثت
قوتهم قوت مصر. وما مع من يأخذ الفير ففدس من يدي مسدين في شططين.
دعا البورمايين ولايطيين وبنرجيس ولاندانيين والبروجيين والسهم بمرجين
ولأنها غيرهم من شعوب العرب في حمل الصليب والذهب في أوراسم.

وفي سنة (٤٩ هـ) (٩٦ م) حتمت ثلث لأفوف من عرة الصبيون
في القسطنطينية ، و عدل حرجهم وكان صاحبهم حفيظهم . وروى في صاحب الصعري
فضلو طريفهم ، وأخذه بحرين و قنص في نهم و ثمة و طاكبة و حرة
فانقذ ، وقتل من أهل هذه مدينة مقدسة قصص معين الثنا ، ومن أهل عرة مئة
الف و ظهور و ظهور من توحش لا يعطون عنه ، و ثلاث مائة من عدهم في حرجهم
عن حدود شريفهم و ما قربت به من رفق بعض في در الحرب و د راسم . و ما
الصبيون و شكبو كل حرج في ذنبهم في قو بهد و لحاف ، و قصو إلى نهم
قل أن يحدرو بلاد العرب طمعا نهم .

وطلت الحرب مدجلاً عشرت من الدمين حتى فقه صلاح الدين وقصى على الصليبيين في القدس ، ثم قام من خلافه ثم من ذليك لمصريين من متصووم في أدور محتفة . وسعت حملات اتى وجه الصليبيون على لذيلا الله مية ذني حملات ، منها ما عند حده ثمت لا نوف ، وهلك من المزيين حلالتي يصعب حصصهم ،

ورجع العربون ولم يرجعوا من غروهم غير ما نحن ذكره من المولد المادية والمعوية.
وأخذ الصعب المرحم ولد معي رأى من عدوه، وثبت لأول الخطاطة، وسجل
الثاني ترقية. رأى الصليبيون من حسن أخلاق نور الدين وصلاح الدين وغيرهم من أمراء
المسلمين ما تحموا به، رؤ صلاح الدين يوم استرجاعه للقدس يكتفى بأن يصرف
على كل رجل منهم عشرة دينير، وعلى كل مرة خمسة، وعلى كل طفل دينارين،
وعمر بعضهم عن ذلك فاذى نحوه بذكرين نوب فلبية عن نبي صليبي، ثم أعى
صلاح الدين كثيرين من هذه العروة، ونهى عن حوهر الصليبيين وناهم من
الذهب والفضة، وعامل به، لا يفرج معاملة لطف وظرف، ومما سبب الخروج
مكتن عظيمين من مسكاتهم، أعده من حوهر ومول وحمام، وسمح للطريرك
لأكثر من يسر أملاك أموال السج ودعا للجومع التي كان عنها الصليبيون في قوتهم
الأولى. فاثرت هذه الحجة من صلاح الدين في جمهور الصليبيين. وظل الملوك
والنبات على عادتهم وعدتهم حتى قل شعرة عند المنعم الحلباني من قصيدة
يصف حرمة الصليبيين له

خطوا زحاما لياكل صوبة لك عندهم كاعتقاد لا قام

كل المسمون مع الصليبيين أيام المهادت على عابه للطف وليامرة. يصيغونهم
ويكرمونهم ويعاملونهم معاملة حسنة. ويرجع الصليبيون في الشام مبرحاً دغماً
متصلاً بأهل البلاد بصدراهم ومسلهم. وعتمدوا عليهم في أعمال براعة وند
الكنائس والقلاع، وحدوا كثيرين منهم في جيوشهم. ومنهم بعض يصري لسان
وكاب منهم لأدلاء والترجمة، وعش الصليبيون بالقرب من شرف المسلمين
يتددون وإيدهم فروض المحلات ويعقدون معهم عهود الصيد. وأمر المسلمون كثيراً
من لا يفرج وظلوا في سرهم أمد طويلاً، فكانوا يعاملونهم أحسن معاملة ويمحونهم
قسطاً وحرماً من لراحة فشتت علاوت ودين الفريفيين. وكان الفج كل فريق في
أرض جاء من عوامل التعارف بين المسلمين والبصري من أهل العرب. وتزوج
الصليبيون من غير حسمهم من الثابتة والإرميت أو من العربيات اللاتي تنصرن،

وشتت صدقات بين فرد امرئيين ، عقبى لمعاهدات التي عقدت بين المسلمين والصليبيين لاستعادة مريق بحر ليقوم له مدفاً أو مراعاً من نداء دية .

هد قول موروراد أن التسامح لتسدل دحل في الأخلاق ، فكان المصري يؤثرون منشرة طلبة المسلمين لتعوقهم على خطتهم في علاج الأمراض ولتحافهم عن استئجار السكين والمصنع في الجراحة ، وقد وصف مدير لايمبراطور فريدريك بربروسا في عهد صلاح الدين معتقدات الإسلام وصفاً حساً ، وأطرى روح المسخحة عند المسلمين وألغى الحرية التي طفقوا لأتبع كل دين . وقال إن أكثر المسلمين يكتفون بروح واحد ، وأن صلاح الدين كان محمواً في العرب ، لرفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ، وكان شديد التمسح مشهوراً بشفقة . وكتب ريكولدوس في مدح مسلمين قائلاً : ومن لا يحب نجاتهم وبحشوعهم في صلاتهم . ورحمتهم الغمير ، وشغفهم منهم شه والانباء والأدكر مقدسة . ويحس عشرتهم وإطاعتهم مع العرب وبناتهم ونحوهم .

ويؤخذ مما قلناه ميشوود زوي وسيديو ولايس ورمو وسبيروس ومون وبني وغيرهم من المؤرخين والحكام أن الحروب الصليبية عادت على العرب بحيرت لا تستغنى ، ولو لم يكن منهم غير عظيم فيرد انتمص السكسي ومارة الصليبيون عياناً من تسامح المسلمين ونسب هل مشهير أمرهم الكفى في دنسها . وانتشرت التجارة بعد الحروب الصليبية أكثر من انتشارها أيام لمملكة لرومية . وتحدث أوربا عن العرب عادات الصليبية والمدية ، وكل ما يهون الحياة ويحبها للأفس . بدأت الصلات بين العربيين والشرقيين بحرب بين المؤمنين ، ونهت بمثل تكوت بين لشحرين ، ونحصر العربيون ممرحهم شرقيين ، وتزهد لاختلاط في أفكار المصري الدينية . فتحمسوا ولأطلعن والدرل ولما شهدوا مسلمين عن أمم ، ورأوا رجالاً شداء كرماء مؤثرين أمثال صلاح الدين الذي أحلى سبيل أسارى الصليبيين بدون فدية ، وبعث بطييه إلى أحد رعايا الصليبيين ليدأويه من مرضه ، عندئذ بدأوا باحترام المسلمين .

كانت الحروب الصليبية من حيث بينهما لأولى غنية ، فإن الصليبيين على

ما بدلوا من الأموال ، وهرقوا من الدماء . رجعوا من الشرق بعد قرنين كاملين ،
بِحِمَى خَبَيْنٍ . ووقعت هذه الحروب من طريق آخر فكانت لاحتلال بالشرق
عشرات من السنين من العمل القوي في سرعة انتشار مذهب في أور . وكان
الشرق بمصل العرب يعم إذ ذاك بدمية زاهرة على حين كان العرب لم يرل عرقاً
في التوحش . وقد استدلك من مجموع أعمال الصليبيين أنهم كانوا في كل مكان إلى
الحمية حقيقة ، ينهبون لأموال ويقتلون لأعس لا فرق عدوهم بين عدوهم
وصديقهم . حروب في القسطنطينية ثمن كسور المديات اليوسية واللاتينية ، ولم يرح
الشرق . احتلاله هؤلاء البرابرة من الصليبيين . بل حمر وشحت من ذلك كرهته
للعربيين كرهية دامت قروناً .

قل الحروب الصليبية كان لا يعرف اشرق العربي من العربيين عسير فرد
ذلكه رخلو في التحرة ، وأجوا فلسطين للزيارة ، أو نزلوا لاساس وصقيبه
يعمرون لا يعرفونه من حصارة وعصارة . وفي هذه الحروب عرفوا الشرق الإسلامي
وكان لواعلون عيه من عنف الطلقات ، فرأوا المسلمين في غفر دارهم . وحققوا
أنهم يمتدرون بصفت حرية ودية واجتماعية ، وأنهم تفررت من قيود لدينيين
إلا قليلاً ، ويقومون بها من غير الطرر الذي عرفوه من أحيل الناس . على حين كانت
أوربا تحت سيطرة الكنيسة الرومية ، يتصرف الدواب فيه بالأشباح والأرواح .
ويقومون في كل مكان حكومة وسط حكومة ، تنجي أموالاً من الدس وتعي
أعمالهم من الخرج ، كما يعمى حدة منها من الحكمة مع الدس ، بل كثيراً ما كان
يحكم الشعب به في الكنيسة ، ولطالما كان الأسقف في برسيته حصماً للحاكم
السياسي ورفيقاً عتيده . فكان الداء مد القرون الوسطى كما قال العلامة جول
سيمور لا يعد نفسه إماماً لأخبار فقط ، بل خليفة لله في الأرض ، ليس يسه وبين
الرياسة للملكة العامة إلا خطوة قصيرة ، استعد لاجتبارها بقول ، ولم يدحر وسعاً
في تطبيق القول على العمل ، فرأس الملوك وألبسهم التيجان ، ولم يثا اللاهوتيون
والوعظ يوطئون له أكف هذه السلطة المدنية العامة ، كأنهم بذلك يخضعون للملك
قطبة لله الواحد القهار .

قالوا: إن شعوب العرب في القرن الثاني عشر كانوا في حالة بدو وغربة، وهذا ما ساعد على إعلان الحروب الصليبية في الشرق. فهاشت مدينة جديدة في القرن السادس عشر، وتسربت أولاً إلى رؤساء الكبيسة والخلوش، أصبحوا لا يرون لأعزب عن موطنهم، ولأن يدرقوا مسقط رؤوسهم وعمت الصناعات وحسنت زراعة، وتشر العلم، وعند ذكرى كل مدينة وكل قرية، وتقاليد كل شعب وقطر، ولأنقذ والإمبيرت والحقوق مستحصله ولأن في تيمتها، كل ذلك قد عبر من خلاق الإبداع، وبدل من مياه في حياة التفل ولا ينجس، وحمها صلات ترعهم بوطن، وكتب التوفيق للملاحه في القرن الذي كتشف أميركا، واختار الملاحون وأنس رجاء الصبح. فشت من هذه مكشفت تدل كثير في لتحة، وأحدث لأفكار تنحه وحة جديدة. ونشت منصات التي كانت قائمة للحروب الصليبية تسير نحو أميركا وهذا الشرقي ففتحت أمام العربيين ممالك كبرى وقطار عية تمد مطامعهم، وتوسع نهمة الثمين منهم في لمحد والثروة ومطروحات، فشت حوادث اله لم الجديد في اشرق من عجب

لما فعل المرة من الصليبيين، جمعين إلى ملادهم، وقد قدعو من حيث فرسانهم، وقدعو من شمعهم وعرة شمعهم، خلوا غير رؤسهم، أخذوا يقصون على بي قومهم أخباراً تنقص ما كان يشبه دعة الحرب من رؤساء الكبيسة، من أن المسلمين جماعة من لوثنيين عسو على لأص، قدسة، وأخذوا عم دن التوحيد ونفوا عنها كل فضلة، ونههم وحوش صديرة، وجبوت منكرسة، أخذوا يقولون لقومهم إن أعداءهم كانوا أهل دين ورعيل ومرونة، ودوي ودوود، وحرمة، وأن كانوا نههم غير صحيح، وأن دعة حرب مقدسة مؤو عليهم، ومرحوا قولهم في سسبين بكثير من لأقوية لتوفيق، ومع ذلك العصر والحكم قد يستحسن سمسه أن يقول في حصه ما فقه ذلك في خبر.

وأهم ما ساعد العرب من حروب الصليبيين واحتياط هذه أهل الإسلام، أن القصص على روم لأمر في العرب لم يعودوا كما كانوا في الثامن السة لأخيرة التي مصت قبل سقوط القدس بأيدي المسلمين، تقرون في الخلال بأمر الكبيسة،

والمحمسون الذين يسعون بهم على العمياء ، يقتلون ويغتولون على غير فائدة محسوسة .
ومن أعظم ما عُد على العرب من فائدة من عده لحروب ، أنه لم تفقد خلالها دواوين
التحقيق لديني ، ولم يحرق أحد - ر - ، ولم تقطع لأعناق في سبيل لأفكار لدينية
وإلغائية ، فكان للجلادين نحو من قطع رؤوس ، وسط استقوات على الناس
مدة ثلاثة قرون ، وكان رجال الدين والسياسة هددوا العدو الخارجي ، يسألوا من
العدو الخارجي ، وكان منهم في عصور بعدد ديون التحقيق ، د حكم عليه بقتل
لا يدفع عن نفسه ، ومن كان مثله سبب وذلك عملاً لآلية لا يحيل الظاهر ، إذا
صراحت أحد على حدة ، لأن قول له لا يسره فكان مهمون لا يجد يساقون
من قبل كما يساق قطع من اعينهم إلى الحجارة ، - كمين سرّاً من تسجنهم
مستعدين للأفد - ، وكان له يد ردت بحدود أعداءهم ، يهرس على سبيل
الشفقة لا يفهم ، يقول لأنه عبي جعل .

وَدَى الصعق - إلى الناس في العرب باسم من إلى قبلة أثينوس ، بعد حين ،
وكان سبب ثورته كقول العلامة حول سيمون في كنهه حرة الصمير ، الد - ر د
بجاركيسه القديس طامس في رومية ، نصف من لديه ، وعند النيسة على بيع
العمرن ، فوع عملات اعين الصمير في على بعض حسنة نحو حرماً من بدل
المفروض ، ودعو مجموع أربع من حدة متهدس ، ووقفت مكسوبة وحرراً من ثانيا
في نصيب تحت الد - . فبعد إلى رهبة لدومبيكيين أن يشروا - مفر - ، شمير
هذه التجارة ، وعدده أثينوس من هذا لطيف ، وكان صاحب حسان وشرف ،
وظلق يثير الدس على لدومبيكيين لتعقّب بخدمه صراف في عمل مير شريف ،
وحد يبحث عن معنى هذه التجارة ، وعن قيمة هذا الاصل في العلم الثاني ، يبيعه
الباقي لنديا مقابل سداد وسبح تدفع للحدة ووكلائهم . وحولات الكساسة
رومية أن تدعو إلى بصرتها جميع الأمر - فلم تنجح . وكان من ذلك الإصلاح
لديني المعروف ، وتلك مدح لدينيه في معظم البلاد ، على صورة لم يسبق لها نظير
في العرب ولا في الشرق . فن وكان الدنوت مزحوا السلطة الروحية بالسلطة
السياسية ، ومن لم يحصع لهم جميع الأمر ، والقيصرة بخد ودين ممن دنو

لديهم ، و انته بهم لحال أن ادعوا العصبة و منهوا عيدهم . و تصدى كثير من المصلحين قتل قيام لوثيروس و حمله طاعه الداء لإصلاح الحال ، فأميت عقولهم ، كما قام كثيرون قتل حيله و دكرات ، و كم من قرع صاع ، و من أعمال عصية بارت ، و من بله ، و ما أسسموا أصواتهم ، و من دهاة عجزوا و تصالوا ، و عربون إدار أؤدتهم حروب الصبب نفيس ربح العباء ، و لأحد ، المحقق من بعض المنصيين من الدينيين .

ثم استعادوا من لعربيين طريقة أحد الأحرار من مصادرهم ، و كان الصليبيون في بدء الحرب الصليبية لا تحي عليهم حبيب من حال أعدائهم ، فأنف استعادوا بعد ذلك صاعه الاستحاثات و سطة أصحاب الرد و الأحرار ، على . كان رسم في بعض لدول العربية لساء ، و عرف المسلمون أن الإفرنج أم كثيرة العدد ، و صحت سدة لا يستوي بهم ، ولو كانوا عرفهم من قتل حق المعرفة ، و فقدوا معهم معاهدات و محوهم متبارت ، أو لو ، ذلك أسبب الشكوى التي خالقت لإشهار هذه الحرب رزين ، و لما حرت الشام و هلك مئات الأوف من المسلمين عربهم و تركهم و كردهم ، و منهم أو أكثر من حملة للصليب

و عثمت هذه الحرب المسلمين أن حيتهم لنصامن و الاستكش ، و كانوا قبلها متشاكسين متخادلين ، يعض بعض الملوك كينهم ، و يصرفونهم على هواهم لأغراضهم و مصالحهم . و ارتضى الناس في هذا الدور من أرباب صاعه للملك إلا أن يكونوا حد كفاة لتولي رقاب الناس . و لفتت الحرب أهل الاسلام معى الجامعة الدينية ، و ما يتوقع من ثمرها في جهاد العدو و دفع هائله ، و كانت العصبة العربية قد أصيبت بالضعف تحت العصية لذبئية محليا . و بهذه الحروب الموعه لأشكال و الأحيال طهر بروع المسلمين في الحرب و الادرة و ظهر فيهم رجال كانوا في أخلاقهم و مضتهم ، على مثال أهل الصدر الأول من العرب و ان كانوا من أصول تخمية .

فكان الصليبيين حائلوا المسلمين ، و منهم تعموا حياة الرفاهية و رعدوا في التيدي ، و عرفوا أن البادية لا تقوم لها قائمة أمام الحصار ، و كان بعض شعوبهم استعادوا ، و انهم العرب في صفلية و الأندلس ، أما احتلال الإفرنج في الحروب

الصلبية فاستفاد منه خاصة العربيين ومنهم ، ومن جهة ما استمدوه عدت شرقية كثيرة ، ومنها لاستحمام واللبسة المسترسلة الفصفاة ، وظلمو فرساناً على الطريقة الإسلامية ومنهم من تعلموا اللغة العربية وأتقنوها وقتلوا من عدوات المسلمين ، مستحسنوه قبل لون من البصر الذي فضله الصليبيون في حملاتهم الأولى ، كان هناك عالم لم يزل على توحشه مع مديته من ريف المدنيات التي حطط التاريخ ذكرها ، وستد ولوع الصليبيين بالزرعة والشجرة ، وعرفوا أن في بلاد الشرق صنائع أرق من صناعتهم ، ورزاعه حجة ، ونجارت رابحة ، ورقة شعور وعاطفة شريفة وتبحراً عربياً ، فربطوا مع الشرق صلات تجارية دافعة .

ورأى الصليبيون في الشرق عدية لمسلمين للكتب ، فطأروا على آثارهم في قنصها ووضعها في بيوت و دوف ، وقيل إن سان لوي ملك فرنسا هو أول عربي حدثته هذه جميع الكتب ووضعها في حراش على مثال ما رآه في مصر ونوبس . ومن الصليبيين من أخذوا كتباً من الشام ومصر على أنهم عربيه من الغرائب ، ولما لم يكونوا على شيء من العلم حرقوا حرة بني عمار في طرابلس على أنهم مصاحف قرآن ، ولما نادى مادي النهضة في إيطاليا صحبهم هم السماوات في القرن السادس عشر على اقتناء كتب العرب ، فدوا لذلك جماعة من رجال امورية ، غلبوا اليهم من أديار لسان وغيره ما كان فيهم من كتب العلم والدين ، وأخذت حكومات حرميا وهولاندة ونمكترا وفرنسا وروسيا تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تنفعها من المبلاد الإسلامية بواسطة وكلائها ومعلمائها وقاصليها ولأشخاصهم من رجال الدين ، وأخذوا أفراد من أبناء العرب يحملون بعض رموزها وأولاً ، ثم رتبوها في خراش في دور كتبهم العامة للاستفادة ، وكانت اسبابا والبرقتل من أزهد لأنهم في هذه الكتب العربية ، أما اسبابا فقد بقيت خمسين سنة بعد جلاء العرب عنها تحرق الكتب العربية حيث وجدت من شبه خزيرة إيبيريا ، وقد أحرق الكردية كيبينس في يوم واحد في ساحات غرطالة ثمانين ألف مجلد من كتب العرب ، وكان في لأندلس سبعةون حرة عامة للكتب ما عدا خزان الأفراد ، ولم تهم في البرقتل للمشقيات العربية سوق حتى الآن ، وليس عندها من الكتب العربية ما يذكر ، هذا مع

ربطاً حره من تاريخ الشرق العرب . وثابت بعض الكتب العربية الى بعض
العث لاوربية عند العريون من هولندى . وسعد المسلوب تصحيح
لأحكام القسية التي كان يحكم رجل الكيسة عليهم وعلى دينهم .

ومن العولنداني عذت على أور . والحير من الحروب الصليبية تحرير . مصعب
لأرضين من دق لزعمه ولأمره . وتنال الثروة من أيدي هؤلاء إلى أرباب
انطقت لوسطى واللب ، فاع من أع من الكبر . مكه ، ووع من عمل نرضه
ومتحره وصاعته ، دعنى وفنى الربيع والصبيع . وصطر سادة القرون لوسطى أن
يتسوا من حاق عبيدهم في أرضهم ، وأن يطبق قانونهم الشع لى يحول السيد
في مقلته أن بقى مع مرأة حذمه وعنده الثبة الأولى من غرضهم ، ويسمون
ذلك حق التمجيد *et le chesier* ثم اكنى السادة مصعب الإقطاعات نائب

يضمون سوتهم في فرش عروس مقطعيهم وقيةهم *Tout le chambard* إيسرة إلى
كان لهم من حق التمجيد وغوا منه ، ثم ستميص عن ذلك نصريسة وضعت
على لزوج . ومنها تقوية السلطة لمدية ووهى السلطة اب ناوية وصعب تأثيرات
التعصب لأعنى ، واصطارت الكيسة لزوءة نفس إلى إصلاح حالها ، وكان
بعض ال وات يتون بعثرة بعد امرة ، يتخدمون به لمدية ولعم كالهون له شمر
في القرن الثالث عشر وهو من أسرة ميديسيس مشهورة ، فصار على العلم والأدب
فانه وضع بطق لأدب ، وبث العلم حتى عند عصره العصر الذهبي ، وشبه عصر
أسطس من أكثر لوحه . ودخل أيضاً بديل كبير على نظام الإقطاعات ،
وعنت بطلايا من متحرها ، فكان ذلك من مص العول في صبور شعنة النهضة
العربية من مدحين . وكانت ايطيا في القرون الوسطى أكثر مديسه من حيرانها
وكذلك كانت بلاد الفرنج في الشمال ، وشعر الدس بروم السير على فكرة أوربية ،
وكانو من قبل مفرقين مشتتين ، وشهدو في اشرق أنه كان من عدم لوحدة في
قيادة جيوشهم ، حاق أمرهم ، وكانو من قبل لا يتصمون ولا يترحمون

• • •

مصت على البشر عشرة قرون وتاريخ ابون هو تاريخ العلم ، ومعكرون

والعقلاء والأدباء والعلماء من بينهم . ثم دعت العقول عفى قدم العرب . وأنتم هؤلاء . ما بدأ به اليونان من نعم وسعة واستمرار ، ختموه في ذلك وتذوهم في بعض المظاهر . و« ضاعف حكم العرب في لاندلس وشبلي بقرية به ، بل في مصر والشام والعراق وما يليها ، وأحد سلاطين العثمانيين يقوى في الجنوب الشرقي من أوروبا ، قام البرتقاليون اسرون على شو طى . ببحر القضاة يوبور على لال ولجند ، وصادف أن قدم منهم جماعة من الملاحين لاندكيا ، وفي مقدمتهم فسكو دي جما ، وصطحوهم لمساطيل لم تمشأ بموقت على . كان من نوعها عدد لأنهم القرية الأخرى ، وكشفوا على عهد الأمير هري بن ملك حور لأول البرتقالي في اصف لأول من العرب الخمس عشر طريق لحد لظروف حول بقرية العربية والشرقية .

وكان هذا الأمير البرتقالي عائلاً باحثاً تقطع إليه بعض علماء اليهود وعلماء المسلمين من أهل فارس ومراكش مغربة ، كانوا يمدون لذلك العهد من رضى علمه . العالم . وأحدو يقولون في كتب العرب وغيرهم في علم الجغرافيا ، حتى عرفوا أن في الامكان لدور حول بقرية . ولقت البرتقال حملاتها البحرية بمعاونة ملاحين من العرب . ومنهم من وجد البصرة ، وانفود من انصارى أمثل فسكو دي جما والموكر ك و« جنال . فحدثت أسفارهم البحرية وكانوا من قبل ... وعلى معظم شو طى . العرب الأقصى . وما رلوا يفتحون في طريقهم الى رأس الرجاء الصالح الموي البحرية . وفتحوا بمسحة و« بحر وموسميق ومليدة وغيرها حتى وصلوا إلى ملبار ، وأصبوا بحر لاندلس في هذا . وصار بحر لند والصين تحت سلطانهم لا شيء غير تجارتهم ينقل على سفنهم ، ولا يستطيع إنسان أن يتحرك دون أمنهم وحورهم وذلك في الأصف التي لا يمدون هم أن يتحروا بها لقلعة لا تنزع زراحتها الصليبة . وهذا كان ميدان حلاط العربيين شرفيين ولا سيما العرب في مطلع القرون الحديثة والحاصلات التي هم لها البرتقاليون ردى ، بدءاً لاستصاها من الشرق السفلى والقرنفل و« زنجبيل والقرنفة واللبس . و« أكثر ما كان البرتقاليون يهتمهم أن يصروا في تلك الأصقاع على أيدي تجار العرب لأنهم كانوا منشغلين من التجارة أكثر من

غيرهم من العناصر على ما روى ذلك الشيخ زين الدين في كنه نفعه لخمسة عشر في بعض أحوال البرتكاليين

وذكر السدقة وكانو سدة لبحر المتوسط سظم خطر على تجارتهم،
خثوا السط العوري من سلاطين تلك في مصر وشم على حرب البرتقاليين في
البحر الأحمر والمحيط الهندي، ابتغوا تجارتهم وبحرة مصر معاً، ورسل السادقة
الأحشاش نقل من بلاد البندقية في مركب إلى الإسكندرية، ومنهم من أتوا
البحر إلى السويس، يربطون صهار من من سدة حتى تستوي سمها صالحة
وحارب مصرين سمحت البرتقاليين ومعهم من من السدقة والحواريين والبربريين
من الطليان من كان استعمار في شواطئ البحر رومي سندر مشتهر كالاستعمار
الصينقي وقرطاجي، ما استعمار برتقاليين والاسبانيين ثم الحولانيين والبريطانيين
والروسين والفرنسيين والسبعين فكان كالاستعمار روماني وليونسي عسرة عن
فتح وسنبلا واسيطان وامتلاك مناج وراعات وشريعة وعدت، وش
مذاهب وتعلم.

كانت التجارة في كل دور من أدور حصة للبرتقاليين من لأم، ونهني
بروحها حكومات تلك البها، كل سبيل، وقد كانت بحرة الشرق والعرب محصورة
بأدي، بلاد آسيا الصغرى في الأصقاع الممتدة بين البحر المتوسط من العرب، وسهول
إرمينية من الشمال، وسهول حلال من من الشرق، والخليج الفارسي ومنه جزيرة
العرب من الجنوب، وكانت آشور بحرين محاصيل تلك القبع لموقعها الجغرافي، وكانت
المدينتان العظمتان بنبوي على دخللة ورس على انوات، شولين كثر التحدث
الصادرة والواردة.

ولما هب العرب للاستعمار أظهرو بيا وسماحه مع لأم كلها، واستعمارهم أشبه
بالاستعمار الروماني واليوناني، وما لبثوا أن مسحوا ملاحين من الطليان متبراً بالتجارة
أحراراً في شواطئ بلاد المغرب، فكانت تناف في إفريقية مسوجات نابل ثم تخوت
تجارة الهند عن طريق بغداد، ونسأت تسير نوا إلى البحر الأحمر، وأصبحت موانئ
المغرب مراكز للملاحة بين مصر وساب، ولم يحدث من الحروب الصليبية غير

ضطرب حبيب في العلاقات التجارية ، فأنشأت التجارة لأوربية مهصة جديدة
أطمت العربيين في الشرق على طرق لم يكونوا يعرفونها . وعقد شارل السادس
محاكمة تجارية مع تيمورلنك التتاري وعقد شارل السابع محاكمة تجارية مع سلطان مصر
وممبو فرانس وروس والبحرية وفنس ووهرب .

وكانت معركة ديرة (بري) تدور في مونا شام في الحرب الصليبية ، وقد
عقد فرانسوا السادس في وحيث ديرة في سنة ٨٧٥ م معاهدة مع العرب كما عقد
صلاح الدين وحمويه مر معاهدة سنة ٥٦٩ ١١٧٣ م مع السلبيين عدة
متميزت خاصة سنة صبي وحصل المعزقيون على فلورنسة من فينيزي سلطان مصر
والشاه على عدة متميزت ، وكانت هذان له عدنان من وافي في مملكة الأوربيون
من الامتيازات لأحسية في اشرق ، وعقدت عدة معاهدات مع الملك الأشرف
والصليبيين (٨٤٠ هـ) وريبرغون صاحب - شوية ٩٩٣ وفي كتاب الشروط
والعقود السياسية بين ملوك بيه (بير) وفوننه (فلورنسة) وبين ممبو فرانس
في تونس والعرب لأقصى أن هذه المعاهدات بدأت من منتصف القرن السادس من
الهجرة وكان آخرها في سنة عشر وتسعمائة . وملك رومة التجارة مع الطليان الكنتالايون
والبرودسيون والفيرسيون ورومانيون ، وكثير قاصد للدول التجارية من هل
العرب في مدن الشرق ، وكثير الانحياز برقيق وكان جميع الأمم لأرض تنحر بهذه
التجارة المقوتة ، يستعملون من يسترقونهم آلات للعمل ويعملون عنهم في دولة
الرومان تعلم امرأة والكثانة ، ولم يكن هذا الصنف المصنوع لحق يعامل معاملة حسنة
في الدول لأوربية الحديثة . يقول عبيد : وقد حدا حب ربح تجر من البصاري
أن يبيعوا دينهم مع رقيق من عرب إسبانيا وإفريقية والشام ، فأنخذ شارلمان
والبابا زكريا وأدريانوس لأول الأسباب لمع هذه التجارة غير المحببة

قام الإسبان ثم هولنديون يستعمرون بعد البرتغاليين ، ولا أنهم لم يستعمروا
بلاد العرب ، بل وجوه وجوهم إلى أميركا الخنوية وسو حل الهند وحرار جادة
وصومطرا ، ثم قام الفرنسيين والإنجليز بعد ذلك فوحصوا وجنهم إلى الشرق ، وكان
أول من وصل من العرب إلى الشرق العربي جيش هولنديون يفتح مصر في سنة

١٧٩٨ احتلظ الفرنسيين بمصر بين ولصربوت دهرسيس ، وكان هؤلاء لم يهبطوا مصر منذ أسرمسكهم سن لوي في الخطة الصيدية الساعة في وقعة دمياط ومصورة ، وقيد وحس في در كانت الإشتهار لذين بن لقن ووكل به الطوشي صبيح لمعطى (١٦٤٨ هـ) ثم جدى به ثمانية ألف دينار وعاد لى بلاده . فلذع ثراء مصر أنه أخذ في الاستعداد ليمود بملك دمياط فكتب إليه وزير جل لذين بر مطروح يائنا سيم عن روح المعروهي قوله :

قل للمرسيس إذا حثه	مقال صدق من قول فصيح
أجرك الله على ما جرته	أفنت غباد يسوع المسيح
أنت مصرًا تنهي ملكها	تخصب أن الزمر يا طبل ربح
فسفك الغبن لى دم	صف به عن طريك المسيح
وكل مصعبك أودعهم	بحسن نديرك على مصرع
حمون لما لا ترى منهم	عبر قبل أو أسير حريج
وفك الله لأملها	لعل عيسى مكم بسترع
من كانكم بد راضيا	رب عش قد قى من نصح
فقل لهم من أصبروا عودة	لأخذ ثرو نقصد صحيح
در بر فمال على حها	وافيد بق والطوشي فصيح

• • •

من رجل العرب لذين كان لهم لأثر لمحمود في الأخذ من الحضرة العربية لأمير غر الدين لمعني الذي أمير لنن لذي لم تدع الشتم منه مد قتل مسلم بر قرش آخر ملك العرب في الشام سنة ١٤٧٨ هـ ، وكان بعيد لبطر وسع لحيطة يطمح لى إقامة ملك له ، ومنذ سلطه أوائل القرن الحادي عشر من الهجرة الى الفجر فسطين ، وملك الساحل الشامي حتى أطاكه ، و ستولى على عدة حصون وقلاع ، وحافته الدولة العثمانية فآرست عليه حملتين كسر الأولى منهما ، ثم أرسلت عليه الثانية فهرب لى إيطاليا ، وعهد للإمارة الى ابنه . وكان مه مدة إمارة أن هيا السيل للافرنج بعثيان لدير الشمية ، ولاستردة من متاخرهم مع أهل الساحل ، وكثير سودم

في المدن ولموني . وأذن لهم بأشياء قصصيات . ونشأ خاك كبيراً لتجارهم في صيدا .
وعمر مدينة بيروت وقام حديقة حيوانات فيها . وفي أيامه دحلت جماعات لمصلين
والمبشرين إلى لبنان حرة طليقة .

أقام الأمير المعني في إيطاليا زيدا من خمس سنين تعرف خلالها إلى ملوك
طسقية من آل ميديس في فيورنسا ، وحالف كوسموس الذي كان كبير دوجات
طسقية . وكان مستقرا في ليعور . احتدل عظيم . وعقد مع فرديس الأول كبير
دوجات طسقية أيضاً محادثة في سنة ١٠١٧ هـ - ١٦٠٨ م وكان منظره بأطول
فرديس الطسقي لانتقاء لأسطول العثماني في - حل الشام . وقد قلد الأمير اللدني
أمره آل ميديس في مدينتهم ونقل منها إلى بلاده ما يمكنه نقله . وصف مؤرخه
الصعدي محمد بن إيطاليا وعددات الطليين وترايب حكمهم ممتعاً بها ، وكان الأمير
ممتعاً بها أيضاً وعرف الأمير أنه كان متدب غير متعصب ، أخذ منه إمامه وفي
في الدلالة التي أقام فيها جميعاً بصلى فيه وفي مائة . وحدث له سنة هناك فثاقها حتى
عاد إلى لبنان ودفعه في ربوعه ، وعرض عليه ملك إسبانيا أن يدين بالمصرية
ويتولى ممسكة عظيمة أعظم من مملكته وعنده لطلب .

وهذا الأمير هو أول أمير عربي اتفق لتسوق الحصار العربية الحديثة على
الحصار العربية لأخيرة . وكانت هذه نخطت وإيطاليا أخذت تهض لتلق
لعرف وحياة . وهو الخيلة من تصوير ونش و . وشعر وفلسفة ، والمالك
لخاورة لها نهى إلى العلى ، وتوابع ثياب تحول لمضي ، ولو وفق الأمير لحر الدين
المعني غير الترمخ العربي ، لما كان عليه من الاستعداد العظيم لإدارة الملك والذكا .
المداري في لأحد من الأمم لأخرى ما ينقص لاده من أسب المدينة . فثقت
الدولة العثمانية بأخيرة في لاسنة ١٦٣٥ م وقبره لا يرل فيها كما فنت معظم
أولاده إلا واحداً وقتل أخاه وأولاده إلا واحداً منهم .

وبدأ تمارج الحضارتين العربية والعربية غزواً شعبياً بكل ما في التمارج من معنى
مد استنوب فرنسا على الجبر ثم باحتلال الجزائر مصر ثم ستيلا ، فرنسا على تونس
واستيلا ، إيطاليا على سيب وقسم ماركش بين فرنسا واسبانيا فإن هذا الاستثمار

عرف الشعوب بعضهم إلى بعض . وأصبح السلطان لعديّة ترقية على شاطئ إفريقية ومصر ، وكانت من قبل تنكرو سوء دارتها فانتظمت حولها سلطنت جديدة على طرائق العربيين في بلادهم . وكانت مدسة بين لدول المستعمرة الحديثة على التجارة بالزبيب وعلى الأندلس والجزيرة ولأثمة أصبحت مدسة بينهم على ايسة والبحر وعلى الجزر وعلى ما في بطن لأرض من مدس .

وشدّت لدول المستعمرة في تقين مدسهم ولعم وأصبحت لأثمة التي علمت على أمرها على اختلاف طرائق استعمارها ، وقد رحّج العربي شرقي لأرض العربية ، وصارت كل دوة عربية تصدر عن أي مدسة مستعمرتها وقد حثّتهم في مدسة البلاد المستعمرة والمختلطة ، بطريقة من طرق التدخّل ، ونشرت الفرنسية والألمانية والألمانية والألمانية في لأقطار العربية ، وحذقهم أفراد من العرب حذقاً عظيماً ، ونشرت ألمانية أكبر لأمة وأظمهم مدسهم والندرية والألمانية ، وسما عرف العرب العالم ، وكانوا يملكون عن التعرف إليه قروماً ، وذكر كون من ذائع فحسبهم في العلم والندارة والندسة إيمان حدى للعت الحية الكبرى ، وكان اختلاط أهل البلاد بمدسات من بحر مستعمرين من العرب ومعدسهم ومشرهم ودعاتهم وأرباب الصحافة منهم ، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون طريق عن طريق إلا ما لا مال له .

وقد قرب الناس بعضهم من بعض في البلاد التي اختلطت لأجناب ، وراثت تلك الخدمة القديمة بين العرب والأفريق وقد راثت المقيتات الشرقية والعربية ، وميرت عادت العائنين وأحلافهم ورتيبهم في لمعويين ، وقد لدهم في كثير من أوضاعهم وراثتهم ، وراثت الفروق التي كانت طاهرة كل الظهور منذ قرن بين المتحضر الحديث والمتحضر القديم ، وثبتت الطبقة لأولى ما يقرب من الطبقة التي على شكلاتها عند لأمة العربية ، وكان حظّ التوسيعين والمصريين والشاميين أحول من حظّ غيرهم في هذا الشأن ، والسبب فيه أن بلادهم عامرة ، وقد ناضت فيها الحصار العربية وتسلطت دهرّاً طويلاً . ولأن في أرض الشام معهد الصراية واليهودية ، ومنها شأ المسيح وموسى وكثير من الأنبياء ولأن ناز القرعة والرومان واليونان في مصر

واشام تعري السنجين ونحوه، نروها للريادة والحث. وستعرض لذلك توسع أكثر في بعض المحاضرات المقبلة.

ورحمة كل عقل أن يذبح من هذه التعرف بين الشرق والغرب تعاطف جميل يكون فيه حظ الأثرة ونعدون أن من القليل، يحترم فيه الضعيف القوي، ويرحم القوي الضعيف. فتكون حضرة كل أمة شرقية مشبهة من بعض الوجودات الحاضرة الأمة التي تأخذ عنهم من أمم العرب. على أن يحتفظ المتحرر أمام المتقدم بعد نه وأخلاقه. فتدعيات مذنية وقف على كل أمة يريدناها وليس في حسيستها. يصير، من الضرر كل الضرر. يأتي من وقوف ورجود، وموقف أمة لا تراجمت ولا حدثت، لا هسكت سنة لله في حقه.



أثر علوم العرب وفنونهم وما كشفوه واخترعوه

يدين العرب لكثير من خدماتهم ومراثيمهم بالأخذ من لمدية الفارسية والهندية واليونانية ، ومن كان هم الفصل الأول في ذلك عمر بن عبد العزيز ومصور والنسب والمأمون وخالد بن يزيد وأولاد موسى بن شاكر وضربهم . وما عظم العرب بعد أن كانوا تلاميذ الأقدمين أن أصبحوا أساتذة في كل فنون لقي وجهوا اليه قواهم العقيدة ، وزدو فيها أو هذبوا ورتبوا في أصولها وديولها . ومن أول ما فكرو فيه علوم الفلك وتقوم البلدان ورياضيات والطب ، وحدثت العسمة بعد ذلك وما فتحوا فيها كثيراً . وفي التاريخ العام ولا يسع نصف أن يسكن قسط العرب من العلوم كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكن وسطاً تقت إلى الشعوب الحاضرة في إفريقية وآسيا وأورب اللاتينية معارف الشرق لأذن والأقصى وصانعه وحزاعته ، بل أحسوا استخدام امود المعثرة التي كانوا يتفطنونها من كل مكان . ومن مجموع هذه امود مختلفة التي صلت وتغارحت تدريجاً متحسماً ، ندعوا مدينة حية مطبوعه طابع قرائنهم وعقولهم ، وهي ذات وحدة خاصة وصفات ثابتة . وقال العلامة دراز : من موجب لأسف أن الأدب لأوري حاول أن يسيب وحنان العبدية نحو المسلمين ، فقد حال لوقت ندي يسمى له أن يعرفهم . وفي قلة لا يصف لمبية على لأحقاد الدينية ، وعلى المعنوية القومية ، لا تدوم ندي لدهر .

يقول لبون إن نحس المسلمين في داسة لخصارة اليونانية واللاتينية مذهشة حقيقة ، وقد ضاهت العرب شعوب كثيرة ، ورعا لم يقع من الشعوب من تقدمهم في هذه السبل . وقال توفيران اوربا قصت قرواً حتى نمت العبدية التي وصل اليها عرب اسبانيا في قرن واحد . وذكر بربرس دفس به بعد سقوط للدولة لرومانية لم يكن في لأرض شعوب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي وذلك لكثرة لحوول

الرجال الذين بشؤ منه، وقد أحدثته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم المعجيب في العالم قروناً عديدة . لا حرم أن العرب عرفوا صنائع السلم كما عرفوا صناعة الحرب وخاضوا عاب كل علم وفن بحسب ما ساعدتهم بحيلهم وبيشهم .

فلما ن من أول العلوم التي عرفت علم الأفلاك لملاقبها بالصلوات وذلك لأنه كان من المألوف عندهم وعد غيرهم في تلك العصور أخذ الطالع من الكواكب . وشيئاً علم الفلك عند العرب من توسيع الرصد في حساب الأسماء اختراعوا أسس حساب الخليل . وحقق العرب طول محيط الأرض كما علم من الأدلة ، وحدود ارتفاع القطب ودور كوكب الأرض لمحيطه ، بحر والبحر ، وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطليموس - (١٢) درجة قدره إلى (٥٤) أولاً ثم إلى (٤٢) في الصحيح من مقداره تقريباً ، فقلو كوكبية لأرض مسدوداً سلطانهم . وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صورة الصورة التي رسمت إليه ، ودعيت الصورة شمسية ، صوره فيها العالم ، فلاكه ونجومه وجزره وبحره وعمره وعمره ومساكن الأمم والمدن في غير ذلك ، وهي حينئذ تقدم من جغرافية بطليموس وجغرافية ماريوس . ووضع له عهداً رسم الأرض - وكانوا سمعين رجالاً من فلاسفة العرب - كذا في الجغرافية عن عمل الدولة على معرفة البلاد والأسماء التي أطاحتها الرتبة القامبية . والفري أول من شتمل الأسطرلاب من العرب ، وهو فيكي مأمون . وتقوم مرسد الهندسية في بغداد وبارقة ودمشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفس ، وطارق في المحيطي بطليموس في ذلك .

ويقول العلامة عوني بن الشريف الإدريسي الجعري كان مستد الجغرافيين لذي علم أوربا هذا بعد لا بطليموس . ودم معاً لها مدة ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوربا مصور للعالم إلا ما رسمه الإدريسي ، وهو خلاصة علوم العرب في هذا الفن . ولم يقع الإدريسي في الأغلط التي وقع فيها بطليموس في هذا الباب ، ووصل علماء الجغرافيين منهم إلى بلاد لم يظن من قبل غير قدمهم وحوافر قوافلهم في سيب وإفريقية . ولا تزال يا تلك الكتب ، وأكثرها مما طبعه العربيون وناسوا في الأخذ منه ، شاهدة على تلك أهمية الشأن والعلم العربي المنقح وأنهم كانوا في فن

الحرف مبتدئين لا متبعين و كثيرين من شبه الحرف فيهم طافوا العالم قبل ان يدوروا كتبهم فوصفوا وضعوا من عين ومشاهدة

ولقد كشف العرب مع انبيل قبل ان يتصدى لا فخرجه ووم في ذهنهم ان في الارض قطار لم تعرف حتى قل تحدت فيهم قبل كوليس قرن ونصف لا اوسع ان يكون ما كشف به الله من الارض من حيد مكشفا من لجة لأخرى و قد لم نسمع ان يكون مكشفا من تلك لجة لا اوسع ان يكون من الحيوان والنبات ومنه من مثل دعد ومن ثوب واحد من اخرى .

وصرب العرب في محافل الارض ومعانها يتبحرون ويتحشون على ما لم يسبق بهرهم من لأمر وكثيرا ما كان يتبع مص لوعين لمطوحت من زب الرحلات من الافرنج الى ماكن منروية عن الماء في فريقة وسياتم لا يلبثون ان يرو العرب قد سبقهم اليها منذ قرون وشرو بين هها ديمهم ولستهم ونشرو فيها دت صعيذة صاروا فيها على بينتهم ووصفهم

وكانوا كما رلو رسا نشرو فيها لمه كل بل قهو خذل وهندسوه ومن المدن التي نشروها في الشرق والعرب من نصبح في قبيل من رمن شبه معوصم الكبري، وكانوا د نظريو الى مدة على مقطعه د كرهشبه الحرف على ان يبحروا مص عمرها لدوع حرية لا تقدي عوم قبية حتى يعيدوها حدت عدا فطرو عليه من بعد همة وسعة الفصل ويتمادون ان يكون ما يعرفون من الاثنية الخالدة لا لموقنة وسفت العرب الى ا اخترع طريقة لكثرة الحروف الرة لخصة بالعميان ، اخترعها زين الدين لآمدي (٧١٣ هـ - ١٣١٢ م) وكان قد قد نصره في نون عمره ، فكانت كلة شري كة كالحرف : الف ورقة عني شكل حرف من الحروف ولصنفه في الكتب ، وكانت هذه الحروف هي التي يستعين به على معرفة عن الكتب هذ قول بعض العلماء والصحيح ان الحروف اليرة كانت معروفة عند العرب قل هذ العصر دليل قول أبي العلاء المعري

كانت معجم الآفوم انعمي لديه النصح يقرؤها بعض وسفت العرب الآوريين الى الظلير . وقد حاوله عباس بن فرنس حكيم

الأنديس وهو أول من شسط بالأسس صناعة ربح من الحجرة ، وول من
 وث لموسيقى ، ووضع آلة معروفة يُنقل يعرف بها لأوقات ، ومثل في بيته السماء
 نجومهم وعبودهم ورواقها ورودهم بمثل البحل للآصرة حقيقة
 ويأخذ الإنسان المحب ذقن في الروميت معري قوله :
 لم يكن في سماء فوق شر فس في لأرض أو ماتتكم ملك
 وقوله

وقد غدر لبحم د ح للسن أن يكون صحاح
 من نجوم نارية ونجوم

فتحلى له أن العرب في ذلك المعبر به معقولهم في اسحت عن وجود شر
 في لأفلاك ولي السحت عن عاصر لأوقات وترتها .

وكادو يعرفون في لأنداس خريثم ، وكانت وقينهم من الأرض نكاد
 أشبه وقية أهل العصور الحديثة على ما ذكر ذلك من حقيقة في رسالته في لونه .
 وسبقو إلى معرفة مرض اسود وممونه اسود ، وشرحوا غرضه وعرفوا الطباعة
 فاب أحد لأنداسيين كما في الخوص وصناعة لأمددة وآلة الطبع . وكان أحد
 ودر ، العصر لأندلسي من أهل مدة لامة ه يقرء بالولايات فتكتب السجلات في
 دره ثم يعتم للطبع فتطبع وتخرج إليه ، فتعش في العمل ويعودون على يده ه في
 من لأنداسيين عرفوا الصع قبل محترسه مشهور عونهن لال في الزعامة منه ،
 وسكر معير الخروف لمصدة ، وعصر العرب صبح الكتب وعمل برة السفينة ،
 وآلة الظل والمرايا المحرقة للدور وشريد محرقة المايطوع ، وقطامهم شوطاً كبيراً في
 ميكانيكيت . ولما عث ارنيد المعامي في شرمال السعة للدفقة الكبيرة فمعش
 منها أهل ديوبه ، ولم يستطيعوا أن يعرفوا صورة تركيب آلتهم على ما حقق ذلك
 ميديليو ، ومع ذلك لم يكن في عصر العاسيين خل من مهة العلاجه .

طهر العرب بمبرتهم مر ، فواكه الفرس وزهار إقيم مرآة زرن ، وسقطروا
 معلوم ما في بلادهم من الزهور ولورود وكان لهم من صناعة انطيوخ والمطور تجارة
 ربحه . وقد أعوا العلم ولا سيما علم النبات بمثل جديدة كثيرة ، ومعظم المستحضرات

ولأدوية المستعملة كالأشربة ولدهون وزيوت والبول (لأن الكحول) واللقوق
والسامكي ولزويد ولجبارشبر وحوز التي هم الذين كشفوها، واستمرت أصول
تراويهم أن يمددوا إلى اسماء النباتات وإلى الحجة في أمراض الصرع وسعال
الربو السارد في الحصى للثمة. ونجد حراهم تعييت حصاة مثانة وقدح العين،
وإستخرجوها منها الخُرُيم العدمي الشفاف، ويظهر أنهم عرفوا السج. وفي التارخ
العام وكل هذا المخد في الطب العربي إن لم يبدل بأنهم كانوا فيه رؤى نظريات
دقيقة، فهم على الأقل أروا ملاحظة عاقبة، وأروا تجارب حادثة، وطاء عمل
على عينة من الماهرة. وكان رري وبن حبرون من وضع أسس الكيمياء الحديثة،
وحاولا كشف الأثير الذي يهب الحياة ويعيد الشباب، وكان يذهب إلى معرفة
حجر الفلاسفة الذي يحول المعدن إلى ذهب. ولم يذهب هذه الأبحاث بوجهيه
مبدئياً، لأنهم عرفوا بها التقطير والتصفيد والتحبيد والحل وكشفوا البول من المواد
السكرية والسكرية الخثرة.

قل عوتيه. والعرب في باب الاحتراعات شيء لا بأس به بالنسبة لمصورهم، وقد
وجد في كتاب عربي قديم لم ينفذ إلى اللغة لأوربية أن العرب عرفوا طريقة
عمل الجليد الصناعي ولم تعرف أوروبا مرة هذه الصنعة إلا في النصف الأول من
القرن السادس عشر.

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب متمكنة المربية أول المعارف والبراعة
وحسن العمل، وحرر التجرد في العلم القديم. وأصبحت الزراعة التي تحدها عن
أميب دبل والشام ومصر عن حقيقة العرب. أخذوا ينظرونهم من الكتب ثم
وسمواهم بتدقيقهم وتجربتهم، وكانوا يطبقونهم عمارة ليس بعدها مودة، وكان رجال
الطقة الأولى منهم لا يستكفون عن العمل بأيديهم في رعة لأرض، يساكن
غيرهم يحفرها ويعدها عملاً ميباً. وحرى في حكم المدة على عهد استعمار العرب
العربي أن يتعلم كل إنسان مهنة من الصنائع المعروفة أو الصنائع
الغريبة، يروى به عن نفسه ساعات الفراغ ويعيش منها إذ عودته الأيام

ونفض العرب في فارس وآندلس وصقلية وبريقية لاستثمار معدن ،
يستخرجون من مساجير ، وبحسون نظريتها ولا تتع به ، وتستخرج لاندسيون
من مساجير لثيق ولتوت والحديد والرصاص والنصه والذهب ، وأخرج انصقليون
جميع ما حوت حيرينهم من معدن ومنها الفضة والذهب ، واستثمر العرب مساجير
التي صارت ملكاً لهم في بلادهم في الشرق والغرب ، واستخرجوا الحديد في حراس
ولرصاص في كرس ونهر والعط وطيبه الأوبي الصينية ورحام طواريس وندج
لأندري والكبريت . وتستخرج العرب ما في الثم من الحمر والحديد والنحاس
والصخر والزح والقي والفوسات ومرة والبكل والكبريت والصل والبارود
القصي (السويوم) وعوا كل العية استثمار مدع لاحدر ورحام والمرمر
كانت عدينتهم قليلة سلحت ويره لمعدية ، وعلى هذا حرو في كل أرض فتحوه
فخصمت رسا لدواتهم لكيرة .

فل دور ومن عدة العرب ن برقوا وينحوا ، وقد حصو الهندس والمعلوم
لريضة وسائط للقباس ، ومم تحذر ملاحظته أنهم لم يسندوا فيما كشوه في علم
الحيل (الميكانيكيات) والساعات والصناعات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على
لمرقة ولا متعل ما كان لديهم من الآلات ، وذلك ما عي لهم سبيل اندع اسكيباه
وقدم لاحتراع أدوات التصنيع والتجوير رفع لأنقل ، ودمهم في ستمال الرع
والاسطرلاب في علم طبقة وحنقدم لورقة في اسكيباه ، حصوه به دون سوم ،
وعيا هم صمعدون للحادية الموية وعلم طبقة كالتى صطعت في عدد والآندلس
وسمرقند ، مم فتحهم سب نخبين عظيم في فصير الهندسة وحرب مثنت واحتراع
الحبر واستعمل لآرزم الهندية في الحساب . وكان هذا كله من نتج ستمهم
طريقة لاستدلال ولا متحن ، ولم يقرروا في علم طبقة لومح فقط ، بل رسموا خرائط
المحوم لمقنورة في دسكهم أيضاً مطلقين على ذوات القدر لأعظم اسماء عربية لا تزل
تتردد على كرتنا الفسكية . وقد عرفو حجم لأرض بقمس درجة سطحي ، وعينو
الكسوف والخوف ، ووضعوا قشمن وانقر حداول صحبجة ، وقرروا طول السنة ،
وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أمور مثت نور يهر على نظام العالم ، واحتص

عند ذلك منهم مخترع آلات الفلكية بقيس نوقت سادت صنوعة . وكانوا
الذين انى متول ابعة لوقصة بذلك . وهم الذين أشبهوا في معنوم العمدة عم
الكبي . وكشفوا بعض خزانة مهمة كعض الكبريتيك وحمض النتريك (العض)
والعول ، وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعائن الطبية ، وكانوا أول من نشر
تركيب الأدوية ولمستحضرات المعدنية . وهم قدروا في ميكانيكيات نويس سقوط
الأحسام ، وكان لهم نبي حلي من جهة طبيعة هندسه . ونبي سديد في القوان
الميكانيكية . وعظموا في نفس نوع ومو . لحدول لأولى للجاذبية لونية ،
وكنوا مقولات في عره لأحسام وعرف في ذلك ، صحو في علم البصريات خط
اليونس يكون أشعاع يصدر من معين وليس مرئي فيطهره ، وقوانب الشعاع يمر من
المرئي للمعين ، وهو ماسس عكاس النور و كساره ، وكشفوا طريق اشعاع
المحي في الهواء ، وريهمو على ، رى الشمس وانغر قبل الشروق وبعد الغروب ،
قال والذي يدشن كثير أن تصور نية ما حزنها من موابد وقتانم لانتش
براهم سقوط اليم ، فتعليم الحضر في الشور ، ولارتق ، كان يدرس في مدارهم ،
وحققا لهم وصنوا به إلى الأشياء ، لآية وعبر لآية ، فكان مسداً الرئيسي في
الكبي ، عندهم ، وأظهر الطبيعي لأحسام المعدنية .

ويقول العلامة صنوبروس حري ثمر . العرب على فعدة ربي لأرضين هتج
الترع ، فحفروا الآبار وحرو . بال الكثير من غنوا على يابيع حديثة ، ووضعوا
المصطاحات لتوزيع المياه بين الحيزن . وقدر في مسية صوب النوع تفتح الماء ،
ولسواقي التي نورهم ، وإن سهل منسبه الذي ح . كانه حديثة وحدة هو من قيا
عمل العرب وعمايتهم مسقيا . ونظم العرب ديوان اياه الذي كان يرجع اياه في
مسائل الري ، وكانت طريعتهم في ري العرق تشه أعين ري في مصر ووسطرابا
ولولايات المتحدة في عهدنا هذا . واستعملوا جميع أنواع الزراعة التي وحدوها في
ممكنهم وحملوا كثير من الدنت إلى صقية ومبدا . وروبوهم في أوربا فأحسنوا
تربتها حتى تنظها متوطه مثله . وذلك مثل لأرد و زعفران والقصب والشمش
والبرقال والنكد والنخل والبايوس والطيج الأصفر والعسوانطر والجرد الأرق
والأصفر والياسمين بل القطن والقمص .

وظهر العرب في شام و ف من حصنات قديمه نقت في جميع اسلاد للإسلامية
فكملت ومنهم شئت حصنة نور الحديثة، وذكر عليه من نوع هذه المصنوع التي
تقلوه من شرق في العرب ولا سيما في الأساس وقال عاشت الشعوب في بلاد
العرب وسعة كما كانت لحل على عهد رومن من أقصى لمملكة في اقتصاد
سلام واحة ينقصون علالت فيهم ومصنوعات معهم، ويرجعون في الطرد
والصين يسعون مصنوعات لأنهم الصعية لحدود في الشعوب العربية في نور
يقولون في لير والبحر وذكر في العرب حرو و حصن المشرق دون غيرهم في
مضمار التجارة، وقول الصناعة سحرية، ووضعوا قوين لحقوق الملاحاة وقنصوا
سفنهم ليرة السعة من الصيبي، وصنعوا شحارة من مراك للدخول في ضبط،
وشرحوا الكفلة، ونشأوا المصارف للمعاش، ووضعوا السدح (الكبيلات) الملوقة
ورددت مملك (البروتستو) وأثروا الحركة في مصروف العرب الحديثة، وكانوا
حيث يملكون يمدون السل، ويعملون في المصنوع، ويصلحون المصدق
وربطات، ويرتفعون سير القوق، وكانت مدن للإسلامية وسطا تجارية كبرى،
واستخرج علماء العرب من كتب الطب اليوناني الطب العربي، وهو طب
العقير والحبوب، وأعظم ما علف على العرب من العلوم علم الكيمياء برعوا به وطقوه
على لرعة والصناعة، ولم يمه على جميع الأمم بأرقابهم العربية، واستبطلهم من
الحبر ومقالة، وتهديهم الهندسة وعمالهم الجيلة الفسكية في أبحاث سميت الشمس
ومعدلة الليل والنهار وأبغع الشمسية، وكشف كيا يومهم وأطروهم خواص العول
والشدر وحامض لأروت ونباه معدية، وأدخروا في كثير من أدويتهم مواد من
سنت بلادهم كالكافور والزوند والمسمكي، وهم أسرع الناس تدوين أساليبهم
وملاحظهم وأبطالهم ورواية أشعارهم والكتابة في فلسفة التاريخ وعموم لاحتجاج، وتوصل
العرب إلى اثنت تسب حيوب الأصلاخ لحيوب زوايا القلة لها في أي مثلث
كروي ووضعوا هذه القاعدة أساساً للطريقة التي سموها الشكل المميز في حل
المثلث الكروية، وعرفوا حامض الكبريت متحروحه من لرج بواسطة التقطير،
وعرفوا ماء الفضة والفضي، وطرق ذبه للذهب وملح النادر وحجر الذكي والسليبي،

وكانوا يطقون ما كشفوه على الطب والصناعة والحرب . ويعرفون صنع الصور
أحدوا سرهم من لزوم وعمل الدود لمداغ وربما كان ذلك قبل المصريين ، ولكن
كان قبل لأوريين على التحقيق ، فكانت حيوتهم تستعملها منذ القرن الثالث
عشر ، وعي العرب تصنع النقاشي ، وغيره طرق صنعه وشكله ، واشتهرت في
القرون الوسطى لأوي زجاجة وصنوع العربية لمونة التي نقت من الشم في
معدل البندقية وسحت على موله ، وكذلك تعلم الدقة صنع لمبة وكانت تصنع
في صور ، ومن البندقية انتقلت في زرد ، ونقل من الشم والبرق الى الأندلس
صنع السيوف للمثابة وإثبات على أنواعها ومنهم « للمسكو » نسبة إلى دمشق
وهو للمساكن نسبة إلى الموصل وهو اشعوف ، ثم عرفت هذه الأصناف في بلاد العرب .
كان الملك والرياضات والعلوم الطبية تقرأ في زرد في كتب العرب ، ومن
كتبهم في العلم الطبيعي والرياضي والملاط الكيمياء ، فقد نفعه العربي وبقيت
ترجمته اللاتينية ، وجميع الأدلة الطبية التي أخذها العربيون من العرب بقيت في القرن
السادس عشر هي الممول علم وحده ، فإن سيونوس ويتعد الحكم في تحديد
الطرق التي دخلت من إلى زرد اخترع من اخترعت الشرق ، وفيه كان انتهى
إلى من طريق نصيبين في فلسطين أو من طريق التجار لايضيين ، وجاء من
عرب صقلية أو من المغاربة في مساب ، بدأ الحلب يكن تقديره بما نحن مدينون
به للعرب ، ومن كان هذا الحلب مما يطول شرحه ، فقد تنم من العرب (أولاً)
الحلقة والحليون والقصب والسكر والتوت والبرون والآزر والجيل والليمون
والبرتقال والبن والافطن وقصب السكر (ثانياً) معظم صناعة في البريين كالتيب
لدمشقية القطن والجلد المدبوح وثياب الحرير لمركبه بالعصا والذهب والشمس
الموصلي والشمس والجبر والحمل (القصيدة) والورق والسكر وأنواع الحبوب
والأشربة (ثانياً) مادي ، كثير من علوم كالجبر وحساب المثلاث والكيمياء
والأزرق العربية التي اقتسمها العرب من الهند فسهل بها الحساب مما كان صعباً .
ولقد جمعت العرب وقرت جميع الاختراعات ولمعرفة لتأثيرها عن العالم القديم في
الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها إلىنا ، ودخل كثير من

الألفاظ في لغات ، وهي - هذة بما تقدمه عنهم ، و بواسطة العرب دخل العالم الغربي
الذي كان مربريا في عصر لمدينة ، وذا كان لأفكارنا وصناعات ارتسط بالتقدم ،
فان جماع الاختراعات التي تجعل الحياة مهنة بطيبة قد جاءتنا من العرب ، وقد أخذ
الأوروبيون من العرب صنع الخوج في حلة ، أخذوا من الصانع ، وكان أهل يبر
الأيطياليون ينزلون مدينة بحرية في الحرثة فتعلوا منهم صنع الشمع ومنها تقوه إلى
بلادهم وإلى أوربا .

وقال منيو بوس أيضا ، وكان عدد لرحمن الثالث لأموبي على اتصال دائم
دعرا ، إسبانيا وفر - واس ، وممالك الصقلية . وكان انقصر ملوكي في طلوزة من بلاد
فرنسا صورة من صور قصور الخلافة في قرطبة ، يشرى به الشعراء وتقوم فيه للأداب
سوق . ودا ينقل أحد أمرهم إيتولي عرش فرنسا سنة (٩٩٩) أدخل ما أخذ عن
العرب تبداً حقيقياً في تاريخ من حيث لأخلاق ولغة . وكان ملوك فرنسا من أهل
السلالة الثالثة يفلدون العرب في كل شيء . وتعلم الفرنسيين شيء كثيرة في حلة
من لوى الصليبية التي بقيت عمدة سير في الشرق ، وفي الحروب الصليبية تعلم
الفرنسيين صنع الورق من دمشق بواسطة سفير منهم قسارمك فيها ، فمد عدد
إلى بلادها نشر فيها عدة الصناعة الجديدة . وكان لكثير من ملوك أوربا حرس
من العرب إلى عهد قريب ولا سيما في إيطاليا وفرنسا . وذكر سيديلون بعض الافرنج
دعوا أن العرب لم يصور في تقدم الصانع شيئاً مع أنهم على ما قال العارفون برعوا
في جميع الفنون الصناعية ، و شتهروا عند صائر الأمم بهم ددعون ما يكون حلالاً
بلا ساحة - حور - صافي الثوب - هرون في لأستعمل التي تصنع ، المنقش والمقراص ،
ويؤيد علو كعبهم في هذه الفنون سيوصف النثرة ودروعهم الخفية الضئيلة ، ولستطهم
دات لزوب ، ومسوحاتهم من الصوف والحرير . وانكثن ، وما كشمير هذه الأيام
الانموجات دالة على تلك الصناعة .

ولئن كانت حزن الكتب والمخبر والآلات هي مواد التعليم والبحث اللازم ،
ولكنها على ما قل لمون ليست الأدوات ، وقيمتها مدط - طريقة التي تستعمل لها ،
فقد يلقف المرء علم غيره وهو عاجز عن أن يفكر بنفسه ويوجد شيئاً ، وأن يكون

تبيد دون أن يوفق إلى أن يصح اشتد . . . العرب ومدن كبر تلاميذ سدحا
أساتذتهم تبيع اليونان . شاركوا العرب في التجربة والملاحظة كثير من
حسن الكتب . هذه حقيقة اليوم معروفة لا يعدم العرب لها . ولم تكن كدالات
في الدهر المضي . فندخل على بوسطي يستعير سنة قبل أن يذكر كوه .
يأسب الناس في كون قعدة بحرية وملاحصه . وهم الأصل في تأسيس البحث
العلمي الحديث . يدعون بحسب أن يعرف اليوم الطريقة كلها هي من
متدنت العرب . وقد مهد جميع لهم يدعون كسهم ولا سيما هو
قال إن العرب هم في هذا المعنى درجة لم يكن به في حد من القدم

وقال ميلينيوس سنة بعد سنة بعد في قول فرها المعوية
حقيقة . وكسهم الأثر في عمل العرب من مرسوم في المحول .
وسنسلو امرر لحسوسات يرجعو لأسباب في لا يقبلون ثلثته
التجربة . هذه من لأصول التي لفتت العيون وتقدكر العرب في القرن التاسع
ممكين من هذه الطريقة للحصبة التي صارت منذ عهد الخواري مدة استعمالها
لأصول في أحل ما كسبوه . فكانت التجربة والملاحظة من أسلوب العرب .
ودرس الكتب ولاكتنه تدبير في علم كانت طريقة في القلوب
الوسطى . والفرق صهرين الطريقتين ولا تدر طريقة العرب في العلم حق
قدرها إلا بالبحث فيه

ولعد عند العرب على شحاب مستقوا لعلم وقفاو على مستهم رمكا طويلا
وعرفوا مكانة هذه الطريقة وليس القبول في السكبية ولا بحرب وحسد وبعد
البحر يون ثابث عند العرب وقد أوزنت عدة التجربة العلم هذا لوصوح
والانداع الذي لا ينتظر أنه أن يسقط عليهم عند من لم يدرس انصارت لا في
الكتب . ولم يقتهم لانداع إلا في علم متحد عنهم فيه لرجوع إلى التعاليم
وهو علم لصحة وقد دهم الأساليب التجريبية التي كتب لهم فصل السبق فيها إلى
كشف أمور مهمة وقفاو بها ضرورة هي ثلاثة أو أربعة قرون لم يكتب مثله
اليونان في زمن أطول من زمنهم كثير وهذه الدخيرة في العلم الماضي التي انتقلت

في ايوان قسبه . ثم استخرجوه منهم كثير من مدد حنظل ، تقدم العرب برفتها مبدلة
الى احوالهم ، وبعدهم نحو الى العرب عند تنبيه اعمامه ووجوهه ، بل نشره بواسطة
حماقتهم وكنسهم ، وشارب يدي ثروه من هذا الصنف في اوروبا كان عظيم في الحقيقة ،
وكثير من احوال عدة في اوروبا يند منه دين عرفه لأمير لصرفه ، وديهم يرجع
المصل في معرفة مددس اليه ، والاسية ، وفي نموذج الحديث فقط نجرد تعليم
جده من لائحه . من ترجمه كتب العرب وكفى العرب عن لاخذ بواسطتهم .

والعرب في سخرية لا يدرج في قريحه عليه كل حرف ، ولم يدرهم فيه
مذبح ، ولم يحج العرب نسبه خاصة به . بل يحكي في شدة غمهم بهم للرؤوف
واللطيف . وحرارة قوس نهاره . ورسم اسكاريين وحصل قتلهم في غداة
القتال بالقبول وسرعة من لا يحذر خوفه وقصوه بهجة لا يبي على
لدهر حديد . ورأى كل الدلالة على ما علم في حب لقوش وزينه . كثرت
نيتهم ومضاهيهم هي رواد من كسبة الشرق من حاكم في رقتها وقسم كما قال
أحد العارفين من الأديح . وعقد بين فصلا في تاجر العرب في الصانع ولا سيما
في الهندسة في العرب قال رما ادعى بعضهم أن الهندسة العوتية مأخوذة عن
العرب وهذا وهم . فاما بين كادمية عوتة من القرن الثالث عشر والرابع
عشر وبين مسجد من ذيك القرنين فحد اختلاف بين هندستين . ولم كانت
الصور تظهر من حاجات عصر وعوض فيه . فحتم هدمه العرب عن الهندسة
العربية في الشرق . وقد أخذت نور من العرب نسبه في اريية وحدثت على بعض
البيع في فرنسا صور حروف عربية معونة في الحرف ، وكابل على بعض المحصور
تشبه الطور العربي ، وكثير من كنس فرنسا تدرت بالهندسة العربية ولا سيما في
مدن التي كان لها تعلق كثيرة مع الشرق . وقد جلب الصينيون من الشرق اصول
هندسة بيت الماوذ في السرات والمشرقيات والمعزقات والمراصدي لا يبرج ورعالي
والخارجس الثالثة والافاريز ذت لندراتين . وسمحت فرنسا كثير من مهندسي
الأجانب وكان فيهم العرب ، حتى إن كسبة نوتردام دي اري لمشهورة في عاصمة
فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب .

أما تأثير العرب في هندسة إسبانيا فظاهرة ظهور الشمس والقمر ، الى أن قال :
قد يفرض شعب ونحرق كنهه ونهدم مصانعه ، ولكن التأثير الذي أثره يوم أكثر
بما يقوم الصنّف ، وليس للطاقة البشرية أن تأتي عليه ، والقرون قد فعلت في القضاة
عليه أكثر من ذلك .

وقال أيضاً : من ألقى نظرة على المسحود والقصور ، وعلى غيرها من الآثار
العربية من صقوها وعبر منقوها ، يشهد أنها سمحت على غير مثال ، وأن الإبداع
فيها ، طاهر محسوس ، وإدارتها الى أول عهد المدينة العربية وهي في وجه نجد التقيد
للمصانع المارسية والرومية طاهراً فيها ، وكل شعب يقتبس عن سقته مصانعه ، وهذا
يصدق على كل الأمم ، وكان الناس الى عهد قريب يعتقدون أن العيون اليونانية
قامت على غير مثال . والعرب واليونان والرومان والبيثيون والامراتيون وغيرهم
أوحى لهم أنهم قد انعمت من شاعبي ، وكل شعب أخذ عن غيره ورد من عنده
ما وسعته الزيادة ، ولذا لا ينبغي أن يستدل الناس في مدحهم أن العرب لم يكن لهم
من فيه إبداع ، لأنهم قسوا لأصول الأولى من أعظم عن الأمم التي تقدمتهم ،
ويعرف الإبداع الحقيقي في أمة من السرعة التي بها تحول المواد التي بين أيديها
فتجعلها وفق حاجتها وشيئاً فاجديداً . وما من شعب في العرب في هذا الدفن
فكر لا يجد عديم قد تجلى في مصانعه الأولى مثل مسجد قرطبة ، ولم يلبثوا أن
التوا في روع المنسبين لأنحاس أنهم كانوا يعمدون الى طرق جديدة فيها ، كل الخندق
وامهارة . فقد كانت سورتي المائدة القديمة التي بين أيدي العرب من القصر بحيث
لا تناسب مع عظمة الأبنية واتساعها ، قدموا هم يشئون في أسعها قواعده وغطوها
بقناطر وضمت على عية من الدقة . ولو كان الترك مكان العرب ما كانت حطرت
لعقولهم العليظة مثل هذا الذكر . وكان من أمر الشعوب التي خلقت العرب في البلاد
التي خضعت لسلطانهم أن رزق مصانع قديمة سقت العرب ما استطاعوا أن يدبروها
تديراً جديداً ، فطل التقييد بآديا في أصولها وفروعها . أما في المصانع العربية كقصور
إسبانيا وحوامع القاهرة ، فإن المواد الأصلية قد استعجت الى ترتيبات بلغ من خدتها
أن يتعذر القول من أين جاءت .

وقال، إن من أفي عطرة على لأعمال الأدبية وإمسية التي تحت على أيدي العرب يتحلى له أنهم حاربوا أبدأ أن يزيوا الطبيعة، وطاهمهم الذي يدوي العن العربي هو النجيل واليه، والصبا، والريفة في رينة والإدقة، فالعرب عصر شعر، وفي شعر لا يطوي على متعن، اعتنوا بحيث تم لم تحقيق جمع هذه الأحلام، فأولدوا هذه القصور الديفة التي تدو للعيان كأنها تصريس من الرخام الموضع بالذهب والأحجار الثمينة. وما من شعب حاز مثل هذه المعجائب، وما من شعب سيدايهم في الأندلس بطرائفها، ومن اعثت أن تطب مصغاتها من الدور الذي دخلت فيه الإنسانية اليوم، فاصح لا تعرف من الصائم إلا مستدة والمقصود منها، البع فقط وهي شاحبة باردة.

وقال ميجون لا مكر على العرب أن لهم الخط الأوفر من هذه المدينة وهم وصوم، وهم، وقد فرعو هذه الماصر المختلفة في قلب متحاس فوحدو منها مدينة مطبوعة بطابع طمتمهم مشعة سلامة دوزهم، ولم يفض قرن على فتوح العرب وبسط سلطانهم على الشرق وإفريقية الشامية وإسباني حتى تدل النظام الاجتماعي في البلاد المعالوة، وحل محله دين ودارة وعدت وأحلاف جديدة. وهكذا يقال في مصغاتهم وهونهم وكثير من احتياحاتهم، وإن توحيد تلك البلاد من بحر الطلمات إلى المحيط الهندي، وإحصاء سبيل وحد وطام شامل، والعنينة الجندية، وإدول المسارين على دة فريضة الحج، كل ذلك سهل سهل التعرف بين المؤمنين، وحمل كل واحد منهم يحمل إلى الأده ما ستحسنه في البلدان الأخرى. ولذلك رأيت التأثيرات الشرقية في قدم الإسلام في العرب كالحمد الكبير في قرطبة وجامع سيدي عقة في القيروان مغربة بطرز شاعها شرقية بزخارفها.

وذكر مركبة في كتبه الفن والتاريخ أن العرب ورثو فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في سلطانهم الفنون والصنائع، وأخذوا يتخذونها ويعبرون فيها في مدارس المورثين، ولم يكن في سلطانهم أن يرتجلوا فاكما ارتجلوا لهم منسكا. ومع ذلك لم يفض زمن طويل حتى نبع فيهم البهون والخمارون والمصورون والباقشون، دون أن يروا في شيء من ذلك محلفة لمصوص كتابهم، أو معرصة لشريعة نبيهم، ولم

يقعوا عند حد الحسق والمعرفة ، من تعدد في شتى ولا بدع ، فحقوا وصحبوا
 وحدهم ونصروا ، ثم حترعو وسكرو ، حتى طعموا تلك الحبوب ، طبع العرب ،
 وصعدوا بأصعدة للإسلامية ، حرصاً على شخصيتهم التي ، وعلى ما عهد وعثر بينهم
 أن يذهب ، فوضح روح العرب ، ردوا وصحفاً بدمج فيه نيرة ، ولا بد مخرج في شتي ،
 وهذا حلفت العرب لم يأتوا في دونه ، وإنما بر مع طعموا ، وسرعان ما تنشر في
 أرجاء تلك المملكة وسعة انتشارها ، ولو وقد حصص هو للإسلامية
 به ميسر الفلسفة الإسلامية وحضارت في كل دور يصعد خاصة مكاتب في خدمة
 أحوالها من أندلسي ومعربي وصنفي ومصري وشيبي وعراقي ، وفيه هديهم ومعه ، في
 إسلامية نصية كرمة فيه تصق ، للإسلام من ، ولخدمة ، منهم ، بحمة .
 هذا يا صديقي ما تقدمه العرب ومعه ، من هذا محمل ما حترعوه وكسبوه ،
 استمدوا منه وفقدوا من مديه الحديثة ، عملوا فيه وحدهم استقروا وتكبر بينهم ،
 وتوصدوا على ، لم تشاكهم فيه فمة . (انتهى من بحث كتاب الإسلام والحضارة
 العربية) ، وبعد ذلك كانت للعرب عدة دقيقة موم الطب وتشرع والأقربان
 والعلوم الدت والحوال والسفارة ، للهرة وحكام الحو ، والحسين والسيم ،
 والكيمياء ، والملاحة والإحاة والهندسة وعقود لأمية ومطال ، ود ، المحرقه ومر كمر
 الأثقل ، ود ط الحيد والسكات والآلات الحربية والزحوت ، وماوهم وموقيت
 والأرصاد ونسطح الكرة والآلات النصية والحساب ، المتوح وحديث انحت والميل
 والحير والمقالة وحسب الحصى ، إلى آخر العلوم التي فردوه بالثيف وتوفروا على
 خدمتها من لهم في فروع أخرى من علوم الحضارة ما لا يحيطر سلطانهم سدقوا
 ووضعوا فيه نتائج تحريمهم ، فلم يبق من انطرح ولا طعمة ودرورت وتدير المنزل
 والمدنية تأليف حينة ، وفي علم الإدارة والقيافة والرؤية والفراسة ومتحصن لأرواح
 والأقربان وقلم لا تار الى غير ذلك مما علوه من الموضوعات وحدهم علوماً قائمة
 برأسها ، ما دلوا به على ان هوهم معلوم لذبا وزى هوهم معلوم لآخرة . ولولا أن
 خاعت كتبهم فلم ينته الينا منها ، غير نحو عشرها لوقفنا من علومهم وموسمهم على أكثر
 مما وقفا . وكان الفصل في الايمع يقياً فضلهم لور في محدهم انسي أهل المدييات الحديثة

أثر المدينة الفبرية في البلاد العربية

صاح لعل^(١) مدعي ويس في البلاد العربية من يفكر في شيء مما حصاره، وبانية ما فهم. أثر مدينة قديمة، يضم أهل البلاد كل شيء وما هي به. انقضى سداهم، وطلعت الشمس، وجمعت القمح، حتى صارت مينة، وصاح ما يعل له علم ضده من قديم ليس وليس، ووس في عمله عرب العرب لا يعرف. ما في مينة صحت في بلاد العربية كل مضير من مظاهر لهوة في الأمم، وصاح عرب من عرب مومنت به في حجة مكية. وكان سنة اتريفي عند أهل العرب في تلك الأوقات كتاب على مقدر. ثم في كل سنة في البلاد العربية، ومحسبكم له لم يبق في نفس العرب على قول مينة العربية، وهو يقرب مدعي، رجل - كوفي - هندسة وتصميم ونمط وأشعر ولا يشاء. والحظوة والفاك والكمب. واعب، وممنهم من يدكرهم في حوز صدي في فهم. أصبح كل علم وهو وعمل في الهندس وسدعه، واستحكك حلق في الجود في العقول، وشغل الناس من الحد بالزل، وتصل ولا تان بدو من لأن يستحو ويسحو ويسحو ويمدون ذلك على وقتاً. وسقط عند أنفسهم وثلاثين إلى الدرك الأسفل من المهانة.

وبينا كانت البلاد متهورة في أعناق هذا لائحط طجاء، بولايون بنات في أواخر القرن الثامن عشر، يفتح مصر ويحمل في جنة. يحمله من العدد والعدد، طائفة من علماء العرب وتوابع في لريضة والهندسة والطب والخزافي والملك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن وطبعت الأرض والحيون والنبات ومن المعمر وهندسة نوري والقصور والجسور والميكانيكا، وزمرة من رجال السنون من

(١) مقتبس من كتاب غمومات طبع مؤخر اسماءه للاستاذ والحصار العربية.

المصورين والرسميين والموسيقاريين والنقاشين وومشتين وعددهم (١٢٦) علما ومتعلمين . وألف في مدينة القاهرة مجمل للعلوم والفنون يرمي إلى تقديم العلوم وتعرف في مصر ، ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والزراعية . وث في المجمع مكتبة تحتوي أنفس الكتب التي حضرت من فرنسا ، أو جمعت من حرقن المكتب في مصر ، وأشأوا به معملاً للطبيعة والكيمياء ووحجوه دالات ولادوت الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا بحجوتن الملاد وكشفوا الآثار ووحوا السارسن عظمة مصر القديمة . ووسموا حرقن مفقودة للبلاد ووباب وترعه وسواحلها ، وبحق في طبع حيوانات والسات ولعدن . وودرسوا مياه النيل وطبيعتها ووطقت الأرض ، وجابوا لوحات ولحقات . ووشأوا في القاهرة مطبعة أحدث نطعم منشورات نابوليون العربية وحريضة السكة بيه دبحيت وونديكاد ، وبعض المطبوعات العربية والترسية . فثني هذا العمل العسبي الذي دمه رجال العثة العديدة من بحث ووخص وتليف وتصوير إلى "اليوم أقرأ عليك دهر" . تصلى لأمه الرؤوس إكرا وإجلالاً .

كان احتكاك مصريين أفراسين أول احتكاك عسي مع الأفرنج في الأرض العربية ، ومن كانوا في طبيعة مستعدين مذح مصر في تلك الحمة الشيخ عبد الرحمن الخبري ، وعالم آخر سمه الشيخ حسن العطار ، وهو الذي رلى مشبعة الأفر بعد حين . وث في الملك والطبيعات والزراعت . فإن هذين الشيخين وأمثلها علما بعض عباء حملة نابوليون للغة العربية ووعبره ووتأما مهم مام يكن هم به عهد من العلوم المادية . واحتفظ رجال الإدارة والسبسة من أهل مصر رجال الخلفة ، ووش بين الفريقين يعرف . وهكذا عرفت مدينة أفرسية في حد الشرق القريب ، وطت وورفة الطلال في ملاد التركة .

وتولى مصر محمد علي الكبير وأبوا . مدة ١٨٥٥ . فوحي إليه دكاؤه الددر أن يقتبس النظم الإدارية الحديثة ، وكان مرمياً بتمدين مصر فوحصر من مختلف ملاد أوربا أسادة ووطء وصيدلة ومعمدين شيدوا في أماكن احتيرت حسن حثير تلك المدارس والمستشفيات في القطر المصري وو شعر على أميته أن الملك لا يشيد

إلا على أساس من العلم ، وأن العلم الذي تدعم به ذلك ليس هو الذي يسمونه
علماً في الشرق ، إنما هو الذي قامت به المدينة العربية وشيدت عليه صرح عيناها
وقوتها ، فأقرت له لأنهم العلية ووقعت أمامها صاغرة دليلاً .

بدأت والي مصر منذ سنة ١٨١٣ م يرسل الطلبة لمصريين إلى أوروبا ، وصرف
عليهم من سنة ١٨٢٦ م إلى ١٨٤٧ (٣٣٦٠) حبيباً . وغدا معظم الطلبة الذين
تخرجوا من أستانة العرب من دعايم النهضة التي تم على يدها إنشاء مصر الحديثة .
وأسس أول مدرسة الهندسة في سنة (١٢٣١ هـ ١٨١٦ م) ثم أسس مدرسة الطب
(١٢٤٢ هـ ١٨٢٧ م) وكان الكيوييل سيف الإفريقي الذي كان بعد بالإسلام
وسمي سليمان باشا (١٨١٩) هو الذي علم جيش المصري وبعد مدة نشأ ما ريت
باشا متحف بولاق ودم عثم العرييس بعض على مصر مدة حكم محمد علي وأسرته .
ولوا حصي ما كتبه على وجه في مصر من الأسرار ، وما رسموا له من الآثار والمصورات
ولخطاط لبيع حرقه كبرى . ولا تزال هذه التحفة العلية إلى اليوم مرجع الدرسين
والباحثين .

قل الدكتور عثمان عامت من علم مصر الذين شاهدوا تلك الحركة العلمية
في إيمانها ، ثم شاهدوه في تخطيطها وحضورها في تحديدها ، من أكثر أستاذة
الدرس التي أنشأت في مصر على عيدها لولا أن كانوا من العرييس المستعربين .
يكتب الأستاذ ديرة عريسية ولترجم معه ببقته إلى العربية فلقى على الطائفة منهم ،
دم ذلك من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٧٤ وقد كتب فيها لأستاذ بروجر العريسي
رئيس مدرسة الطب : ولادة والصبغة والمستعربين لمصرية إلى حديوي مصر في
عهده يقول له في تقريره السوي : إن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس
كلها بيد لمصريين ، وقد أصبح منهم المكثرة لأن وأن مهمة فرنسا في تربية أبناء
مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت ، وكادت .

لولا عمل محمد علي في تنديبه مصر لأشرفت حتى اللغة العربية على النصف ، على
الرغم من وجود جامع لأحرر فيم منذ قرون ، لأن الأحرر ما كان يعنى بغير المسائل
الدينية ، واللغة تفرض إذ لم تكن به علم ، وهذا ما حاول محمد علي أن يعمل فوق

إليه ، وظهرت تشيير صلاحه بعد عشرين من التذنب . وكان من محمد علي وطريقته المتكررة في نفوس بني قومه ، ولاد مصر كل ما دبت لأمة مصرية من مديّة العرصة ، وكان ودي ليل محبيل صعه مثل عتي سي دل به العربي بصورة محسوسة على أن يس في دية م يحول يه وبين مدته ، وأنه حفيد وذات الفاضل الناس . دمت فيه رمزاً حزيناً هو من . ثوب فيه خدة عند قول محركة ط . وفي مصر ذات أول مدرسة تسمى المدرسة سنة ١٨٧٣ م على عهد اسمعيل الذي أخذ من مديّة حرب الشكوة ، مصر ، وأخيراً اللاء صاحب قطعه من أورني قومه . وكان لمدون مدعل يشه محمد علي كثيراً وعلى نسبه عليه خاصة .

كان من حيلان ديويون ومعه ذلك لربيل نحن من مديّة في مصر ، ثم من سبيل محمد علي ، وسماه الخايت في دجا . خصرة مصرية مد كل نور في الشرق العربي . سمعت من لاد الخوة بحكم نسبه . ولا صم . الشام وان منهم من درس في مدر من مصر وعصره خدموا في مصر ، ومنهم من نقلوا قبلا من اسوا من لادهم ، سمعت من مديّة مصر في اللاد الخوة ، وثبات فخذ مع ما وضعه لادهم .

مصر دهي التي بدت نفوس بعض صاحب محمد علي من نور اعم الصحيح . ومصر أدها العرس من في دور رتده لم يسبق له مثيل قد عصت على قول مديتهم ، ومصر هي التي حشرت في عهد لا يحطص على الجمع بين علوم الدين ولدي . فمحت لكل منها طريقاً ميباً لا يدخل لوهن منه على صاحبه ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل لها الدولة العثمانية حتى لقد حسدتها هذه في تلك الأيام وودت لو يكون لها مثل ما لولايته بالأمس شيء من مظائر العلم وتمدن ، هدم مع أن امصريين كانوا في نظرها فلاحين إفریقیين . وهي في قارة أور ووارثة مملكة يبرطية ، مصر أثبتت مستعبد الأمة بالأحد ساليب الايرتاد من دون جلبة ، وانها كل ساعة مستعدة لقول الخير لا تسأل عن مصدرة ومصدرة .

أر يطغوها بمجد فبرها . ومن الغرب تعسا معنى الوطن ولوطيبة ، وحب الجنس والقومية ، وهذا شيء حديد لم يعهد للعرب مثله ، بعد أن دق الدس الأتري من ظلم الملوك ومن دناهم وولاهم قروبا طويلة ، ولم يقدروا أن يعيروا وضعهم ، بل ما وسعهم التفكير في مثل هذا شعير ، وفي شيء يمثله تقيم أمر فجعة ، وسترجاع الحقوق المضاعة .

كان الدس في ديرنا قد نال تقبل خلى العرب في حصارته ، يعيش الفرد منهم لنفسه ، فاضحوا يوقون اليوم أن قراءهم ماط تصد منهم وكماهم ، وأن الشعب يتوى على ملاه إردته ، بد كانت عديته سبيمة موفورة ، وقدر حظ الأمم من ماديته تصح لها معوياتها . يقول العلامة عوييه : « كثيرا ما كان الشرقيون يصمون قذيل وشعونا يؤفون بمالك ، كانت المملكة الإسلامية من أحدها عهدا . وما أموا قطمة على ناس لا قيم ، ولم يعهد لهم أن عرفوا راحة تصمن ، وشرقي أو مسلم هو شخص لا يمكن صدقه . يعيش معزلا نفسه متوحدا ، ووجهه يدعو إلى الله الذي هو همه الوحيد ، وكان من هذه الفردية المعصية صمعه في الام العربية . » تعسا من العرب تحول الصحافة ونشأ ما شيء صحفا محررة فحق « الأمور المادية والسياسية وأخبار الدول وذلك ، وقتس أسلوب المحلات الدورية نقل أكثرها عن محلات العرب الفرنسية ولا سكرية وسبح على موها ، وبحوث فيما انقل من العلوم النظرية وناقص آراء العرب ومذاقه السياسة والاجتماعية والاقتصادية ولأدبيه ، ونزحهم من الكتب العامة ولأدبية ما لم نكد نعرف اسم ف من قبل ، وكانت مصر محتبة في هذا العصر ، شنت من مئات بمبوة حكومتها ، وعناية ناسم الذين اعترفوا من النايح الصوية في العلم الحديث . وكل بلد سبق في هذه السيل ، وعلم نساء كعصر ، كتب له التقدم على غيره من لا قطار . ولا عجب أن أصبح مصر بعد هذا الجهاد تشه بعمرها إحدى أبنائك العربية الحديثة .

ونشرت الصحافة في عقول من أدموا تلاوتهم ، ودخلت الأفكار الحديثة أوساطا ما كان يظن أنها نهم ب وتنفيد منها ، وندلت من طرق التفكير وأصول المعاش ونظام المجتمعات ، وعلمت الناس ما لم يكونوا يعلمون ، عمنه أن وره حياتهم

المادية حياة معنوية لا تبقى لهم مادياتهم بدون ، لأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط في التدرج والجراد والاعتماد والزرع وحال لأنهم وسياحة السيسيين ، ومحاذلات المشرعين ، واستمر المستعمرين ، وتدابيس المدلين ، وسلمتهم أيضاً أنهم كانوا شبيهاً مدكوراً فيما مضى ، ولا حية للأحقاد بدون لأخذ من سيرة الأحدد . والاقباس من المدينة نراهة كل ما لا يترع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، حتى غذا بعض من طالوا تلاوة الصحف ونههيا ، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسموهم «الخاصة منذ مئة أو مئتين من السنين . علمتهم أن لا يقيم لأمرهم إلا بقومية العربية ، وأن الدين وحده لا يعيهم بما هم فيه ، وأن الله هل أمور لدي يذهب بالدين والدنيا معاً ، علمتهم أن دواءهم لحمل المركب وأنه لا سبيل إلى ربح لبحسه القدر إلا بالتطهر بالعلم ، والأخذ بقسط من الأدب ، وقوة مواثيقي . قال على مدارس والكليات شعريين عما هم عليه من النقص . وأشعور . اعيب أول مراتب الكمال .

كان الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم إلى الكتائب في لدار الشامية بقوة لحد ولديش . وكان التعليم على عهد محمد علي في لدار لمصرية مكروهاً عند المصريين كرهاً شديداً . حتى إن الأمهات كن يقفن عيون أولادهن حتى لا يدخلوا لمدرس ، بل اضطرت الحكومة لمصرية في بعض دورها لأولى أن تتحطت ثلاثة مدرسين من الطرق وف . انقضى كما ينحطون عدا كرجيش . فرد إقبال المتعلمين على مدرسين زيادة مستعمره ، وكل قرية بل أهل كل قبل من الوادي يتطلون إلى تعليم بنسهم بكل حبسة ، دى سكان المدن فإنهم من ذلك على حصص موفورة . ويا ويل فتى وفرة وحده في وجه أبواب المدارس يوم افتتاحها من حريف كل سنة إما لقله لأما كن أو لعدم قبول الطالاب لصغر سنه ، أو بسبب آخر . ويا ويح تلميذ يخفق في خوصه ، ولا يزال يريد نفسه من الشهادة والإجارة . واستندحنا من ذلك أن لا قال على التعليم أصبح من الأمور المتعارفة ، لا يختلف اثنان بفائدته في الحواضر والبادي .

لما اخترعت أوربا السحار حوى سنة ١٨٤٠ ومهل السفر على الناس في قطارات البر وسفن البحر زاد احتلاط الترنج بالعرب ، وورد هؤلاء ثقافة ، يحملها اليهم طلاب

من وراء البحار وساحل أفريقيا ووجه حبه انحدرون إلى بلادهم ،
 يزورون أشراف مدينة ودينية ، ومنهم من قدسهم فبحر القسرية لأنهم موطن
 يسوع وخطه عكسه ، ومنهم من يدعش أنه نوريون كآثر النور عند مدنيات القديس
 يعرف في مصر ، ومصر تدعو بعبث وحزن والتر في الشيم ، ورد هذا
 لاحتلاط شدة مذبح عرثه مكان حب الشيم على بول فيركا طبا للرف ،
 وكان أهل في ، سمعهم في بوط مد نحو ثلث قرون ، في سمعهم ، لا ميركيس
 من فتحهم كريستوف كمبر ، وسكودن حواء ، وكان مد أكثر من نصف قرن
 من لا يبعد إلى بلادهم ، - حج إلى هذه خمس شئ من أصول مديسة ، لأنه
 رأى في دمه ، و - في ممر من المد ، وحتة مكرات نبي كمال في
 مدية من حواء ، ومصر مد من المد ، وامدق وحتة من المد ، والمد من
 الطائفة في مد ، شامة عمر فيون من حزين من الشيم ، وجمع ما يبدو في
 حنيفة ، نوري من مقول من مدتي اللاتية ولا نحو سكوية ، ولشيمون مد عهد
 النيقية في مشهور لم ، وقد يسميهم حب لريح من مطهر الحيسة في الأمم ،
 فيون عليهم التحي من لهم وكثير من أحلاجه ، - كان من وراء ذلك إعتوهم .
 مد عرف مد فلا يكون في امود ديمش في الفرق يوم من مصر والشام
 ونوس مثلاً ، ومن - تحت الحصرة الحديس مد احصة القديس ، وتور أهلها على
 الأحد من العرب سلمه وصعدته ، وبين الحجار ونجد والمين ، وهذه لم ييسر لأهلها
 هذه الامتراج ، كالمرفق من مدية العرب في القرن الثاني للإسلام ، ولقرن النبي
 صق وأخر مد الجدية ، فهل الحرية يمتصهم في اليوم ، ولا نكران للحق ،
 كثير من مقود مدية ، وجمع هذا بول ، أن ما هم فيه عاية العايات . ذلك
 يكونهم تقطعو عن العلم مدني طوما وكريفا ، وقل حنلاطم بالعربي ، إلا في
 بعض سواحل البحر الأحمر والبحر المحيط هديس وحليج فارس ، وهذا على
 قلة محسوسة .

كان لواء إذا تشر في المدة لا يبي من سكانها ولا يدرك ، وفي الغالب أن
 يعقب الأوتة قحط ، ثمة الصمدن في الحقل ، فيهلك الناس بؤت الألف ، وما

كانت هذه الأمراض الوفاة تنتشر في شرق مصر مرة أو مرتين، «ن نحصده لأرواح في كل عشرين أو ثلثه، فقد تشرود في شدة في أفن الخمس، وأغلقه فحط وصاف في العيش مع ما هبت من مصاب ومدمر لا يكاد تصوره من هذا العصر، في كل المدن الكاثوليك والسودانيين ثم في كل عصبه مصاباً ورن سكت في دمشق في ثلثه لاف - - - وكوم من فل حسنة ع، ومثل ذلك كان في مصر سنة ١٩٦٣ هـ نبي أعجب من مصر مصر، وكل لاجئ لاجئ وبنع يدب في مخرج ماء ديرة، ووجه برأه في عشرة ويسد منه حوش فقت، من أحد هذا بلد قمع، فلم يستمر أحد، فتمت في الحريق وقت ما معني وقت الحجة ولا شملك، فلو، ومحجب نه، كان له من سقط - ووجه في مصر خدموا لك لاندس عم سعة، وعين ورنة، وهو من أحوج لأنفسه مصر، ككبر مملو طعماً فرجع به ركب مملو ياقو، وجرعاً ودهماً وأحضر، هكذا كانت حال الناس قبل أن كشف العرب الحريم، ويبيد في لاسن والغرب منهم، بهذا اكتشف العظيم.

وكم كانت لأرواحه وأطباء عين والحجيات ولادة وجميع الأمراض الوفاة والأمراض العصبية كالكسب ومحوه تلك عشتات لأفوف من الخلق، ولا يعرف دوائه، ولا من يذكر في عيب ولا من، ومنه من يعرف ذلك إلى سبب سببه، يعصب للدين على لاجئ، ويرسل منه هذه المهلكات، أو يقوى سلطان الحق على الإله في أحدهم أحد عرير مقتدر، ويحل بهم سكتة الله فتنسب وورهم القم وتنسبهم السعة، وكم قصص الاله عيب كسب طعم الحذري، وكان يهلك كل سنة حرة عظيم من الأطفال، وكما من عيون دجاجة فقت، ومن حدود حيلة بتأثيره تشوهد.

عرف العربون حقيقة الداء السكري والنصر والتشنج وغيرها من الأمراض فوصفوا لها لأدوية وقاموا بحوار تحول دون آلام وأخطارها شمت وطائها، وحققوا حفرعوا وبازت الأمراض المزمنة والكراز (تيتانوس) والحقن والقرص الحاد، ووقفوا على إعتان في لجراحه إقداً لم يكتب مثله للشعر، فأودوا

الإسبانية وقالوا من أوجاعها ورقوا الطب على اختلاف صوره ، وبنعوا بالاقرباء من
ما ارتقت به الصيدلة أي رقي ، ولم يكن لهم غير الكيما وصناعة اليهود والزرع
لكي في خدمتهم الإسبانية . وانتعوا وضعوا الكيما حتى تحقق لهم من النفس فيها
ما هو عريّة الأيام والليالي . وإذا قلت أورا إلى سيب وأميركا وحرّ من إفريقيا
الحقّ التيفوئيدية وبعض الأرض رهريّة ، فقد قلت آسب إلى أوريا إسكوليرا أو
الهواء الأصفر ، ومع هذا قلته بطلا وبجئ حتى قلته ونخاد الطاعون .

عندما انقرب طب الحيوان ولداوحن ، ومكاشفة الحشرات وكانت تعبث
بالأشجار والحب والزروع ، وسنجد مه صفا من القول والأزهار والثمار لم يكن
سابقا عهد ، وعرفنا طيوراً ودججا ومما ذا حديثة . وسنطعم بالأحد بوسنطهم
القصر على الحراد ، ولطاد فقر قطار وأمصارا ، ونعلم استعمال الأسمدة الكيماوية ،
والنفس في تنظيم العرصات ولاستكثار من الممرشحات ، ومعالجة الآلات الحرّة
والدائرة والمضادة والرجدة والدّراسه والدّريه بل ولجسامه والطاراة وكل ما
يقال من عمل الأيدي ويوفر على الخلاق راحتهم وينتصر لهم طرق الاشتماع ما تبنت
الأرض وتعود الماء .

نعم من العرب تميز الخطوط الحديدية ، وفتح لأمدق وسه الحور والطرق
والمرقي ، والحرّات والماثر وحفر لآبار الانوريه ووجه الدور ذات انطقت
الكثيرة ، وما عرفت في الترخ في غير مدينه القاهرة والإسكندرية وبعض سواحل
الشام ، وعلمت توريد الكهرباء ومد أسلاكها والنف والاسلكي والسلك البحري
ثم الرديو . ونعم تنظيم المدن والبلدات وفتح الشوارع والحدائق ، ورصف العاروق
وتذليل العقبات ، وحر المياه النقيه في نابض ومبعل ، ومخفيف لأصقع المستنقعة ،
ومخفيف ويلات أمراض العين ، وكل يقنى بها طوتف من الناس .

الألمان أنشأوا سكة حديد مدد وسكة حديد الحجاز بتقريب المسافات بين
الشمال والجنوب ، والعربيس فتحوا نرعة السويس فربطوا الشرق بالعرب ،
والإنجليز قاموا حزمات اسوان لتستفيد مصر من بلها ، وغداً ينظمون ربي العراق
ليستفيد من مياه الرافدين بجلة والفرات على ما كان على عهد ملوك بني العباس .

الى غير ذلك من أعمالهم في معظم الأقطار التي دخلوها في آسيا وإفريقية، وهم اليوم يستخرجون بقط الموصل، وقد مضت القرون وهو لا يعرف ولا يستثمر، وغداً يستفيدون من المعادن العربية المخوة في صدر البحر الميت.

اقتبس عن العرب أصول الهندية، وتنظيم المراكب البحرية، وتدوين الدواوين وأساليب الجباية والخراج وإدارة المصارف والكمالك، وأبدل أساليب التجارة بأساليب القرية لما أخذ، المضمونة النتيجة، ولم نعرف قبلهم المصارف ولا المصارف، ولا الشركات المساهمة والمضاربة والمعملة، ولا كل ما يسهل على التاجر عمله. وعلى الصانع صناعته، ويوفر الناس أموالهم وكان الأدوات والآلات هي خاصة من خاصات المدينة الحديثة، لتمرر العرب بالتمحم المحجري وضروب المعادن ومن أهمها الحديد. ولأن لاهصاء في العلوم جرى تطبيقه على الصناعات عندهم.

ومن العربيين أخذ أصول الدعوة، والإعلان عن كل بصاعة، وطرق المعسكرات والمخزانات والإحصائيات، أنه تأليف المؤتمرات والمؤتمرات. ومنهم اقتبسوا استخدام المأمر والمجوع والماء واللباس والمطايء والمنصحات، وسحب على أساليبهم في إنشاء الجماعات الخيرية، ولأحزاب السياسية، والشركات الصناعية. وإقامة حدائق تربية الحيوانات، ومعارس لتربية البساتين والأشجار، واستمدنا مسائل أخرى كثيرة فنجهد لوضع أسماء تطبيق بالعربية، ولم نعرف قبل الغربيين إقامة المنشآت والمصاح والملاجي للبنات والبنات والعمم والكم والمسولين والمعنويين، على هذا الطراز من العداية والظهارة.

هم حرروا الرقيق فكان ذلك من دوحات خرم، وأرلوا بذلك وصمة عار عن الإنسانية، وأطلقوا النجاسة، وكانت قطع فجارة، وأحط عمل شثن في استعباد البشر. هم علموا المسود حتى ألحقهم بليض، ودربوا الحيوان حتى قام بكثير من أعمال الإنسان، واستعادوا من كل قوة ذخرتها الطبيعة وانتموا من كدء كل كفو، وفضل كل قريحة في هذا المجتمع العظيم.

بتعليم الغربيين أصبح للمرء قيمة، وللعلم العامل مقام، وبعديتهم الحديثة أصبح العصب على اختلاف أحاسيسهم ومعتقداتهم يؤفون أسرة واحدة، لا يبحثون على

الأعلى إلا لحلاء الحقائق ، بمنزل عن المصلح الناهية في المجتمع لا ساني ، ونقد أثر علماء الغرب في أرواح الشرقيين وعقولهم من حيث يدرون ولا يدرون ، وذلك بمصل ما يشونه كل يوم من معارف جامعاتهم ومدارسهم وتديتهم ومعاملهم ومخابريهم ، وبمصل ما كشموه واحترعوه وحققوه ومصححوه من العلوم ، وشوه من الأفكار الجديدة ، فقلبوا بأوضاعهم أوضاعنا ، وبدلوا بتصوراتهم أشكال تصوراتنا ، وبدلو من أساليب الذكر في رجالك المدارس وغير المدارس ، فتعيرت مادة أحاديثنا ودوافع أهوائنا ، ولطفت أذواقنا وسفن المستحسن من عادات ، ولم يكن لذلك كبير أثر قل احتلاطنا بهم ، وتسهل المواصلات بينا وبينهم ، ومنذ دفعا من ذهنا أرقى منهم في كل شيء أصبحنا ، ولا يصعب على مرة نفوسنا ، أن نقر بصعفا فعاله ، بالتخذيهم أساتيدنا في معظم مطالب الحياة ، وسطل كذلك زما آخر حتى يستوي إمة ناهضة من كل وجه ، على ما استوت اليابان الشرقية في القرن الماضي .

تحدثوا إلى شيخ طاعن في السن ، عرف هذه الدنيا منذ ستين سنة وعرفها اليوم وقولوا له أن يحدثكم كيف كان أجدد به الجوان لمساائل الصحة التي أدرها اليوم صغار أطفالنا ، وكيف كانوا يطبخون طعامهم ويحلبون إلى مواثهم ، ويرشون بيوتهم ويحارونهم ، ويلبثون ثيابهم ويرتبون هداياهم ، وماذا كانت كسوة الأواص والعقائل وأربؤهن العبيطة ، ليقولوا لكم كيف كانوا يشمرون ويتسكرون ويمرحون ، وما هي ملاهيهم ومقاهيهم وحاناتهم وخاناتهم وماذا قدم ومراكبهم ، وأي الحريات التديية ولدينية والسياسية كانوا بها ينعمون ، وماذا كان لهم من الأمان على لاموا والأمنس والاعراض ، وأي المعلومات كانت لهم عن العالم وأحواله ، وعن الشعوب والأمم ، وعن العامر والعامر ، وعن الحقائق والخيالات ، وكيف كانوا يقطعون أوقاتهم ويتمرون حياتهم ، ويستندون عيشهم . وكيف كان من يرأس من الناس يطلم كل من وقع يده ويمجد في الحكام معوا له على ظلمه ، بل كيف كان الخلق ينظلمون على الدوام ، وليس لهم رادع من قانون ، ولا عقوبة تكف عديتهم وتعاديتهم .

ليقل لكم الشيوخ كيف كانت لأمية عالية على الكبير والصغير ، وكيف كان

الأطفال يربون في أماكن مظلمة ممتلئة لا تشرق فيها ولا هواء ، يسمونها المكتاتيب والمدرس ، ثم هم يضربون بالعصي على رؤوسهم وجوههم وظهورهم وأرجلهم بدون شفقة ، وبذلك يتعلمون للخلاص من هذا العذاب الاحتيل والعنف الكاذب ، ثم عودوا فألقوا بعد ذلك نظرة على مدرسا لنزوا كيف أصبح الولد شطيم التعليم ينظام العربيين اليوم ، يعرف من المواد ما لا يكاد يعرفه العالم أمس ، تشهدون كيف اختصرت مراحل التعليم والتهديب ، حتى لرى في شبان اليوم من هم مفخرة بمعارفهم ما رأى أجدادنا أمثالهم في بصمة عصور وأجيال . ولمعري متى كما نسمع بثل هذه المعلومات تجتمع لمتى في الخامسة عشرة من عمره ، ومتى شاهدنا الأولاد يربون في رياض الأطفال هذه النورية العملية الصعبة الدقعة ، ومتى كانت ربات الحجال ، يباغفن في التعليم لرجال .

هن عهدتم لامة العربية قراءا وتكتب بهذه السلاسة والشفقة ، إلا إذا كان في القرن الثالث والرابع ، متى عهدكم لمعكم يكون لها في التمثيل الذي اقتنسته عن العرب في الجلة ، تلك الزوعة في الإلقاء حتى لتطعن أنفسكم وأنتم في إحدى فئات التمثيل أكم رجعتهم إلى عصر الرشيد والمأمون ، تأملوا عدد ما حي من الفصح العربية التي ما كان يعرفها حتى الأدياء ، وأصبحت فصل لمدراس والصحف السيارة أو دور التمثيل ويوت العناء واسطوانات الحكي واذا كانت الراديو في السن الداس وعلى أسلات أقلامهم ومكتوباتهم ، كأنها من المتعارف ، لحكم ولنصف في أحكامها ، متى كانت تحيل ظهور مثل هؤلاء الرجال الذين تسمعون بهم ، وتقرأون أعمالهم في كتبهم ورسائلهم ومصوراتهم ولوحاتهم وخطبهم ، متى عهدتم هذا العدد الدثر من رجال القانون والإدارة والجندي والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والطبيعة والفلك والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والشعر والكتابة والأدب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش ، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم في العربيين ، ولا يفرقون عن التابيين من الرجال عند لأنهم الممدنة ، إلا بفرق مرجع إلى المحيط ، واذا شهدتم في بعضهم فتورا في فهمهم فتقوا بأن فتورهم ينقلب نشاطا إذا رأوا من أمتهم تشييطا .

للعرب على الشرق العربي فضل عظيم في إحياء مدينته وانعته أيضا ، أشأ منذ

القرن الرابع عشر الميلاد مدارس لتعليم العربية في بلاده ، وكلما كان بعض أبنائه يتلقونها ، كانوا يفكرون في اقتناء كتب العرب ، ويتأفسون في ذلك تناسلهم في الاحتفاظ بالآثار التي هي محصول القرن العربي . ولما احترعت الطاعة كانت المخطوطات العربية أول ما طبع في بلاد العرب ، وأول مطبعة أُنشئت في مدينة فو في حون البادقة (بحر الأدريتيك) سنة ١٥١٤ طبع فيها القرآن وكتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وفي مدينة السندقية طبع الإيطاليون كتاب يوسف بن ماسويه في الطب والفلسفة ، ومنعوا الطبع قانون ابن سينا مع كتاب النجاة في رومية وذلك سنة ١٥٩٣ . ومنذ سنة ١٦١٥ بدأ الهولنديون في مدينة ليدن بطبع كتب العرب ، وما زالوا إلى اليوم يطبعون من أمهاتها كل مفيد . وقد أُنشئت فرنسا ونيجترا والماني ونيما وبيسب وروسيا وأميركا وغيرها من الممالك العربية مطابع مهمة طبعت فيها عشرات من كتب العرب القيمة ، ودلو قومهم وغير قومهم على فضل العرب ، وتوهو بحضارتهم ونوع أفرادهم ، كانوا يأتون ذلك والعرب يطلعون في سائرهم غطيطاً غريباً ، تحت ظل خلفاء العثمانيين ودونهم لماركة ؛ وبينما كانت العربية آخذة بالانقراض في مصر والشام والعراق ، دعى سائر الأقطار العربية لأخرى ، كانت أوربا لا تخلو جامعة من جامعاتها منذ القرن السادس عشر من دروس عربية ولا سب جامعات الدنيا وانجترا وهولاندة ثم فرنسا والنمسا وإيطاليا واسبانيا وبولونيا وسويسرا والسويد والبروج وفلندا وروسيا والولايات المتحدة

ولقد جمع الإفرنج في كل دولة صغيرة كانت أم كبيرة خزانة أو خاصة من مائس الكتب العربية المخطوطة ما هو المحبوب المحبوب ، عُمو بها أشد عناية ورتبها ونشروا هارسها ونشروا منها ما طبع حز من كتبها الدينية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والطبية والأدبية والعلمية وغيرها مما لا يقل عن خمسمائة مجلد . ونحن لم نعرف بعد الطبع بالحرف ، مجتريين بطبع لحن السقيم . وفي الامتانة ومصر من المخطوطات العربية وفي خزان الكتب العمومية والخصوصية ، لا يقل عدده عما عند أهل أوربا منها ، ولم يطبع منها غير أمغار قليلة ومنها التافه الذي قصدوا به التجارة لا خدمة العلم كما فعل علماء المشرقيات من القرنين ، وجاء القرن التاسع عشر

وما مثل بالطبع منهم غير بصمة كتب «حمة» . فبفضل الغرب عرف الطبع وعرفنا فصل
أحاديثنا وتعرفنا إلى الطرق في إحياء كتبنا ، ولكن طالبت مدة تعليمنا أكثر من
مائتي سنة ، حتى جعلنا من أنفسنا ، فجزيياهم بعض المحاربة ، ولما تلحق بهم مدد في
تدقيقهم وتحقيقهم .

فللغرب الفصل الأول بإحياء حضرة ، وتعرف عمرها لما كنت عنها في غفلة ،
فهم لقنونا طرق الاستعادة مما أمتته قرع الأسياف ، وأتقته الأيام من تراثهم الثمين .
على نحو ما كان لهم الفصل لأصغر في البحث عن دونهن بلادنا ونش عاديتها
ومصائب القديمة ، وبهم اعتدب إلى معرفة آثار أرض وتاريخها وعظمت المدة ولعلنا
بلادنا القديمة . فلهذا كيف تحتفظ آثار الأئمة والمقولة ، ودرويه على لمبة بتركة
أحاديثنا واحترامها وتقديسها ولولوعها ، وكما فهم من لاهدين .

نحن إذاً قننا العربيين حيواتنا لا تكون إلى المبالغة في شيء ، هم نشروا
أهيات كتبنا ، فتنههم ، العرب وأخذوا يدرسون فيها ، وكل درسوا ودرسوا
وأحكوا من اللغة فصيح في أهيات كتب الأدب مما سبق العرب إلى طبعه ارتقت
ملكات السكانيين والمؤلفين والمدرسين عده ، وكل تطمعت أصول التعليم في المدارس
رد أساليب العربية رمة ، وكل ثقف أساليب العرب لمات العالم الحديث ، سحوا في
لغتهم على أساليب في لأدب والشعر ومثيل والخطبة . ولولا العرب ما نبع فيها
شعرا ، وكتاب وحط ، في العصر الأخير لم يهد لهم بطير في اعتنا منذ المائة الخامسة ،
وقد كاد كتب مصر و شام والعراق ونونس وشعراؤها وخطبؤها بترجعوت إلى
العربية نصرتها القديمة ، وبرروها في أجل حلة عربية . وما تم هذا بغير مدارس
العرب وفصل رجالهم ممن أخذ عنهم وتقديسهم ، وساقبت الميزة إلى الجري على
طرائقهم في النظم والنثر والتأليف وتوضع والبحث ، وكما «ارحسام» في رحلاتنا إلى
بلادهم ومازحوا في نزول بلادنا عرفوا منا ، والبعد جاء ، ما كانوا يجوهوه ، وعرفنا
منهم ما كنا نجهله ، من غيرتهم على العلم والمدينة .

أخذ العربيون عن العرب كل ما معهم يوم مصيبتهم من ضروب المعرفة البشرية

وهم اليوم يُعيدون الياء عن سماحة نص شيئا مما تعلموه من أجدادنا وزادوه بعلمهم وبارقاهم. أزمس وتدول الأيام فلا يثقف ذلك علينا، فهذه سنة المدييات التي درجت عليها أحناس الشر. تقلت على المدينة أيد كثيرة منذ دون تاريخها. واليوم وصلت بفضل أهل العرب إلى هذا المطهر البهر، وغدوا سَدَتْهَا الفخين على ثم في المشرق والمغرب يُعون بوضع أسها في الكمو والسودان والسيعل وجاره، كما وضعت في البديجات وانحلترا وورسا وهولادة. وللمريين السلطان لا أكبر على النمس وعلى السياسة والحرة والعلم. وسظل متورين على الأحذ عنهم، ولا عصمة على المتأحر إذا أخذ عن المتقدم.

ولا يفونا الطر وقد بلغ بما من الكلام في هذا الحد، أن نعرض لما حوته المدينة الغربية من مساوي بعد أن الما بم حلت من عظيم المحسن، وسكل مدينة سيئات تندمج في مطوي الحسنات، وصعب أن يكون الخير تما وشرا تما، وكان علينا أن نقصر على اقتباس الدع وتحمي العار، ونجعل السلطان للعقل لا الهوى النفس. والظاهر أن المدينة وحدة لا تحراً من أحد يحورها لا بد أن يستهدف لشروها طوعاً أو كرهاً، وما هذه السببات الذي أقره غلاء العرب دعاة الحصار الجديدة، ونحن نعلم أنهم يشكون منها شكاً وزيادة.

هجمت علينا المدينة الغربية بأصاف من المكرات والمخدرات كان أجدادنا لا يعرفونها، وعاشوا بدونها قرواً في هباء وراحة، وكان يقتصر من يعرفون أراح سراً، وهم قلائل جداً، على ما نتج البلاء من خمر، وصرره على الجملة أخف من مضار العول الجديدة، وهكذا في عامة المخدرات كاللورين والكوكايين والهروين التي جاءت مع القرن الماضي فاضفت العقول وقتلت الأئس وفتح التوسع في الحرية أبواب المهر والمجور والإسرف على النفس، فاش الفحش يمارس تحت سمع القانون وبصره، فزادت ذلك الأمراض الزهرية، وتعطل التناسل في حض الرجال والنساء، ثم انتشر القمار على اختلاف صورته، ومه لمصدرات وألعاب الصيب، وكان الناس في غار الدهر يقنعون بالرق المحل، بأنهم من أعمالهم الصناعية والزراعية والتجارية لا يعرفون هذه المعمرات التي يردّها العقل والشرع.

و دت الحرية الشخصية بالسلطة الأبوية في بعض البيوت الى الغنور ، فكان في الماضي الإفراط في هذا المعنى وصار اليوم التفریط ، وضعت سلطة الأب على ابيه وابنته فامسمة ، وضعت معها الشفقة والرحمة والكرامة الاقبلا ، واصبح كل أمر يقاس بمقياس الماديات ، ولا يسأل الرجل من أين اكتسب ماله ، اذا اجتمع له مال ، لأن المعسويات لا شأن لها في طهرهم وانما الشأن للمدنيات ، وقصت المديّة على من قبلوه ان يجحدوا ، ويسرعوا ان أمكن قوة الحمار والكهرباء والآثير ، وكان الناس منذ قرن على تودة وتأن وصبر لا تهم في أهل هذا الجيل ، ولذا رأينا التشوّم أكثر من التفتؤل في كل بلد ، والقعدة ولرضى أقل من الشراعة والطامع ، وامسى كل صعلوك يحاول أن يعزى بين عشية وضحاها ، بأي الطرق التي تفتح أمامه ، وكثر حب الظهور بل الجنون فيه ، وتبع ذلك الذخ والتفخل ولا إسراف ، بحيث تعذر التوارن بين المدخل والمخرج ، فكان في ذلك خراب بيوت كانت عامرة لولا التقاليد المصم ، والمصادات المستعدنة وكثرت بذلك السويداء والمايخويا والحل وضف الأعباب وفقر الدم والسل . كانت لردية في لايايم الماضية مقصورة على قصور اموك والأمرأ ، فشارك فيها اليوم أهل الطبقات الثانية والثالثة ، والزاهية تتوقف على كثرة بدل ووفرة دخل ، وكان لمجتمع في اشرق عادت مستحسنة من حال الألفة ، وحس المشرة ، وصحة اهد ولقاء ، وقوة الايمان ومعرفة الجيل ، فمرا هذه المصفت بعض المتور حصوصا في البيئات التي اقتست مدينة العرب بعمرها وبجحرها .

هذه حريدة بما نقمناه عن العرب ، ذكرنا فيها الحسنت وبعضها السيئات ، وورما كان فيها بعض النقص ، عند عنه بحجة لذكره ، أوردنا منها ما أوردناه على سبيل الذكرى ، نصف غيبرا وتنصف منهم .



التنظيم بين المدينتين وأهلها

عرضاً في المحاضرات الأربع السالفة لاختلاط العردين بأعرب في الأندلس وصقلية ، وفي الحروب الصليبية وعهد لاستعمار العربي . وذكرنا ، أنتجته عقول العرب من العلوم والمور فأخذته أور . عنها ، ثم تحدث اليكم فيما قسمه العرب بعد انخراطهم من مدييه العرب الحديثة . والآت سعي هذه السلسلة يبين الفرق بين الحضارتين والمدينين بهما وهو موضوع منتشر الأطراف لا تنسع له عدة محاضرات ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك حله فقول .

لكل مدينة قامت في لأرض روح تعطي به . ذلك لأن المدينة سة عوامل كثيرة ، فاهامل الذي له الشأن الأول في قيامها ، هو البرر فيها لتسلط عليها ، فالمدينتان اليونانية والرومانية تقرب الى المدينت ادية ، ومدينة لروم هي المادنة عنيها ، وفي المدينة اليونانية شيء من المعويات من شعروكمة وعلم . ولمدييه الحديثة روح كلها قيت فيها المادنة في لروح . وجاءت المدينة العربية تنهج طريقاً وسطاً ، فأخذت بقدر كبير من المعويات . ولم تغفل عن الماديات ، فكانت في ذلك معتدلة ، فما كثر الشقاء في أرضها ، ولا فقرطت السعادة . ولعل لا سعد عن الحق كثيراً إذا عرفنا المدينة العربية الحديثة بأنها مدينة مادية والمعويات تابعة لها ، ولمدييه العربية مدينة روحية والماديات تبع لها .

واذا حشنا نحلُّ لمدينة العربية اليوم ، نجد تحت سلطتين ، سلطة الممولين خربة الأموال ، وسلطة أرباب القوة من رجال الجندية ، وكل ما هناك من حساسات تلك الحضارة من علم وصناعة خادم لتبتيك السلطتين ، وهكذا كانت الحال منذ ابشت الشعلة الأولى من النهضة في إيطاليا ، وتمحورت العقول من قيودها ، ولاأسن والقلوب من عقدها والظاهر أن مدينة العرب منذ تخصصت من سلطة الدينيين زهرت

وأثرت ، ومدينة العرب منذ ضعف جوهر الدين في موسى القائلين بها ، ووقعت في سلطة لزعماء على الدين ترجعت وتضائلت . أي إن البوابات لما كانوا المتحكمين بمعظم أهل العرب كانت المدنية هناك على حالة ابتدائية ، يصعب أن تسير إلى الأمام ، فقام الإصلاح الديني ونزلت الكنيسة عن تسلطها على كل شيء ، ورأى الناس عاقبة التذرع على الدين ، وأصبوا به من السكات ظهرت تشييد المدنية ناجية من تلك القيود الثقيلة .

أما في الشرق فإن المدنية العربية قامت بروح لدين أولا ، وكانت سلطة رجال الدين ضئيلة لا تنهض دثرة معينة ، لأن الرياسة الروحية مفقودة في الإسلام ، خلافاً للسلطة النصرانية في القرون الوسطى ، فإنها كانت مطة مرتبة ، وله السلطان كل السلطان على أرواح المؤمنين ، تدبرهم في عامة شؤون الحياة ، وتسيطر على الدقيق والجليل من حركاتهم وسكنهم . وكان الكنيسة كانت حاكمه وملكه والملوك همها ، يفقدون أمرهم ويأثمرون برئيسها ، فترتحت تلك القوة خاصية المدنية من المؤثرات التي طأ أعينها . والأمر عند العرب على خلاف ذلك من بعض النواحي ، ويشهد الناطق في تاريخ العرب أن الكنيسة لم تكن لها من الدور والصور في كل أدوارها ، ولم تمتنع به من السطوة على العوس ، فحفظ لها طريق سلامتها في الأرض والسما ، فقد خدمت لمدينة بعض الشيء على عهد نوع من مؤسساتها ، حتى إذا استمتع الملوك بحرياتهم تناولوا أعمال المدنية خدموها رما ، فالمدينة بعثت من الكنيسة أولا ، ثم وصلت إلى الملوك ، وجاءت الشعوب بعد ذلك تأخذ بطرائقها ، فقم المدينة ما يتوقف عليه إنهم ضما . فما في الأقطار التي حقق عليها علم العرب ، وامتدوها بروحهم وتعليمهم ، فكانت المدينة يرعاها الرعاة والرعايا معاً منذ خلقت ، يعمل العلماء فلا يتنازعهم عقلاء الملوك ، ويحمونهم من اعتداء المنصنين ، ويرعونهم كل الرعايا ، و يولونهم صنوف السكامة . فما عرفت في لإسلام طبقات ولا امتيازات ، ولا دعا إلى التسلط على نحو ما دعت الكنيسة قبل عهد الإصلاح . وكان السلطان الأول في الدول العربية لثنتين ، للدولة من الملوك والأمراء فقط .

ومن أجل ما كان في المدينة العربية نمحي روح التسامح فيها ، مع من كان

يدين بغير دين الدولة القائمة . ورأى المدينة العربية لا تحتل إلى عهد قريب طائفة
مخالف رأيها ، فقتلت من بينها وغيرهم خلائق لا يأخذهم العد في معظم أدوارها ، حتى
أدخلتهم طوعاً أو كرهاً في دين السواد الأعظم . وما رضى المريون حتى بعد عصر
النهضة من بلد رُقع عنه عَلم العرب إلا أن ينصر أهلها ، على نحو ما فعلوا في الأندلس
وصقلية وجربة أفریطش وغيرها ، وما عهد للعرب مثل هذا الشطط . وإذا أحسا
العل في تعليل عمل العرب قول إن المربين في سيرتهم هذه دلونا على شدة عراهم
بالنظام والتوحيد ، فهم لا يرتاحون للشذوذ في قووس الجماعة ، ولا يهيناً لهم بل إلا
إذا عهدهم معاهدوم على المطلق من الطاعة .

ومن غريب أمر الغرب في تعايه بالنظام أن الكيكة قصت على الزهاد
والرهبات أن يتروا العمة لا يتزوجون ، ليقطعوا إلى ما هم بسبيله من للدرس
والعبادة والدعوة إلى دينهم . مع أن النصرانية لم تحرم في أصها زواج الدينيين .
ومست القرون الثلاثة الأولى عيباً ورجلاً الدين وبها يولدون ، ولكن حب النظام
دعا إلى أن حرموا مثل أنوف من النشر التسلل ، وبالخطر على خدمة الدين
دأب أمرة حرقوا عن الطبيعة لاسية ، وماضوا عم بجر ذلك من الكثر
والمكرات أحياناً ، على أن كلاً من البرنستية والأرثوذكسية قصت على رعاتها
بالزواج وما تخلخل نظامها .

أسكر مص الشعوب من أعداء العرب فصل المدينة العربية على العالم في زمن
العصبيات القومية . أسكروا ذلك نصف سلطان العرب في لأرض ، وسحروا ما
يقول به مصفون منهم متى عُد ما أورثه العرب للإنسانية ، ورمعوا المدينة العربية
هي المدينة ، وما عداها خطوط غير مرسومة على ما يجب ، وهي حكم جار لا إقراً
تمرح حرب تحون « وإن كان ثمة ما يسمى مدينة فهي مدينة المروعة ولاشوريين
والبيديين واليونانيين ولروميين ، ذلك لأن المدينة العربية لم تشأ قيم تماثيل ولا
نُصب ، ولم تنبت لها كمادة عظيمة في النقش والتصوير ، وهم على شيء من الحق في
دعواهم ، ذلك لأن العرب لم يولعوا كثيراً بالمحوسات ، وليس في حضارتهم من
هذه ما يمتد به كثير بقياس مثلاً إلى ما خلقه الرومان . وذهب العرص بمعصمهم إلى

أن قولوا إن المدينة العربية لم تأت بغير الضرر مع أن الغرب لم يعرف الرومان واليونان أيضاً إلا من طريق العرب : كلام من يعتز بالقوة القاهرة ، ويحكم بالطواهر ، ويعتبه الهوى الجنسي والنزعات السياسية . فما دم القاتل لم يحس بالمدينة العربية ولم ترها عينه ، فهي إذاً غير موجودة ولا وجدت ! ومن يقول هذا من العبث أن تناقشه لنفتمه .

العرب لم يخفوا آثاراً عظيمة كأهرام المراعسة ، ولا فلاعاً وطرقاً وهياكل من النوع الذي خلفه الرومان ، ذلك لأن شريعهم خطرت السخرة ، وما أباحت إشفاء إنسان لسعادة غيره ، والرقيق الذي قام بيده معظم ما تراء من مصاع الأمم البائدة ، كان يعمل في الإسلام معاملة الحر برحمة وشفقة ، حتى كاد ادولى بعد من أهل البيت الذي استرقه ، ودولة العرب لم تطل أيامها كما طالت أيام الفراعسة والعلقة وعاء وثمود ويونان . ولو عرف البقود هه ، وقدروا لأمر في موزين القسط ، لما وسعهم إلا الإعجاب بما تم في زمن قبيل من نهضة العرب . ومن لا يقيس الأمور بما يقيس الماديات لا يتخرج من الاعتراف بأن العرب نجحوا في كل التحدي عن إرهق أحد . فسكات مدينتهم شمعية ديمقراطية ، بعيدة ما أمكن عن مراع رعاست الارستقراطية . وكان من نتيج تهذيب ، ومنها إكراه الأتعباء على إحراج زكاة أموالهم الفقراء ، إذا لم ينزلوا عن حره منها برضاهم ، أن لم يبعد في العرب إشركية ولا فوضوية ولا عدمية . ولا ممولوب كمولي العرب يعملون الحرب ويعقدون المصالح ، ولا حنكرات كاحتكرات الغرب في الصنائع والتجارة ، ولا هذا الشقاء الذي عم رطم ، وهلاك الحرث والنسل . وقصارة إفتقر سمات ومعه فرد .

وما كان من جمع الثروة في أيدي أفراد بعض العائسة للحصارة ، ولحصارة العنة الثروة والعلى ، لأن من أهلها من يسون القصور والمصانع الجميلة ، وقد يفصل بعضهم على الأعمال العامة ، ولكن هل يوري بأثرى قتل ألوف من النفوس لإحياء نفس واحدة ، وهل من العدل الطبيعي أن أسمن وأنخم ويهزل مئات ويجموعوا ، وأنب أستوفي حظي من السعادة وأسب الهدى ، ويشقى لأحلي من وراء جداري كل الشقاء . تعاليم العرب بعيدة عن هذه الهبات ، وإن شدة عنها بعض الأنغار من أصحاب السلطان في بعض العصور ، إغندراً لهم من القوة والجبروت . فمجموع

تاريخ الإسلام كان صورة أخرى . ومعظم المصانع العربية قام بأموال الدول ، أو بأيدي زعمائها وأصحاب الخير من الناس ، وفيها مسحة الفردية .

المدية العربية ما فرقت منذ كانت بين لأحناس والمعاصر ، فكان كل من يدخل في الإسلام ، أو يهد أهله ويخلص لهم من أهل الملل لأخرى موقور الكرامة في الدولة . ذلك هدي الدين وليس في وسع القديس . لأمر أن يتعدوا حدوده ، بل كانت مرونتهم في تطبيق النبل على العقل أبد ، ومن حاول أن يخرج عن هذا الحد هلك فيما كان يتوهم فيه الحاة . قام في ذهن حلال الدين محمد ، كبر سلطان الملوك في الهند وأعظم ملوك القرن الخامس عشر أن يوحد الأديان والاحناس ، فجمع لذلك مؤتمراً انتهى باسباب والشتائم بين المؤرخين ، وونه أنه يحاول إخراج الناس عن طائفتهم ، وعن نظم الحرية الشخصية ، وأعظم ما يستमित لهم في حبه دينه ولسانه ، ومن المتندر أن يمتنهما الإنسان إلا مدفع لا يقل له بدونه ، و بورع ضي شاذ ولا قيس على الشدود .

حاول كبر ، دخل المتديد في الهند ونمي على دوع فيه أن للإسلام مع ما بلغ من سلطانه . لم يكره أحداً على شحله . وأجمع أرب العقول أن من السعف قرص الأديان على الدس . ورأيا مض دعاة لمدية لحدثة يوعون الأسايب للإدخال الناس في معتقدهم بطريقة من طرق الدعوة ، ونما فلقوا على كثرة ما بدلوا وحدوا . وهذه إسبابا حكمت الملبين ثمانية سنة ، وما تركت في قوس الجهد منزعا نزع حرج المسلمين عن عقيدتهم ، أغلقت حوامعهم ، وحطرت حنايتهم ، وشردت زعماءهم ، ولما استولت الولايات المتحدة لأميركية على تلك الجزر سهلت للمسلمين من أهاليها جميع طرق للإرتقاء ، وأنتمهم بمن عليهم أصول دينهم ، فارتقوا في ضاها في ثلاثين عاماً رقياً ما عرفته أمة آرية يصعد في مئة سنة . والمالب أن لطبعة المعصر الإسباني والمعصر لأميركي دحلاً كبيراً في ذلك التحكم البارد ، وهذه الحرية المطلقة .

ما قامت دولة العرب بروح القومية ، ونمة القوميات جديدة رددت صدها الأرحاء القرية في القرن الماضي . قتلفت الأمم بحسب ما أوتأت من أنظمة وضعت لها . وعلى ما كان في الدعوة لى القوميات من المنافسة المحمودة بين البلاد كان منها

أن أدت أيضاً إلى أن يكره أهل كل لسان أهل اللسان الآخر ، ودينهم واحد وكتابتهم واحد فالأم الانجلوسكسونية تبعض الشعوب اللاتينية ، والشعوب الجرمانية تكره الصقلية ، واللاتينية تمقد على الجرمانية والسكسونية . وهكذا رأينا في عصرنا ، أثر هذه الكراهة نادياً على ما لم يعرف البشر أقطع منه ، وه قد انقضت الخس عشرة سنة الأخيرة ، وأم الأرض تمحول أن تنحو من عوئل الحرب التي أوقدوا نارها ، فلا يجدون إلى ذلك مخرجاً ، وثبت للأم أن مادتها من الدواهي هو من نتائج الأوهام التي تتخيلها الدول الكبرى من لا يستدرجهم الأرض كلها ، وأن لمعريات التي كان بعض من لا يهمهم إلا الطفر ، ولو هلاك ربع البشر ، كانت قانوناً جارياً لا توافق الطبيعة على تطبيق مفصله . وعجيب بعد هذا حال من يعدون السعادة كل السعادة الفوز برضى مجاس النواب ، والذهاب بأمداج الصحف وصمحات التاريخ ، وعجيب في هذه المدينة الحديثة أن تتحمل لأعداء للقتلة وتقدس السككين ، وإذا نصبح لهم أصبح من أهلهم عدوه عراً جاهلاً ، ونشأ العوام عيسه فقتوه وشردوه ، أو قتلوه ، لأنه قال الحق ولم يرل قائله من الممقوتين .

وضع الرئيس ويلسون مواده المشهورة فزيعه بعض أرباب لأهواء من العريبيين ، وقالوا به كلام أستاذ في جمعه شيء إن تعجبه بطريقة عبر عملية ، وبعد مدة طهر أن الحق كان في جابه ، ولكن العمل بالحق في هذه المدينة من الأمور الصعبة . ويلسون الذي تشع بقعدة بلاده الذهبية أميركا بالاميركيين . لا يرى لسعادة للمدينة ولا أساسية إلا أن يعلق رمره في كل مكان ، يريد لهد اليهود ومصر المصريين وتونس للتونسيين ، هو يقول دارجة فوق العدل ، وعسى أن لا يكون عقل أهل القرن العشرين في هذا معنى أحط من عقل العرب في القرن السابع .

نحن لا نرى رأي من يقول من العريبيين اليوم إن العرب لأن في دور سقوطه ولم يبق أمل في نهوضه ، وإن أهل الطبقة الوسطى قد اضمحلوا ، وإن العرب اعتر بأن نجاحه أندي مصمون التنج ، وأخرج الناس من عمل الأرض وأنشأ طبقت من الفقر . كانت الآلة داعي شفتها ، وأن المجتمع الحديث حاول أن يتناع كل شيء . انتاع الصحافة والأفكار والنساء والروحانية ، وما استطاع أن يشتري روح الأشياء .

ولذلك يعود الغرب الى المحمية ، ويدخل في دور يشه القرون الوسطى بل أحط منه ، وكان ذلك الدور يتصل هذا بذاجته وحيل فطرته . نعم نحن لا نشايح القائلين بذلك ، ونعوذ هذه المدينة أن تصيبها ناقة تأتي على الشرق والغرب معاً . وهذا القرن على ما فيه من الشرور والنآثم يعيش الناس فيه عيشاً طيباً لم يكتب في الدهر السالف مثله حتى لكبر الزعماء والملوك ، وبين الطبقة الوسطى اليوم أضعف حالاً وأهمل عيشاً من علماء أمس ، يتمتع وينشط بما لم يمهده مثله في الدهر العابر .

يقول كاتب الدهر آتول فرانس : إن الواجب أن لا تثب هذه الحصاره ومن يحسّر أن يفعل ذلك ، ما انا فاحب النور حتى ميعرق منه . أساءه وثان الظن به في الاحيال القادمة ، وما ظلمهم كثيراً فيما أحسب ، فقد كان يعتقد أن الحول يقتوي العالم على صورة مطردة هائلة . ون آخره مدينا ربح انتهت بالجملة . ولعله كان يبالغ ، وأنا أيضاً أحمل ضي على المدلعة ، ولن نعدم برهاناً لاثبات هذا القياس المفاق . ولمعري هل المدنية المادية غير سهولة كل شيء ، ولتهد لكل شيء ، وقلة الجهد ، وقد الشخصيات . إن الآلات تعمل عملها ، لا تحمل ما فيها من ضرر ، ونحن لسنا بأمن من شرسحتها لنا . وسيتحلى لملاسه لأحبال المقبلة ، أن الحصاره في القرن التاسع عشر ، وهي ميكانيكية وعمية ، قد أدخلت البلاده على عقول الناس ، وانزلت المستوى العقلي حتى ابتذل . وعلى قدر ما تنعم بالصحافة والكهرباء تحلينا عن الدرس . ونحن نهمل درس العلوم الأدبية ، ونعني كل العناية بصنع آلات أكثر من عايشنا بتريه نفوس ، والجرائم الصاوة تربى في أرضنا على عبة من السهولة . وفي الزمن العابر كانت بدور الجرائم تنمو في بعض النفوس الحاملة على خفاء ، أما الآن فتتمو وتلوث جميع الرؤوس التي لعت الرذيلة . ففساد السياسيين ، وفصائح المصارفين ، ومفاخر السارقين ، وجمل جرائم المجرمين . كل أولئك يطير ويسير ويفسد النفوس بإسراع الصاعقة ، أريد أن أقول بسرعة البرق أي على معدل ثلثائة ألف كيلومتر في الثانية .

ثم ذكر فصيح الصحافة وسعيها أبدأ لا إسقاط كل صاحب مكانة لتصحك قراءها ، وتعلمهم ثلم الأعراض ، وكشف كل ستر . وقال إن القصة هي أول ما يتحلى

في المجتمع الحديث ، والثاني إحتقار الثقافة الخفة التي امتنع عنها بطلاء أولي سطحي مستعار . وكان الناس قبل هذه المخترعات العكسرى يتفوضون قليلاً ، ويوحرون فيقتصرون في تاحيهم على إيراد الأمور الجوهرية . وكان الناس طبقين عماء وجهلاء . أما الآن فقد قربت المساوف ، وتعبّد كل صعب ، وسهل كل أمر ، وأخذ كل واحد يتحف صاحبه بما عنده من الناصات واللاهات ، يتكلمان في كل شيء ولا يحفلان شيئاً من الأشياء . وكيف معجب بمدنيتهما وهي تنقد الروح ولا معبود فبه ولا هدف لها ، وليس فيها حقيقة جوهرية واحدة تريد على ما كانت في الحصرات السالفة . نحن مقلون في كتبة من الحيل والمرور على مستقل فيه فحة . وفيه نامة ، وفيه سفاهة . ولعله لا يتخلو من بلاهة وعبادة . كان فلاسليون يرى أن العالم ينتهي أمره ببرودة سطح لأرض . ومن رأي سولي برودوم أنه سيصمحل بالإعراط في الشهور ، وأنا أرى أن الترهت المبعثة عن الجهالة والعورر تغطي الور الأوربي على محو ما أطلعت الأنوار القديمة له .



قارن علماء هذ العصرين المدنية العربية وغيره . ومن أقرب لآراء التي رأبها إلى الاعتدال رأى العلامة حوسف لوبور قل إنه كانت للعرب صفات ومساوي . عطية حداء واستمداد عظمي عال ، فهم أحط من الرومان بأوضاعهم السياسية والإجتماعية وعلى منهم كمعاً في تساع معارفهم في العلم والصناعة . وقد أحرزوا في الجملة مقاماً عالياً في التاريخ ، ولم يظهر لرومان كدة في الصناعات والعلوم . وكان اليونان سادتهم في عامة الشؤون العقية ومع هذا فقد استمد لآولون لآخرين . ولحكم على القيمة العقية في أمة ، وعلى ارتقائها في سلم لمدينة مقرون ، أحرحت من الرجال . فإذا جمعت إلى تفوقها العقلي عدداً غير قليل من أسنها الداعين ، وكان سوادهم الأعظم مؤمناً من أفردهم وسط في ذكائهم ونعمهم ، وتصفوا بأحلاق عالية كان في ذلك رفعتها . ولقد جاء رجال ممتازون من العرب ، وما وقفوا اليه من الاعمال ، وكشفوه من الحقائق العلمية دليل على مكانتهم . ولكن العرب لم يرزقوا فيما أحسب رجالاً من عيار نيوتن ولينز الذين قلنا العالم بما كشفاه . فالعرب إذاً أحط من اليونان

في كثير من المسائل ، مساوون ولا شك الرومان بذكائهم . وإذا قست العرب بالشعوب الأوروبية الحديثة أمكنك أن تقول إنهم من حيث العقل ولأخلاق أسمى مكانة من كل الأمم التي عشت قبل عصر النهضة ، وقد فاقوا بأخلاقهم أجدادنا كثيراً . قال ذهبت ريح العرب قبل عصر النهضة في العرب - أي قبل القرن الخامس عشر - ولا يتيسر لـ الحكم الآن عما يكون من أمرهم ذات يوم لو كتب لهم البقاء . ولا نعتقد أنه كان في وسعهم أن يتحاوروا المستوى الذي بلغوه ، فإن تخطيط أوضاعهم كان يحدث لهم مشا كل صعبة ، ومن الخيف أن يقابل بين المصور الحديثة ، والعصور التي اضمحل فيها سلطان العرب . وإذا كان لا مناص من هذا التطير ، فلنا أن تقول إن الرجال المتأثرين عند العرب كانوا أخط من الرجال الذين يقبلونهم من أهل العصر الحاضر . ولكن لأفراد المتوسطين فيهم ساووا وربما فاقوا أهل الطبقة الوسطى في الشعوب المتقدمة اليوم . ولوررق العرب بل الصينيون والهنود اليوم طبقة متأخرة من الرجال بالنظر لما عدهم من الطبقة المتوسطة الصالحة لصاها ، لأنهم وافقوا وحفوفهم في تمثل هذه المدينة الحديثة .

وقال العلامة دوزي : إن العرب ترجموا كثيراً من كتب الأقدمين وعلقوا عليها شروحات عنت بأعم لم بعض فروعها ، واتسع نطاقها باستدراكهم الدالة عية الدقة ووضوح ، ولكنهم لم يخترعوا شيئاً ، ولا بد من لهم بأدنى فكر عال أو واسع . وهكذا فإن ييسا وبينهم اختلافات أصلية ، وربما كانت أخلاقيهم أسمى من أخلاق ، وهو منهم أكبر من نفوسا . وهم أكثر ميلاً إلى العصمة الإيساية ، لكنهم لا يحملون بدور النهضة وللمح ، ومع ما هم عليه من الولوع بالاستقلال الشخصي ، يظهر أنهم ، على ما اطووا عليه من الأفكار السلبية ، غير قادرين على الخصوع لغويين المجتمعات .

وقول لويزون إن العرب لم يطر فيهم مثل يونن وليينز للذين قبا العالم في مدياته ، لا يصح فيما نرى على إطلاقه ، فقد ظهر فيهم عده عيروا بأخلاقهم صورة المسادة ، وأحسنوا الإتباع بها في مسائل كثيرة ، ولكن أولئك العلماء لم يوفقوا أن يتقوا أعماطهم كلها ، وما كتب لهم أن يسير من بعدهم على كرامهم . بلادب من الانحطاط في

الدول العربية . أما من ذكرهم لوبون عن قتلوا في العهد الحديث صورة العالم بما اندعوا ، فقد تجسدت فيهم حكمة القدماء ، وورثوا علومهم كلها ، واحتدوا بتحريرهم ، ورادوا عليها أموراً هيبتها لمن لهم ، فكان منهم ما كان . وقول دوزي ، إن العرب لا يدين للعرب بأدنى فكر عدل ، مردود عليه . لأن العرب كما نال كثير من الباحثين من الأمبركان والإنجليز ولألمن والفرنسيين هم الذين مدنوا أوربا بأن نقلوا اليها أنوار الأقدمين . وما أضفوه من مخترعاتهم وتبحرهم . ولا محل للعلماء فيها سنبطوه وخدموه المجتمع الإنساني . أما قوله إن العرب كانوا غير قادرين على الخسوع لقوانين المجتمعات هذا صحيح في الجملة . ذلك لأن إرطاط العرب في حب الحرية جعلهم على التحدي عن الخسوع للعدو ، وإحسانهم في عزة النفس دعاهم إلى الخروج على الجماعة ، فعادوا مدحجين لي ما كانوا عليه في الحولية لا يثرون بأمر ، ولا يذعنون إلا لسلطان شهوراتهم . فكان ذلك علة العال في ذهب سلطانهم .

عرضت للعرب عور من عرض مثلاً بلأثم التي أخطأ بتاريخها فاهم وعدم ، فقد امتزجوا بعربهم من الشعوب مترجماً كثيراً قوى فيهم نواحي وضعف أخرى . هن أنحاء الضعف أنهم حاطوا دهم بدماء غريبة ، ودخلوا فيه ما لو تصونوا عنه لظلم أرسح قدماً وأسلم دماً . دخل فيهم الترك والفرس ولهم وغيرهم كما دخل في دم الترك النمايين بعد دم السجاسكي والبولوني والبديقي والرومي واروسي والمجري . فولد لهم جنس حيل للملاح والسعدت ، ولكنه أخرجه عن عنصرهم فكان من ذلك التحلل أمرهم .

وهم قال القائلون إن العرب لا يدين للعرب بفكر عدل ولم يخرج منهم أمثال بيوت وليسنزين العرب هدوا أوربا إلى العالم اللاتيني واليوناني . وعاشت الجماعات الأوربية ستمائة سنة من مترجمات كتبهم . وحررت على أساليبهم في البحث . فقد قال لوبون أيضاً : إن لمدينة العربية من أدهش ما عرف التاريخ . وإن المرء كلما تعمق في دراستها فجلت له أمور جديدة . واتسعت الآفاق أمامه ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأثم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأنهم هم الذين أتوا أوربا

ما أتوه به من مدية أمعتها في المدينت والمقليات والأحلاق ، ومعنى درس المرء أعمال العرب العلية وما كشفوه ، ثبت له أنه ما من أمة أمتحت مثل ما أمتحوه في هذه المدة القصيرة التي كتب لمكهم قصاصها . وقد يكون من الأوربيين مستعمرون ماهررون ، ولكن منذ عهد رومية كان لمسلمون من الشعوب الوجيهة التي حلت علم الحضارة حقيقه . وهم الذين روي وحدهم بشر المواد الجوهرية من المديية ، وأعي بها للدين والأوضاع والصنائع ، بين طهرى عناصر جديدة من غير عصرهم . قل وذ طر المرء في صلتهم ووطنهم لا يسمع إلا لاعتراق بأنه كانت لهم مبرة خاصة لم تباعها أمة ، وإن كان تأثير العرب في العرب سطحاً ، فإن تأثيرهم في الشرق أعظم . وما من عصر أثر تأثيره قط . فإن الشعوب التي دامت لها الأرض كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عمت القرون آثاره ، ولم يخلفو سوى كثر صنيعة بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وأسننتهم ووطنهم ، وقد انحل أمر العرب أيضاً ، ولكن نظم عناصر مدينتهم وهي الدين واللسان والصنائع لا يزال حيا . وقل إن العرب أول من علم أنه لم كيف تنفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

وقال العلامة فبري كان الإسلام وما برح للدين الذي فوقه نرادين العالم شورى وديمقراطية ، وكان مصدر الحرية وينمو العدل والمساواة ، وإن كان العالم قد شهد حقاً منذ أول عهد العمران الشرقي إلى اليوم حكومة سورية دستورية ، فهي امري حكومة الخفاء لراشدين وفول توبرحر : ووت المديية العربية في روج إمبراطورية للإسلام مديية رومية القديمة في حيوتها وتنوعها ، وكانت لخصارة الأندلس مركز يشه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة . وقال دوس . إن المديية الأوروبية بل المديية العربية كلها مديية لمسلمين بثمرات حكمة الأقدمين ، وإن فتوحات العرب في إمبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر لتعد إحدى عجائب التاريخ . ومن المدهش أن يصبح العرب - وكانوا أول أمرهم على الفطرة - عصرراً فتحاً ويمسوا سادة نصف العالم في مئة سنة ، ومن أشد المعجب حماسهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة في تحصيل المعلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة

لعظمتهم حتى بلغوا مستوى عالياً في مئة عام ، ينظرى لحرمانيين لم فتحوا
الإمبراطورية الرومانية قصوا ألف سنة قبل أن يقصوا على التوحش ، وينهضوا
لأحياء العلوم . وفان غوتيه : إن محصول المدنية العربية في العلم على اختلاف أنواعه ،
يفوق محصول المدنية اليونانية كثيراً ، ذلك لأن العلم العربي كانت له أصول
قديمة ، ثم في الفنون والآداب فإن دائرة اليونان أوسع من دائرة العرب بكثير .
ومما لا شك فيه أن حضارة المدنية العربية ثابته لا ينكرها إلا ذو غرض متعصب ،
وإذا كان فيه بعض نقص فاقوت له بسمح العرب ، لافيه ، أو لاأخذ به لي مستوى
أرق منه ، ووضع الأساس في كل بلد متعصب من نفسه وتربيته . وهل يعقل أن
تحتق المدنية كاملة من أول يوم ، وهي تحتاج الى أن تعمل في تشييدها عقول كثيرة
وأحبال محتالة ، حتى تبلغ درجات الكمال . ومختصرات أورده ومكتشفاتها في القرنين
الأخيرين تشهد بذلك ، رأيت نمواً كثيرة شركت فيها حتى صعب في بعضها أن
تسبب يد الواضع لأول . وشهد القرنين اللذين سبقت القرن التاسع عشر والقرن
العشرين كأنهما كانا مهديين لم يسبق به من المعجزات في العلم والصناع .

وإذا حدث استمقي لويل أيضاً في سر هذه المدنية العربية ، أجب إن اعتبار
العرب لحروب والغارات في الجاهلية كان منه قيام أمرهم في الإسلام ، وبعد أن كان
بأسهم بينهم ، وحمو عاراتهم نحو لأجانب فكان في ذلك قوام أمرهم . ودلم يبق
أمامهم أعداء يقاوتونهم ، عادوا ينة تون وأدى ذلك الى تخطيطهم . وأنهم العوامل في
امتداد حكمهم ، اجتماع كلمة فيهم لمختلفة تحت علم واحد . وهو علم الإسلام ، فوجه
هذا توسعهم الى هدف سام أورشهم حاسة ، فكأوا أبدأ على استعداد للمساعدة
بأسهم في سبيله . وكان هذا الهدف ديبكاً مرفقاً ، ودولة العرب قامت على هذا
الأساس . وكانت الدولة لوحيدة الكبرى القائمة اسم الدين ، وانه انبعثت سياستها
وحايتها الاجتماعية . وساعد العرب على فتوحهم كون العالم القديم كان يهوي إلى
السقوط ، فكان حربيكاً بأمة متوحدة المقاصد والممارع أن تمنح البلاد وتسبقها . وما
ضعف نشاطهم في هذه السبل ، بل تعلموا في مدرسة معلوهم ، ولما ساورهم في
الجندية وهون اقتال كان يحجمهم مضموناً . وقد كنت ترى كل حدي في الجيش

العربي على استعداد لبذل روحه لإنجاح المقصد الذي يقاتل لأجله ، على حين كان كل إخلاص وحماة وعقيدة قد استحل من فوس اليونان مذر من بعيد . وما كانت انتصارات العرب لتعني أبصارهم لأول نشيئهم ، وتحملهم على الإفراط المألوف عند الفاتحين في المدة ، ولا اشتدوا في إرهاب الملوين ، ولا فرضوا عليهم بالقوة دينهم الجديد الذي كانوا يودون به في قطار العالم ، ولو فعلوا ذلك لأهوجوا عليهم جميع الشعوب التي لم تخص لهم ، وتقو ، حتى الثقة هذه التهمكة التي لم يفتح منها المصلييون عددا دحوا الشام في القرون اللاحقة .

قال ولقد أدرك الخلفاء الأول معقريتهم الباسية النادرة في اتباع معتقد جديد ، أن الأوضاع والأديان لا تعرض على الناس مغوة ، بل ريبهم حيث دحوا في الشام ومصر وسببا يعاملون الشعوب بمنهي لرفق . تارصكين لهم أنظمتهم وأوضاعهم ومعتقداتهم ، غير ضاربين عليهم في مقاة السلام الذي ضموه لهم إلا حزية صئيلة ، وكانت على لأعل قل من الصرائب التي كان عليهم أدائها من قبل ، وما عرفت الشعوب فتحا ببع هذا القدر من المساحة ، ولا دينا حوى في مطاويه هذه الرقة والاطف . وكانت هذه المساحة وهذا لطف اللذان تجاهلها المؤرخون ، من بعض العوامل التي هيأت سرعة انتشار فتوح العرب ، وأعظم سبب دعا الى قول دينهم وأوضاعهم ولسانهم . ونحن ندرك كيف تأصلت هذه العوامل الثلاثة بين طوارئي الشعوب التي رحبت بمقدمهم ، وأما قاومت بعدد جميع العارات ، ووقت العرب من آدت لاصمحلال ، وما نم من هذا القليل في مصر من أعظم ما يسترعي النظر . فقد حكم الفرس واليونان ولرومان وادي النيل ولم يوفقوا الى أن يقلوا المدينة الفرعونية القديمة ، وأن يستبضوا عنها بحصارتهم (أما العرب فكان شأنهم في مصر غير هذا أعربوها وأسلموها) وهناك عوامل أخرى غير مساحة العرب ولطف حكمهم صممت لهم النجاح في بث دينهم وما تفرع من أوضاعه ، وكانت هذه الأوضاع على غاية السذجة في أهل الطبقات المتوسطة من الشعوب الملوية ، وإذا حدث أن هذه الأوضاع لم تلتئم مع تلك الجماعات كان العرب يعمدون الى تعديلها بحسب الحال .

وهكذا كانت الأوضاع الإسلامية في الهند وفارس وبلاد العرب وإفريقية البربرية ومصر تختلف كل الاختلاف وكتابتها واحد وهو القرآن ، اهـ .

وقد أرحم نوبون بمخطاط العرب الى اختلاف العاصر الخاصة لهم ، واختلاط دماغهم قل : ولعلنا كان هذا التمازج بين شعوب مختلفة في مملكة واحدة من عوامل الانحلال العمالة . وبعلمنا التاريخ أن من المتعذر استبقاء عناصر مختلفة في يد واحدة إلا إيد روعي في ذلك شرطان أساسيين ، أحدهما أن تكون سلطة الفتح قوية الى العاية ، بحيث يوقن كل إنسان أن كل مقاومة باطلة ، والثاني أن لا يختلط الغالب بالمغلوب ولا يمتزج فيه ، وهذا الشرط الذي لم يحققه العرب بتاتاً وكذلك كان شأن الرومان ، ومن المتعذر حياة شعوب مختلفة قانون واحد إذا تسيروا في المصالح ولا جاس ، ولا يتقوى صطهم إلا بصمط شديد ، وما قامت العرب بمثل هذا الصمط مع العناصر المختلفة التي خصمت لهم . وقل في معنى اختلاط دم الفسائحين بدمهم : زعموا أن مستقبل الحلابيين والمحب ، وقد يكون ذلك ، يداني لا أرحو تحقيقه لشعوب تريد أن تحتفظ بمساواتها في العلم .



آن لما بعد أن عرضنا في الجملة لتصوير لمدينة العربية والتظير يتم . وبين غيرها من المدنات ، ولأموال التي وهنت بها دولة العرب ودحم الحرم ، أن نذكر طرفاً من الفروق بين أهل المدينتين . إنهما أتحبنا بمدينة العرب القديمة ومدينة العرب الحديثة ، فأحسنا غير قليل من يعملون اليوم لمدينتهم من المرييين ، والفوارق بين الشرق والغرب في هذا المعنى محسوسة ، ومنها ما يعمل بالهوى والبينة ، ومنها ما يعمل بالطواري . لاجتماعية القاهرة ، في العرب ذووب دم قروياً مطرد الأثر بالأحمر ، ونظام نافذ لا يرحم من لا يعمل ، ولا يبقى على جاهل ولا ضعيف . فكان قاعدة الانتخاب الطبيعي أخذت في العرب حكماً ، فأفتت على القوي ، وسدت أكثر الضعيف ، وفي الشرق لانت الطبيعة وما قست ، فعاش الضعيف والأصعب ، والقوي والأقوى .

قالوا إن المدينة به البلاد الباردة . ولكن العرب جاءوا من جربة محرقة

فأنشأوا أيضاً هذه لدية الفتنة على أيدي من نبهوا فيها من أهل الطبقة المختارة ،
وتآلفوا كلهم بروح الجماعة على نحو ما نرى في العرب اليوم فناء لأفراد في المجموع ،
إذا هلك الفرد لا يكاد يشعر به ، لأن من بعده يأتي فيحاول عمله فيتمه ، والعرب
كما قال أحد الديهين هو المتسلط على الطبيعة بالعمل ، والشرق هو استثمار الإنسان
للإنسان . وبعين العرب أيضاً يستثمر الإنسان للإنسان أما نساؤه على الطبيعة فهذا
حق صراح .

امتار العربي تسلسل الفكر والتبصر في مصادر الأمور وهو ردها ، والأخذ من
تجارب غيره والإشباع بكل ما يرمى ويسمع ، وقصا يخرج عن نفسه وسيمد له مهما
كلمه الحال ، لأنه يعرف أن النجاح في الاحتصاص أو لاختصاص ، وهذا من أعظم
أسرار نوعه في صنعه وعلومه ، وعرف العربي بمحافظته على القوانين براعيتها على كل
حال ، حتى صار ذلك طبيعة له وعادة ، وخلافها مكر مستهجن . وجميع ما في العرب
من قوى لحاد والحيوان والإنسان مستثمرة منتفع بها ، وقوى الشرق مبهثرة ضائعة ،
العربي يعي بالأمر الصمير والخطير على السواء ، يحول الإتقان والكمال في كل
معينه ، ويعادي بكل عزيز في سبيل قوميته ووطنية . يراي الوقت وزمن ، ويسير
في حياته على منهاج لا يعدوه ، ويتحى أن يرمى بالقصور فيما هو آخذ نفسه به .
العربي يحفظ مجدد في آن واحد ، والشرقي يحفظ يصمم عليه التجديد . أصلح
العربي بنفسه لنفسه مفعله ومزروعه ، وحوادث عمله وقام بواجبه ، فاضطر حكومته الى
أن تصلح نفسها . والشرقي يتوقع من حكومته أن تصلحه ، وقد يحاول اسادها إذا
أرادت اصلاحا . والعرب لم تعمره حكومته بل عمره أهله ، وحلولها بطول الزمن على
أن تحسن سيرها فتد الزاعي والرعية .

وقد وصف الحالة التي صار اليها الشرقي الأستاذ احمد فتحي رغلول ناشأ بقوله :
ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة ، هي التي يطالبها بمحفظ حياتنا ،
وخصب أرضنا ، ونزوح فجار تنسا ، ونحسين صناعتنا . هي التي تطلب منها أن تربي
الآبناء ، ونظم الفقراء ، وترزق المعززة ، وتتي أسباب البطالة ، وتحفظ الأخلاق ،
وتقم شعث العائلات ، وتجمع أشتات القلوب . هي التي يطالبها بتعويض ما نقص

من إرادتنا ، وتقويم ما عوج من سيره وسيرتنا ، ورد هيجات المراحين عما ، والسير على مصالح كل واحد ما ، ود تأخرنا في عمل من تلك الأعمال باهمان رمياها سوء الإدارة ، واتهمناها بحب الأثرة ، وألقيب عليها ثمة خولنا كلاً ، لا ريب أن بهذا ازعم قد ضلنا السبل ، فته الحكومة وازع لا يكلف إلا ما قصته طبيعته ، وشأن الحكومات في الأمم تأييد الظم ، وحفظ الأمن ، وإقامة العدل ، وتسهيل سبل الزراعة ، ومهذبة بعضهم بعضاً على ما يصمن حرية التجارة ، ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة ، وعلى قدر ما تسمح به المكينات ، والجلية والحكومة ورع عام لا واجب عيه إلا الأمر العام مما يدخل تحته جميع الناس . ولا يعرذ بالاستمدادة منه واحد بخصوصه . وعلى لأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا انظام ، ويتمر فرصة الأمن والعلمانية للنسب وراء مدفعها ، وتطلب الكمال في رراعتهم ، وصنعتهم ونجرتهم ، وفي نشر اعارف واحيد العلم ، وفي أداء الواجب والمحافظة على الحقوق ، وهذا هو الذي نهمناه حتى أضعاه . اهـ .

وحقاً لو قام كل واحد في الشرق بواجبه لما نشرت الأمية فيه مثلاً هذا الانتشار المريع . والأمية سبب كل بلية ، ومن المستغرب أن نشهد شعوباً صغيرة في العرب تحررت منذ عهد قريب من رقة غيرها ، ونحت أو كادت من الأمية على فقرها ، ورأيا في الشرق شعوباً تكاد تكون مستقلة منذ زمن طويل ، وهي من العبي بما لا يسكر محله ، وما استطاعت أن تخرج شعبها من الجهل ، واكتفت أن صاغت عمالاً أو رابعين في المالة ، ونحت عن إعداد أبنائها لمداهب لعاش الطبيعية ، فبأي شيء عمل هذا ؟ وعلى من تلقى ثمة هذا الوناء ؟ ولو صرف في تعليم هذه الشعوب واحد من مئة تبدل في التبذير ، لفارقت دور الجهالة في أقل من نصف قرن

و بينا نرى عامة أهل الغرب وخاصتهم ، أعيانهم وقراءهم رجالهم وسلامهم ، يعملون ويدأبون ، ولا تكاد تجد من لا يعمل ولا يفكر فيما فيه فائده عامة أو خاصة ، نرى الشرق إذا حاز مطهراً صغيراً ، أو نال شهادة من مدرسة ، أو شذا شيئاً من أدب وعلم ، أو اقتنى مالاً وغروصاً ، اغتبط بما صار اليه ، وعذ نفسه قد بلغ أقصى العايات ، فيعلو في سرفه وترفه ، ويصطب بالعرور والمعجب ، يستكف عن أعمال اليد

وعن الاحتراف وبعد الحرف دينة ، وما الدني إلا من لا يتعلمها ويتقنها ، ولا ساقط
 الهمة إلا من يذل لعيره حتى يعيش كلاً عليه . على حين رأيا الغربي هذا أحرر من
 مطهر العبي والمجد ، لا تقف همته عند حد ، ولا تنتهي مطامعه لى غاية ، فهو لا يعرف
 ما يقال له قناعة ورضا ، وكل عمل يجلب نفعاً هو في نظره شريف محمل ، كأن طبيعة
 البلاد الغربية ، وهي تستلزم من ساكنيها غداً أو فرباساً أدق ، وكذا جميعاً شروط
 الراحة ، ليقاوم قسوة الطبيعة ، تصطر الفرد الى أن يعمل شاق الأعمال لينتج
 ويعيش . والشرقي لا تنقذه أرضه وسمائه شيئاً كثيراً من مثل هذه الأسباب في
 الحياة : يتلع بمسور العيش . ولا يشتد في تطاب السعة ، وحرارة إقليمه تبعه عن
 أمور يراها العربي ضرورية له كالخمر ولا عذبة اللذيمة . تأنسوا حال أمرة مؤنة
 من والدين وأربعة أولاد ، أو ولد يعمل في حرفته ، وأولدة تشتمل تربية أولادها
 وترتيب منزلها ، فإذا فرغت شملت أوقات فراغها بطريز أو حياطة أو نسج أو تصوير
 أو موسيقى أو غير ذلك ، وأولادها المدرسة لاندنية يعمل في حقل أو حانوت أو
 معمل ، وأخته كذلك تحترف وتجمع لنفسها مدناً ، ولا يسفك حدهم من الأعمال
 الزراعية والصناعية ، ولو لم التعليم الي ، إذا لم يجد درقة فيه . تأموا هذه البيت لعل
 وكيف يدخله من الرمح ، يعادل على الأقل ما يكسبه الأب وهو قاعة ادواته في
 جهاد الحياة .

الإثنين في العرب مما علت منزلته ، إذا لمع سن الرشد أو قرب منها ،
 لا يتكل إلا على نفسه رجلاً كان أو امرأة . لا فرق في قانون العمل وروبط الحياة
 إلا ما لا نال له . والشرقي إنكالي لا يعمل إلا قدر ما يرق الكفاف ، ولعل من
 شغفته انكاذة على أولاده . إذا كان ذا سعة ، أن يترك لهم الحبل على العارب ، لا يهتم
 لهم عملاً أم لم يعملوا ، فكيف بهذا تقي ثروة ويحبط مجد . ولو كان قانون انواريت
 عندنا مثل قانون الإنجيز لا يورث الكبير ، والبلاء جلاء ، أي لقبهم وأبناءكم
 إلا الكبير من الأولاد ، وروح سائر البين والبيت يكذبون له شهيم ، لرأيا
 كثير من الشرقيين يؤمنون جوعاً لا يرضون أن يعملوا عملاً صناعياً ولا زراعياً
 ولا غيره .

يقول العلامة قاسم بك امين إن أهل أوريا يقسمون في ثلاث طبقات كسائر الأمم عليا ووسطى ودنيا . فالدنيا ، أكبر حظها من الترية معرفة القراءة والكتابة ، وأما الطبقة العليا فتصيب حظاً عظيماً من الترية العملية ، ولكن يعلب عليها ما يعري به الفنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم ينعنون في الذائد تغتر أهل الحد في الاختراعات والصناعات ، قل وهذا الفساد فيهم مما تتحمله المدينة العربية ونصبر عليه ، لأنها لا تستطيع محوه ، فإن هذه تندية مؤسسة على الحرية الشخصية ، فهي مضطرة لأن تقبل ما ينفع هذه الحرية من الضرر ، وهي تعلم أن منافعها أكثر من مضرها ، ووجود الفساد في العرب إما هو لاحق طبيعي من لواحق الحرية الشخصية ، وشيجة من شجوة في الطور لأدبي الحلي الذي توحد فيه تلك البلاد الآن . قل وهذا الفساد في الأمم العربية لم يصعب فهم الفصائل من بذل لأنفس والاثمال في سبيل تعريب وطن أو اللداع عنه ، وذنى رحل في الغرب كأعلى رحل فيه ، إذا دعا داع إلى هجوم ، أو قيام لدع أو إلى عمل دفع ، يترك جميع لده وينساها ، وينقض لإجاة الداعي ، ويغاطر نفسه ، ويدل ماله ، إلى أن يتم للأمة ما تريد . وأما الطبقة لوسطى فلا ريب أنها أرق من التي تقلب عدده .

وبعد فلا غنون والأوسطون والأدبون في الأمم الغربية هم كما وصفهم علماء الاجتماعي فأحسن في وصفهم ، وقد قل شاعره الأحنائي حافظ إبراهيم في وصف الاختلاف بين العالمين الشرقي والعربي

شمسهم عادة عليها حجاب	وهي شرفه حوته الحدور
شمس عادة أمت أن توارى	وهي عرية حلاها السور
جوهم في تقلب واختلاف	غير أن الثبات فيهم كثير
جونا أثبت الحواء ولكن	ليس في على اثبات صبور
ولديهم من النور إياب	ولدينا من الفنون قشور
فإذا ما سألني قلت فيهم	أمة حرة وفرد أسير

وعلي بعد هذا أن تعلم أن ليس لشعب من طبيعته وحسنه ما يحول دون انحطاطه فقد قال العلامة الفريد فوله : قاعدة من قواعد التاريخ أن العوامل العمية والاجتماعية

أو العقلية والأخلاقية تنقلب على العوامل الجسمية والجغرافية والإقليمية بالطرق
ما بلغت الحضارة الحديثة من الارتقاء ، وأن حركة العلوم وما أوجدته الصناعة
لا تزال تبدل أسباب الحياة الاجتماعية وأساليب العمل ، على نحو ما تبدل العلاقات
المتداولة بين الطبقات المختلفة . وليس أشعب أن يتضح بأنه رقي وسيظل راقياً على
وجه الدهر ، وما من شعب يحكم عبده بالانحطاط الذي لا يشي منه ، وكل شعب
يستعيد في الصامد الدم من مكتشفات وتجارب ، وليس المستقبل للأثجولوسكويين
ولا للأجرمانيين ولا لللاتينيين بل للمستقبل للعلمين والصالحين ومن كانوا أحسن
أخلاقاً وحلاًفاً .





مفضرة الاستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفه
وقد بحث الموضوع التالي

الدور العلمى فى الثقافة المصرية الحديثة

الدكتور على مصطفى مشرفة

هذه المحاضرة هي حلقة في سلسلة من المحاضرات التي يقصد بها بحث الثقافة المصرية من نواحيها المختلفة لاوقوف على المصادر المتعددة التي كانت لها الأثر في تكوين هذه الثقافة. ومهمة الباحث في ذلك أشبه شيء بمهمة الكيميائي بحلل المادة المركبة الى عناصرها ويستسط الكيفية التي بها قد علمت هذه العناصر فتكون من اجتماعها وتألفها ذلك الجسم المركب. والثقافة المصرية كانت في المحاضرات السابقة من هذه السلسلة، وستكون في هذه المحاضرة موضع بحثنا وتحليلنا، نارة ديدمنا وأخرى بصورها وثائقة نجرها أو نقيضها، ولذا فاسألكم الى حصر تكلم ادا وجدتموني أعجل مادتنا بهذه وسائل الفعالة أن نعملوا على هذا على الرعة في الوصول الى حقيقة جوهرها واكتناه سرها، لا على مجرد الشغف بالتحطيم ولا بتلاوه الذي أنا بريء منه براءة الذائب من دم ابن يعقوب. وستكون مهمتي مقصورة على البحث عن عنصر واحد من العناصر الدخلة في تركيب الثقافة المصرية الحديثة، ألا وهو العنصر العربي. ذلك لأن حضرات الذين نظموا عقد هذه المحاضرات قد استحضروا خبراء غربي يتحدثون اليكم عن العناصر الأخرى التي هم أدري بها وأعلم بخواصها يتي.

ولعتبر اذن ثقافتنا المصرية، وأعني بها الثقافة المصرية في عهدنا الحالي. طمعا من اممكن أن ننسب الى مصر ثقافات مختلفة في أرمة مختلفة، فتتكلم عن الثقافة المصرية القديمة، والثقافة الإغريقية في مصر، والثقافة العربية في مصر وهكذا. ولكني أعتقد أن هذا يكون خطأ في التعبير. فكما أننا لا ننسب الى النحس الواحد شخصيات مختلفة في أدوار حياته المختلفة بل نفترض أن له شخصية واحدة تتطور وتنمو وتتكيف من حين الى آخر، كذلك يجب أن نعتبر ثقافتنا المصرية وحدة متواصلة الوجود منذ أقدم المديتات المصرية الى اليوم، وأن ننظر الى الحضارات الإغريقية والعربية وما

اليها كموامل تؤثر في تطور هذه الثقافة وتغيرها، عوامل هي جزء من بيئة الثقافة المصرية تتفاعل معها وقد تدخل في تركيبها كما يدخل الغذاء في تركيب الكائن الحي . أما أن نعتبر الكائن مجرد حشرة للأطعمة التي يهضمها فهو في نظري حطل . ميد كل البعد عن جادة الصواب .

سأفترض إذن أن ثقافتنا الحالية في مصر هي ذلك الكائن الذي شهدناه الأهرام في الجيزة ، ومعصر ر ، قلدس و طليدوس في الاسكندرية ، وعلم علوم العرب في لأزهر ، ولدي سافر الى دريس في أيام محمد علي الكبير وناقى علوم الافرنج عنهم ، وإلى لندن وبرلين وغيرها في عصرنا الحالي ، ثم اندي بقل هذه العلوم ويريد عليها اليوم في القاهرة ، وأخير الذي بظر الآن الى ماضيهِ وحاضره وبحول أن يتبين سببه بين حكمة العقل ووحى العاطفة .

وعلى ذكر العاطفة أريد أن أؤكد لخصراتكم أن هذا الافتراض الذي أفترضه عن وحدة الثقافة المصرية في العصور المختلفة ، وإن كان من شأنه أن يستثير عاصفتنا المشتركة كعصرين ، إلا أنني في فرضي له بعيد عن كل تأثير بهذه العاطفة ، فإن أفترضه لأنه الفرض الوحيد الذي يتفق والحقيقة لوفقة . أفترضه كما افترض العلماء وجود الذرة أو وجود الإلكترون ، لأنه لا سبيل الى تفسير الواقع المشاهد إلا به . ولأن إنكاره يؤدي الى العوضي في التفكير والجمود في البحث إذ يدونه بصير تاريخ الثقافة في مصر عبارة عن فقرة مبعثرة الحل من الحقائق المتككة العري بكرها العقل ويقب حياها الفكر حائر لا يدري أي سبيل يسلك .

ذكرت لخصراتكم أنني سأفترض أنني على عصر واحد وهو العنصر العلمي . وهنا يحسن أن أبين على وجه التحديد ما الذي أقصده بقولي « العلم » . فالعلم في الأصل مصدر من علم الشيء ، وانه أي عرفة ، وبذا يكون علماً كل ما دخل في معرفة البشر . إلا أن هذا المعنى الواسع للمعط قد حددته وضيقته دائرته لاصطلاح في عصرنا الحالي . فالعلم وإن كان لا يزل يطلق في اللغة وفي كثير من المسبات على المعرفة البشرية فهو في الحقيقة إلا أن له معنى خاصاً هو الذي أقصده في محاضرتي هذه وهو الجزء من المعرفة البشرية المبني على نتائج مشاهدة مباشرة والتفكير الصحيح

وحدهما دون سواهما . فالمعرفة البشرية كما تعلمون حصرانكم لها سُبُل يعرض لوصفها
وتحصيلها الفلاسفة ، فمنها المعرفة عن طريق الوحي واليه ترجع المذاهب الوصفية ، ومنها
المعرفة عن طريق التأمل الداخلي وبه يؤيده الفيلسوف الفرنسي برنارد في مؤلفاته
الأخيرة . ومنهم أيضاً لمعرفة عن طريق المشاهدة المباشرة أو معرفة الحواس والمطلق
وهي العلم بالمعنى الذي أريد به في عنوان هذه المحاضرة . فالعلم يتميز عن سائر فروع
المعرفة إذ أن طريقته . هذه الطريقة طريقة العلم أو الطريقة العلمية - تنطوي على
عقائده خاصة كثر ما أمسي ، فهموا ورُبيت كما هي براء منه من صنوف الاهتمامات .
ولا أريد أن أقف بين حصرانكم مترفعا عن العلم والمعاني . وإنما أريد أن أوضح
ماهية العقلية العلمية ليس عده ذلك على فهم آخره في ثقافتنا لحاضرة . فالعقلية
العالمية عقلية التحرر المطلقة . عقلية من بانفس معرفة الأشياء عن طريق الأشياء
ذاتها . وهي أيضاً عقلية من لا يقايل في التعصب أو يسرف في التوكيد بل يسطر إلى
الأمر نظرة تبصر وحدراً ، طرة من يعرف حدود دائرة عمله فلا يشط عنها وهو
يعمل على تساع هذه الدائرة في حدودها . أريد أن أوضح بطار حصرانكم وصفة
خاصة في وجهة طر العلم نحو الآراء والطريقت الموروثة . والتي هي تراث البشر
وأساس ثقافتهم . وهذه الآراء ، إنما لا تقلل المشاهدة المباشرة عن طريق الحواس
وإذن فلا يترض العلم لها ولا يدحها في بحث بل يترك دراستها لمن هم قادر وابق ،
أو أنها تقلل تطبيق الطريقة العلمية وإذن والعلم يزنها ويحصيها بدون أية محاولة أو
تحيز . فاعلم لا يرفض قديماً لقدمه ولا يتقبل جديداً لجأته .

كثيراً ما قرأ ونسمع عن الطريقة العلمية ، والعقلية العلمية كما لو كانتا وليدتي
الحضارة الأوروبية الحديثة ، كما لو كان الأوروبيون قد وضعوا نطماً جديدة للعقل
البشري يسير عليها ونواميس يصنع لها ، وكثيراً ما قرأ ونسمع عن الطريقة العلمية
والدراسات العلمية كما لو كانت دحيتين على تمكينا غريبتين عن ثقافتنا في مصر .
لَقِيت في مصري أن المرفوسيس بأكون الب في سنة ١٦٢٠ ميلادية ككنا
يلاتينية أسماء الـ 'novum organum' أو الاداة الجديدة ، ائدع فيه طريقة
مستحدثة في التفكير لم يسبقه إليها أحد وصفا في كتابه بما يأتي « من الطريقة التي

اقترحها لاستكشاف العلوم هي بحيث لا تترك إلا القليل لحدة المذهن وقوته تكاد تتساوى في استعمالها العقول على تماثل مداركها . فكما أنه في رسم خط مستقيم أو دائرة كاملة الشكل يتفاوت الناس بحسب مهارة أيديهم ومقدرتهم على الرسم إذا هم رسموها معتمدين على اليد فقط ولكنهم يتساوون أو يكادون إذا هم استعملوا المسطرة والبرجل ، وكذلك الحال في أمر طريقتي « وحلاصة هذه الطريقة الباكوية كما تسمى ، أن الباحث لكي يصل إلى معرفة أسباب الظواهر الطبيعية عليه أن يدرسها دراسة مباشرة في ظروف مختلفة ثم يقارن بين هذه الظروف ليصل إلى ربط الأسباب بحسباتها الحقيقية مراعيًا في ذلك أنه كلما وجد السبب وجد المسبب ، وكلما عاب السبب عاب المسبب ، وكل راد مقدار السبب أو نقص رد مقدار المسبب أو نقص تماثل ذلك .

ولا أنكر على حضراتكم أنني عند ما لقيت هذه الأشياء عجبت أشد العجب من أن تعتبر طريقة « كون هذه بدعة في التفكير ، كما أنني أصارحكم القول بأنني شككت كثيراً في مدارك « كون عدد . قرأت وصممته « بأنها طريقة « تكاد تتساوى في استعمالها العقول على تفاوت مداركها « إذ أنني لم أجد في طريقته إلا أموراً تكاد تكون بديهية . نعتقد أن الشخص المادي عدد . يفتن لها بعية السهولة بل وأطلعه بطة في حياته اليومية . واليوم وأنا أعيد التفكير في هذا الموضوع أراي أحد في عمل « كون وما عائق عليه من لأهمية دليلاً على شيء واحد ألا وهو انحطاط التفكير العلمي في البلاد الأوروبية في عصرها كون ، والظاهر أن الأمم المختلفة تأتي عليها أدوار في تاريخها تخزن فيها عقولها في خرابات من حديد وتسير متقادة بحكم التقاليد والآراء البالية حتى إذا أخرج واحد منهم عقله من حراسته وأزل عنه شيئاً من الصدأ المتراكم عليه ثم استعمله مرة أو مرتين هلك القوم وكبروا وطبلوا وزمروا معصين بأبواق هذا المرد وشدة مهارته وربما عدوه ساحراً أو مارقاً خارجاً عليهم لما يأتيه من الأمور المدهشة التي لا يحسر على الإتيان مثلها سواء . ولا بد أن شيئاً من هذا القبيل حدث في أورنا في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وها يجب على أن أرد على اعتراض ربما بدا لبعض حضراتكم ، فربما قيل إنه

من الظلم أن أحكم هؤلاء القرن العشرين وقد تشبعت «التفكير الحديث» وتأثرت
بؤثراته على أشد السيرة فربس يكن القدي هو من واضعي أسس هذا التفكير ،
فكانت مصر يشار إلى الخدع ويعجب من تخطيطه وقرنه من لأرض ناسياً أنه
لولا هذا التخطيط لما كان ارتفاع المصن . حوئي على هدفت شجرة التفكير
البشري يذهب أصحاب إلى أنحق بكثير من أيام فربس يكون ، فالتفكير البشري
وعلى وجه الخصوص التفكير العلمي الذي على المشاهدة المباشرة كان موحوداً قبل
يكن عند العرب وعند الإغريق وعند المصريين القدماء ، وقد وصل في كل من هذه
المصور إلى مستوى يفوق بكثير ما كان عليه في أيام يكن . وكل ما يمكن أن يقال عن
عصر يكن هو أنه عصر نهضة ، عصر ستقط نومه تقدم مبني على نهضة أعمال المصور
التي سبقته .

فالتفكير العلمي والطريقة العلمية إذن ليست وليدتي لحضارة لأوربية الحديثة
ولكنهما كانتا موحودتين أينما ومتى وحد العلم ، وعلى وجه الخصوص كانت موحودتين
في مصر في أيام الفراعنة وفي عصر الأعراب وإمام ازدهار الحضارة العربية ، وأخيراً
هما موحودتان بهذا اليوم . وقد سبق أن بسبب لحضارتكم أن الثقافة المصرية الحالية
هي أيضاً ليست وليدة العصر الحالي بل يرجع «يرجع» إلى تاريخ يرجع . كانت مصر
مبعث ثقافات الأصرة البشرية .

وإذن «الثقافة المصرية والعلم صديقان قديمان» آ في عهد واحد وتوحد على
ضدوف النيل معاً وشرياً من مائه ، فليس فربس أن نجد بينهما «واصر» لأمة وروابط
بعشرة القديمة ، أو بعسارة أخرى ليس . مريب إذن أن نجد الأثر المسمى واضحاً في
ثقافتنا المصرية الحديثة .

فستحال إذن ثقافة الحية «حسين» عن عصر العلم فيها . لمحال أدب وفوسا
وطب الاحتيائية وتشريح «وميم» ، فهل نجد للعلم والتفكير العلمي أثر واضحاً فيها ؟
زني مصعراً إلى الدحول في «ص التصيل» التي لا يفر منها بحكم «مبتي» كباحث
ومُحال ، ولذا فاستمبحكم عموماً إذ أذ تعرضت لبعض الأمور التي ربما ظهر لأول وهنة
أن لا شأن لي بها . ولكن علينا أن نذكر أي «أني» تعرض لها من «حيه» واحدة

فقط هي الناحية العلمية . وما دمت نسلون أنني أعرف شيئاً عن العلم فلعمري أستطيع أن أعرف عليه إذا ما وحدته داخلًا في تركيب الثقافة .

فن الأدب الذي هو رمز من ظواهر الرموز على ثقافات الأمم : هل في أدبا الحديث ما يدل على أثر التفكير العلمي فيه ؟ لا أقصد بذلك طبعاً أن نجد أدباءنا يصوغون نظريات فيلدس أو قوانين نيوتن في قلب شعري أو روائي .

كما أنني لا أقصد أيضاً أن نجد في أدبا ميلاً خاصاً إلى إدخال المصطلحات العلمية والاشارة إلى المخترعات والآلات الحديثة ، فلو وقع أن هذه الظاهرة وإن كانت مشاهدة يمتد إلى حد ما إلا أن الباحث لا يستطيع أن يعلق على ظهورها أهمية . هي أثر من آثار العلم إن شئتم ، وإكراه أثر ضئيل غير مرتبط بصل موضوع لأدب . وهناك أثر آخر قبل الأهمية أيضاً ، أن كان فهم من الأثر السابق وهو استمساك الطريقة العلمية في تحليل الأدب وسعده ، فإن النقد الأدبي كما سمون حصرناكم فن مرتبط بالأدب وليس هو الأدب ذاته ، ومع ذلك فلا بأس من الإشارة إلى ما هو حادث في مصر الآن من التعبير في أساليب النقد الأدبي طريقة لا تدع محلاً للشك في أنها أثر من آثار التفكير العلمي .

وإنما الأثر العظيم ، لأثر الذي يمتري طر الباحث في أدبا الحديث هو استعمال الطريقة العلمية في الأدب ذاته والطريقة العلمية كما بنت لحضرائكم تنحصر في الاعتماد على المشاهدة المباشرة والتفكير الصحيح ، وهي تتميز بعددها عن التقيد والمحاكاة لذاتهما . ولا شك في أن أدبا الحديث قد أحدثت تظهر فيه هذه المميزات بصفة واضحة . فالأديب اليوم بدلاً من أن يقصر خن همه على محاكاة من سبقه من الشعراء والكتاب والتسج على منوالهم ، كما كان الحال في الماضي القريب ، قد صار يعتمد على خبرته المباشرة وتفكيره الخاص . ولعل بعض كتنا وشعرنا قد تعالوا في ذلك إلى حد محاولة قطع كل صلة بين الماضي والحاضر ، وهي محاولة مآها الفشل ولا محالة ، إذ إن الأدب كالعالم هيكل يبنى لا سبيل إلى فصل أعلاه عن أسفله إلا بهدمه ، أو كائن يمول سبيل إلى محو أثر الماضي فيه إلا قتله . وثنا الذي قصده من استعمال الطريقة العلمية ذلك الاتصال المباشر بين الأديب وبين بيئته المادية واعنوية بمحيث

يخرج أدبه غصاً يانعاً تستطبه النفس ويستشيقه الذوق السليم، لا دانيلاً يأساً قد أكل عليه الدهر وشرب . فمذا الاتصال المباشر هو أساس كل الحام صادق في الأدب به تظهر شخصية الأديب في أدبه وبالتالي تظهر شخصية الأمة في أدبها . وما قلته عن الأدب يصح أن يقال عن سائر فنون الجميلة من تصوير ونحت وموسيقى . ففي جميع هذه السواحي نجد أثر العقيدة الملية طاهراً لا يمتثل للباس ولا الإبهام .

كذلك الحال في نظم الاحتمية ونشريف، فالتأثير في كل يوم دليلاً جديداً على الرغبة الصادقة في حل مشكلاتنا الاجتماعية وسن قوانيننا بما يتفق ومنطق العلم . كلنا حينئذ عهد الوقت الذي كما هي فيه نظاماً وقوانيناً على تفكير غيره من الأمم أو على مجرد الآراء الموروثة بيساً دون فحص كافٍ للملائمة نظم شيئاً ما أو تمحيص للآراء الموروثة عنده . أنا لا أرعم أنا اليوم قد وصلنا إلى الحالة التي نشدها بأن أصبح عنده القادة لاجتماعيون والشايعون الذين يستطيعون أن يدرسوا مشاكنا دراسة عمية مباشرة وبينوال السبل التي نلكنه بوضوح . فكما ذكرت في أول محاضرتي، نحن لا نزال نتمس طريقاً بين حكمة العقل ومنطق العامة، وسكن الذي يذكر من حصراسكم ما كان عليه الحال منذ عشرين سنة فقط يستطيع بسهولة أن يلحظ التقدم الهائل الذي حدث في هذه البرهة القصيرة بالنسبة إلى حياة الأمم .

أما عن التعليم الذي ربما كان أكبر عامل على نشر الثقافة وتوجيهه في البلاد فكلكم تعلمون أن العلوم التجريبية تدرس في المدارس المصرية بأنواعها، وإذن وفي هذه الحال عنده أثر مباشر للعلوم ذاتها في عقليته الأمة وتفكيرها، فاشي عن دراسة هذه العلوم بالذات . ولا شك في أن تعليم العلوم الحديثة بالأزهر الشريف كانت وسيكون له أثره في الثقافة المصرية بل وفي الثقافة العربية بأسرها . فالأزهر الذي هو أقدم جامعة في العالم والذي خدم العلم وربى الروح العلمية في الوقت الذي كانت فيه أوروبا بعيدة عن كل علم وثقافة، هذا المعهد قد أخذ يستعيد مجده الأول ويتمشى بخطوات واسعة نحو استكمال عظيمته وحلاله . إلا أنه في الوقت الذي أبوه فيه بأهمية تعليم العلوم التجريبية بمجاهدتها العمية يجب على كعلم متصل بحركة التعليم في البلاد

أن أشير إلى ضرورة الاعتناء بتربية الروح العلية ذاتها في مدارسنا . فالعلوم يمكن أن تدرس بطريقة علمية كما أنها يمكن أن تُلقن تلقياً بعيداً كل البعد عن الطريقة العلمية وروحها . وأساس الطريقة العلمية كما يثبت لحضراتكم المشاهدة المباشرة والتفكير ، أو بمسارده أخرى الاعتماد على النفس في الوصول إلى المعلومات . هذا الاعتماد على النفس هو أساس كل تقدم في العلوم كما أنه أساس كل تقدم في سائر مرافق الحياة . ولا أخفى على حضراتكم أن تعليم العلوم بطريقة غير علمية هو عيب ظاهر في نظامنا التعليمي اليوم ولو أنه عيب لا أشك في أنه سيروى تدريجياً بحكم طبيعة الأشياء . فالعلم وحده إلى حد ما كميل يخلق العقلية العلمية في العقول السليمة .

وبعد فليحل بعض حضراتكم البلية كان ينتظر مني أن أشير إلى الاحترافات ولمستحدثات من إنارة كهربائية وقطارات وطائرات وما إلى ذلك وأثرها في ثقافتنا . ولعل هذا البعض قد أدهشه أو أحزبه لشيء لم نشر إلى شيء من هذا . أما السبب في عدم إشارتي إليه فيرجع (أولاً) إلى أنني لا أعتقد أن هذه القطارات والطائرات الخ هي من العلم في شيء . (وثانياً) إلى أننا اعتبرناها ثمر من آثار العلم فلا أعلن أن لها شأنًا يذكر في نفوس الشعوب . فهذه المظاهر الخيالية وإن كانت نتيجة لا مفر منها للتقدم العلمي وعرضاً من أعراض الثقافة البشرية إلا أنها بعيدة عن جوهر العلم نائية عن كنه الثقافة . ولذا فأنبأ السادة حقيقة مضمونة مادته الروح البشرية ، كما أن العلم قوامه التفكير البشري . ولا يجوز الخطئ بين هذه الأمور الأساسية وبين المظاهر السطحية التابعة لها والمتوقفة عليها .

لم يبق عليّ إلا أن أختتم محاضرتي برباءة وأمل . فرجائي إلى حضراتكم أن تنقلوا الآراء التي قدمتها إلى حضراتكم ليلية الروح التي أملت على وهي الروح العلية . تلك الروح التي انما ترمي إلى الوصول إلى معرفة الحقيقة وتصوير الواقع بدون تحيز إلى رأي من الآراء أو ضيق صدر عن قول من الأقوال . وأما الأمل فأن تنتشر هذه الروح بيننا وإن تشع منها ثقافتنا حتى نكون رتداً تبين بها سبيلنا في عظمة الماضي وقوة المستقبل بمصافاة الشيوخ وهمة الشباب بين حكمة العقل ووحى العاطفة .

على مصطفى مشرفه



عضرة صاحب العزة الدكتور طر بك عسین
وقد یبحث الموضوعات الخمسة التالية

الرأى الحر نشأته . وأثره

المحاضرة الأولى

من سلسلة المحاضرات الى الجامعة بورت التذكارية

الأستاذ الدكتور طه حسين

سيداتي ، سادتي

كأنما كنا مع الحرية على موعد أيها السادة ، فلم أكن أقدر ولم يكن الأستاذ
كلياند يقدر أيضاً منذ أسابيع حين كان يتحدث إليّ في أمر هذه المحصرات عن
الرأي الحر . لم يكن تقدر أن المحصرة التي سأحدث فيها عن الرأي ، كيف نشأ وعن
آثاره كيف كانت ، لم يكن تقدر أن هذه المحاضرة ستبقى في الأيام التي يشعر الشعب
المصري بأن حريته ترد إليه فيها

ولولا أننا نعيش في زمن العشرين وأن الحصار الانساني قد تقدمت خطوات
واسعة منذ خمسة وعشرين قرناً ، لولا هذا اطلت أن ذلك الروح وأمر ذلك
الشیطان الذي كان يهيم سقراط هو الذي ألهم الأستاذ كلياند أن يطالب إلى أن
أنكلم في موضوع حرية رأي وأن يكون هذا الحديث في ١٦ نوفمبر أي بعد أن
أعلن أن الحرية قد ردت الى مصريوم واحد .

على أي أريد أن أتحدث إليكم عن رأيي وحرية ، حديث الأستاذ لا حديث
رجل آخر . ومن المحقق أن أحاديث لأصدقاء في كثير من الأحيان قد تكون ثقيلة
وقد تكون مملة ، فاستمعكم العذرة إن ثقل عليكم الحديث أو أخذكم الملل .

نستطيع أن نمضي في البحث التدريجي عن حرية الرأي ، بل عن الرأي نفسه إلى
أبعد زمن ممكن ، فلن نتجاوز لألف الثاني قبل المسيح . الى ذلك الوقت كان الانسان
يجب حياة توشك أن تكون آتية يتأثر فيها بالفرية ، ويطيع فيها العريضة ، أكثر مما
يتأثر بأي شيء آخر ، وأكثر مما يطيع أي شيء آخر ، فكانت حياته اليومية نتيجة تلك
العرائز ، وكانت حصارته التي انتهى إليها نتيجة تلك العرائز التي كانت تسيطر على حياته
سيطرة تامة ، ولست أدري أين يستطيع الأدباء والدين يدرسون التاريخ منذ المصور

القديمة جداً أن يظفروا نص من هذه النصوص التي تصور لنا إنساناً يفكر ويعان
رأيه في حرية وسراحة ويجد من الجماعات التي يعيش فيها مقومات - مقاومة له حين
يفكر ، ومقاومة له حين يعلن رأيه . ولكن الذي لا يكاد شك فيه هو أن أقدم
هذه النصوص التي نستطيع أن نلاحظ فيها أثر الحرية وأن شعر بالحرية الشخصية ،
ومن ظهور التأثير بهذه الحرية الشخصية التي تدفع الفرد إلى أن يعلن آراء لا يوقفه
غيره سايقاً . أقدم هذه النصوص لا تكاد نجد إلا في الإلياذة والأوديسة ، فحين في
الإلياذة نرى جماعات يونانية متأثرة بشدة التأثير بأحكام الة - والتقليد ، خاضعة أشد
لخصوع لهذه الأحكام ، ولا نرى في هذه الجماعات فرداً مقدماً بأنه موجود وحده
خاصاً ، هو مؤمن أشد لايمان بأنه لا يوجد إلا للجماعة والجماعة ، ولا يستطيع أن
يفكر إلا كما تفكر الجماعة ، فمفكره من تمكبره وشعوره من شعورها ، وحسه من حسها
وإعترابه عن هذا الشعور وترحمته عن هذا الحس هو نفس لاغرب ونفس الترحمة
الذين تاجراً إليهم الجماعة حين يدير عن حسها وشعورها .

ولكننا نجد في هذه الخصومة التي تصورها لا يذو من أجا يمون وأجل بعض
أفراد قد أخذوا يتقدمون على الجماعة وعلى الساطن انهم وإن كانهم يتقدمون فمرداً
خفياً مستوراً لا يكادون يعلمونه ، عما يتحدث به معهم وإلى مض في أحاديثهم
الخاصة . هو لغة النجوى .

نجد فرداً من أفراد اليونان يعنى على أجا يمون سلطاناً وطليعاً ، ولكنه
لا يكاد يتحدث إلى من حوله بهذا النعي أو بهذا السخط حتى ينهض من ينهض من
سمعيه فيصره بلعصاً على رأسه يريد أن يضطربه إلى سكوت فيستحري
هذا الفرد الذي خرج على الجماعة وأسكره لها من قوة ، ومن قدرة ومن ستشار
بأس والبطش . هذه الحجة التي تصورها لا أشبه القديمة في الإلياذة والأوديسة
وما أشبهها من الاعاني اليونانية التي كانت تشهد في القرن العشر وفي القرن التاسع
قبل الميلاد تصورها جماعات أحص ما توصف به أنها متشابهة في الرأي والخلق والعادة
واما تعيش عيشة توشك أن تكون كاللحم والحل أو كعيشة غير هذه الحيوانات

من الحيوانات الاجتماعية لولا أن الله قد منحها غرائز ومتعها استعداداً خاصاً للرقى
والكمال لم تستطع أن تصل اليه، الخيل أو النحل

ولكن الحياة الانسانية لم تقف عند هذا الحد، وقد أراد الله للانسان أن لا يكون
حيواناً اجتماعياً لمريضة وحدها، وإنما أراد له أن يكون حيواناً اجتماعياً بالغريزة
والعقل، والعقل الانساني يرقى شيئاً فشيئاً، ورفق نتيجة الحياة المادية وتمتدها وما طهر
فيها وما زل يظهر من الخصومات والنزاع على المصالح، والتهالك على ارضاء
الحاجات الانسانية التي لا تنقضي، وما دام الناس يشعرون بهذه الحاجات ويدومون
بهم يترجم الى ارضاء هذه الحاجات، وما دامت هذه الحاجات محبذة أشد الاختلاف
متنوعة أشد التنوع منها ما يمس الثروة والاقتصاد، ومنها ما يمس الياسة والعلم وما
دام هكذا موحود فلا بد للانسان من الحياة، ومتى وجدت الحيلة أخذ عقله في
الوجود، ومتى وجد العقل الانساني وشعر بالمرء أنه شيء، فقد أخذت الخصومة
وأخذت الحرب توحده بين المرء والجماعة، ومتى ظهرت شخصية الفرد وابتدأ يشعر
بأن له حقوقاً وعبءات واحدة، وأن هذه الحقوق يجب أن يقررها، وأن هذه
الواجبات يجب أن يقصها، من استطاع أن يقر منها فعل، ما دام هذا كله موحوداً
فليس من شك في أن مسألة حرية الرعي قد وجدت، وإن هذه المسألة التي قامت
ستظل قائمة الآن برز الانسان الى حيز الغريزة الأولى التي كان يحياها.

وفي القرن السابع أو القرن الثامن قبل الميلاد أخذت الخصومات بين الجماعات
اليونانية تظهر على مدقع مادية، جامعة اهلاك لأرض، وعلى استنارها، والانتفاع
بها تأتيه من ثمرات، ثم لم تلبث هذه الخصومة أن تجاوزت الجماعات الى الأفراد
أنفسهم فحدوا يتحصون، كل منهم يريد أن يملك أعظم حظ ممكن من الأرض
أو الثروة، عدس كانوا لا يشعرون بشيء من ذلك

ومد ذلك الوقت أنتجت لهم هذه الخصومات الاجتماعية محمًا ومصائب دعت
الأقوياء إلى أن يصطعدوا الصعفاء، ودعت الصعفاء إلى أن يلتصقوا، لم أذكر أخرى
يستطيعون أن يطأروا فيها بشيء من الأمن والهدنة

ولشأن من ذلك أيضاً ان اختصت الأسر قطعي مكبير لأمره على صفارها

واستند صاحب السلطان الشرعي بالذين يدعي أن يظلمهم . واضطروا إلى أن يهاجروا ويخضعوا فلم تنههم مقاومة ولم يجد عليهم خصام وفي أثناء هذه الاضطرابات التي نشأ عنها استعمار يوناني في إيطاليا وفرنسا وأفريقيا . وفي بلاد أخرى بعيدة عن بلاد اليونان . في أثناء هذا الوقت أخذ الأفراد يشعرون بأنفسهم ، ويلتمسون لأنفسهم أسباب الراحة . وأسباب الحرية أيضا . ثم أخذ هذا العقل اليوناني يقوي ويشدد حظه من القوة شيئا فشيئا ، حتى نشأ عن هذا التفكير البسيط تفكير أكثر منه تركيبا . تفكير نستطيع أن نقول انه قد أخذ يتجاوز الحياة المادية القريبة العاجلة ، إلى شيء آخر وأخذ الناس يفسون - إن صح هذا التعبير - فيما يلزمهم من المطالب وما يصيبهم من الحزن ، ويحاولون أن يفهموا للشكليات ويسمروا هذه لمصاعب التي طرأت لهم ثم يحاولون أن يستشعروا من هذا كله شيئا يشبه أن يكون حكمة

وأول ما يصور هذه الأخلاق العامة . الاخلاق التي تمثل الخير وتعال الشر من حيث اتصالها بحياة الفرد لا تجدونه في الابادة وفي لاودة . ولكن في شعر آخر هو شعر الشاعر اليوناني المشهور (اريود) الذي أخذ يتعسف في حياة الناس ويحاول أن يصورها في شعره كما هلف نحن في بعض حينا البومية العدية . بل ارتقي تصوير الناس إلى أسد من هذا أيضا حتى حاول اريود في قصيدته (الأيام والأعمال) التي حفظت إلى الآن ، حاول أن يوحّد شيئا يشبه العلم ، فطعم بعض الملوك التي كان الناس يستكشفونها كل يوم في حياتهم الخاصة من بعض سموم التي تمس الزراعة والفصول من صيف وشتاء وخريف وربيع . ثم ينتقل من هذا إلى بعض ملاحظات فلسفية عن العمل ووفادته وعدم الاعتماد على الوراثة ولا على الثروة التي تورث ، ولكن الرجل الذي يستحق أن يسمى رجلا حقا هو الذي يعتمد على عمله هذا الشعور ، وهذا الرقي العقلي ، وهذا التفكير الذي يلاحظه لم يلبث أن انتهى إلى نتائجه الطبيعية ، وهذه النتائج الطبيعية . هي إقسط ميل الانسان إلى النقد ، وإلى الملاحظات المختلفة على العلم التي كان خاصها لها ، ومنذ أخذ الانسان اليوناني يلاحظ وينقد ويضع العلم القائم موضع البحث والتفكير نشأت الخصومات السياسية عند اليونان ، وكان أول مظهر لهذه الخصومات أن تنكر سلطان الملوك وأن أخذت

جماعات من رؤساء الأمر والعشائر تتحدث بأن ليس بين هؤلاء الرؤساء وبين هذا الرجل الذي يسمى الملك ، والذي يستأثر بالسلطة الدينية والقضائية والحرية فرق ما : هو من أسرة عطيمة ، كما أنهم من أسرة عطيمة أيضاً ، له مكانة في الجماعة كما لهم ، وهو إنسان يتأثر . هو أدنى مثاهم وهم مثله . ما اعتبره ؟ وما تقديسه ؟ وما الذي يجمع أن يكون هؤلاء رؤساء الذين يشبهون الملك . ما الذي يجمع هؤلاء رؤساء من أن يكونوا شركاء الملك في سلطانه ويقاسموه الامتياز ؟ ومن هذا أحد التنافس العنيف يظهر بين الملوك وبين رؤساء الأمر فشنات الخصومة بين الارستقراطية والملكية . وليس من شك أن الملوك قاوموا هذا ولكنهم علوا آخر الأمر . وكان انتصار الارستقراطية على الملكية أول نصر للرأي فقد استمع الرأي أن يوجد في الحياة اليونانية فكرة جديدة وأن يغير نظاماً وأن يقلل لادبنة يهودية من طور الخصوع هرد واحد الى طور آخر هو الخصوع لأفراد كثيرين . ثم لاحظ أن العقل الانساني إذا بدأ الحركة فلا سبيل الى أن يسكن ، ولست أدري نشر هذا ثم خير

بدأ العقل الانساني يتقدم فلم يكن من سبيل إلى أن يقف عند حد ، وما دام أفرادهم زعماء الأمر قد استطاعوا أن يعدوا الملوك بل أن يغموم وأن يستأثروا من دونهم بالسلطان وأن يشتوا جمهوريات ارستقراطية ، أمر الحكم فيها الى فئة من غير شك ولكنه على كل حال الى جماعة لا الى فرد ، ثم الذي يجمع من أن يعدكروا ؟ وما الذي يجمع هؤلاء الأفراد الذين ليسوا زعماء ولا رؤساء من يتولوا أنفسهم - كما كان الرؤساء يتولون أنفسهم - ما الذي يفرق بين زعماء ؟ والارستقراطيين يؤثرون أنفسهم من دول الأمر ؟ وما الذي يمنع أن يكون السلطان شاعراً ، ومنذ نشأت هذه الفكرة وصل الرأي السياسي الانساني الحر الى الطور الثاني من أطواره وهو الطور الديمقراطي وأحد الحكم الديمقراطي ينشأ . وظهرت في القرن السابع والسادس قبل الميلاد ثورة على نظام الارستقراطية في أكثر المدن اليونانية لم يكن فيها كلها

ولم يكند بنهي القرن السادس قبل الميلاد حتى انتصرت الشعوب على الارستقراطية وانتصرت أيضاً للديموقراطية . وحتى صار أمر الحكم إلى الناس جميعاً بعد أن كان في فرد واحد ثم الى جماعة صنيعة

من أحص ما يختار به لعقل الانساني انه إذا بدأ الحركة لا يقف كما قلت ، ولكنه لا يمتضي في طريق مرسومه مستقيمة (غير قابلة للانحراف) وبالعقل الانساني إذا تحرك مضي ممة ويسحرف الى اليمين وإلى الشمال ، فهو يمتضي ثم ينحرف ، لا يتحرك حركة مستقيمة ، وإنما يتحرك حركة فيها غير قليل من التمرج . وعقل الانساني الذي ارتقى في السياسة والذي مكن للأقلية أن تظهر الملوك ، ومكن الكثرة من أن تظهر الأقلية ، هذا العقل لم يكن يكتف بطرف في شئون الانسان ، ولكنه أخذ ينظر إلى ما هو أرق وأعظم من الانسان ، أخذ ينظر إلى الطبيعة نفسها وهو الذي استطاع أن ينزل الارستقراطية عن ساطعها . فما الذي يمتعه من أن يدرس الطبيعة أيضاً ؟ ومن أن يجمعها موضوعاً للبحث أو النقد ؟

ومذ ذلك الوقت أخذ العقل يفكر في مسائل ليس بين وبين الانسان صلة مباشرة . هي مسائل عليا ، أخذ يفكر في الطبيعة وأحدث الفلسفة الانسانية توحيد وجوداً قديماً ، واستطاع أن يقول إن ظهور المدنية في القرن السادس قبل الميلاد ، هو العصر التاريخي الذي لفتق لظهور العقل بماء الصحيح . وهو العصر التاريخي الذي لفتق لظهور الرأي الخمر ، وهو العصر التاريخي الصحيح الذي أخذ يحل فيه أفراد بقاومون الجماعة لا المصلحة الجماعة بل المصلحة المعكرا للمعكر من حيث هو .

مذ نشأت الفلسفة أخذ الناس يؤمنون بأن هناك شيئاً اسمه الحقيقة . وأن هذه الحقيقة يجب أن تكون فوق الانسان ، وفوق الجماعة ، وفوق كل شيء . وأن الرجل الذي يتنازع بالمعز ويمتاز لتعكير الصحيح يجب أن يصع الحقيقة فوق كل عشارون يجمعها هي وحدها قلته اد فكر أو بطر .

ومذ ذلك الوقت أخذ يوجد بين الناس هؤلاء الأفراد الذين يوصفون بالجنون لأنهم يمتفون بجميع الأطوار التي تظهر فيهم . الجدع في عصرهم فهم حصوم الجماعة ، وهذه الجماعة ومرشدوها إلى الخير ، وهم الذين يشتون لها طريقهم إلى الرقي ، ولكنهم يستفون عصورهم دائماً ، وربما كانوا يتدربون بأنهم وحدوا في الوقت الذي كانت مصالحهم الخاصة تقضي ألا يوجدوا . فمن المؤكد أيها السادة أن سقراط لو وحد الآن

لما فكر فيه ناس ، ولم يحسن به أحد ولا تعرض لخصومته أحد وأين فلسفة سقراط وآرؤه ، وصلت اليه آراء الفلاسفة المعاصرين ،

من المؤكد أن سقراط لو وُجد في القرن العشرين لم يكن يبرأي انسان مثقف ثقافة عالية بميزة ، ولكن من المحقق أنه لو لم يوجد في العصر الذي وجد فيه ، ولو لم يسبق الوقت الذي كانت مصلحته المردية تقتضي أن يوجد فيه ، لو لم يوجد في عصر يسكره تشد الانكار ، ويسخط عليه أشد السخط ، لو لم يوجد سقراط لما وجدت الفلسفة التي توجد الآن ، ولم يكن به إذ من أن يوجد هذا العقل الذي يظهر شذوذه وتفوقه وحروجه عن سألوف ، ومن أن يشد ، ومن أن يخرج على الجماعة ليستطيع أن يحدث ما أحدث من الآراء ويوجد هذه افلاطون ثم أرسطاطليس وغيرهم من هؤلاء الذين نراهم الآن ونشهد آثارهم .

لم يكن أدع عرياً أن يشد سقراط ، ولم يكن عرياً أن يجد سقراط ما وجد من الخصومة ، ولا بدني أن اظن أن أول خصومة وحدها سقراط ، هي هذه الخصومة التي انتهت به الى الموت . هذه الخصومة التي انتهت أمام المحكمة به بكر الآلهة ويضلل السباب ويهدد حلاقهم كلا قال سقراط لم يكذب يوجد ، ولم يكذب يظهر كمدلسوف ، وبمحدث الى الناس سرته ، وبمجادلهم فيما كان يجادلهم فيه ، حتى وجد له خصوم يخشونهم ، وحتى طهر رد الفهم ، وحتى شكره الناس إنكاراً شديداً ، وكرهه الرأي العام وضحك منه وآذاه ، ورعا كانت قصة السحاب التي قيت لها من قصص أرسطوفون ، قصة رائعة معلقة بهذه مقاومة التي لها سقراط . هذه انقصة تصور ما كيف كان جمهور الشعب ينظر الى سقراط ويسخر منه ويحده رجلاً سخيفاً يهذي ولم الشدة كيف تهدي ، وبدفعهم الى أسب لم يدفعهم اليهم سادتهم من قبل . ثم كيف كان الشعب يصحك من سقراط حينما كان أرسطوفون يثس لم هذه الأدوار العربية في قصر السحاب .

إذن كان سقراط خرجاً على جماعته مقدوماً لها وكان طبعياً أن يجد من الجماعة ما وجد ، ولم يكن هناك شيء غريب في أن يتقدم انسان فيهما سقراط بأنه عدو الشعب ، ولا سيما إذا لاحظ أن فلسفة سقراط لم تقص في طريقها المستقيمة التي كان

يجب أن تسير فيها، وإنما انحرفت به إلى الياسة، وقد قلت إن العقل لا يسير في طريق مرسومة بل يحرف إلى اليمين وينحرف إلى الشمال، فقد كان سقراط عسواً من أعضاء الجماعة، يشعر بحقوق وواجبات وكان يشترك في أداء الواجبات العامة، وكان لحسن حظ لاساية وحسن حظه مقاوماً لطغيان الطغاة، فلما ذهب عصر الطغاة وجاءت الديمقراطية منتصرة كان سقراط فيلسوفاً. ومعنى هذا أنه لم يرض مع الشعب ولم تستقم به الطريق وإنما أخذ يسخر من بعض النظم ومن كثير من نظم الحياة الالاساية، شغل إلى النسيان عدو للديمقراطية

ومن يدري لعل سقراط لم يكن به وبين صه صديقاً للديمقراطية! كان إذن سقراط خصماً للحرية في تمكيزها وفي تقديمها السياسي، ثم كان فيلسوفاً طاعياً إلى حد ما فكلكم يعلم أنه عندما قدم إلى القصة لم يدفع عن نفسه إلا كارهاً، إنما دفع عن نفسه ليسخر من الذين اتهموه ولذين حاكموه أيضاً، ثم عندما صدر الحكم على سقراط لم يظهر احتراماً لهذا الحكم ولا رضى عنه، وكانت العادة إذا صدر الحكم على من هم بأنه مذنب أن يختار لنفسه العقوبة التي يرى أنها حلقة أن تفرض عليه، فلما سألته القصة عن العقوبة قل ساجداً: «إني قد خدمت لوطن حدة متصلة طيلة وطني» أن الوطن يحب عليه أن يطاعني على حساب الدولة إلى آخر أيدي «أي أنه يرى أن تكريمه للدولة وأن تطعمه لأن تعاقبه. ثم هذا الأسهر لم يكن بد من أن يقضي على سقراط بالموت. وليس معنى هذا أن الشعب اليوناني كان موثقاً حين قاوم حرية سقراط، ولا موثقاً حين قضى على سقراط بالموت. ولكن معنى هذا أن الشعب اليوناني كان معذوراً لأن حرية لري لم تكن قد عرفت، ولأن الشعب بطبيعته مضطر إلى أن يقاوم كل حط يهدد حياته ويهدد نظامه، فكما أن الفيلسوف حقه في الفكر، وفي أن يعلن رأيه، وله الحق في أن يتحدث إلى الناس حراً، فمن الطبيعي أن يقوم هذا الرأي. ولم يكن العقل الانساني قد ارتقى، ولم يكن الانسان يفهم مقاومة الرأي بالرأي وحده، إنما كان الانسان يفهم أن كل خارج على الشعب يجب أن يقضي عليه بالمعاقبة مهما يكن من شيء. فقد كان سقراط هو الصيحة الأولى لحرية الرأي، وبكثرتها الضحية الخالدة الشخصية، وكان موت سقراط إعلاناً لانتصار العقل وحرية الرأي

السياسي فلم يكذب في سقراط حكم لاعداءه حتى انتشرت آراؤه ومذاهبه انتشاراً
رئعاً، وحتى طغت مبادئه على كل الأرض، وتنتشرت فلسفته على كل ماسبقها من
أنواع الفلسفة وضروب الحكم، وحتى أصبح كل يوناني مثقف سقراطياً إلى حد ما من
تلاميذ أفلاطون أو غيره من تلاميذ سقراط.

ثم مصت الفلسفة مقاومة للجماعات، ثم مصت الجماعات مقاومة للفلسفة أيضاً.
وكلكم يدرك أن أفلاطون لم يكن حسن الملاقاة مع الشعب لاثنيي، وأن
أرسطاطاليس قد هرب من أثينا لأنه حاف، يحكم كما حوكم سقراط ومات وهو في هربه
مصت الفلسفة تدخل عن حقها في الحرية وتبني في ذلك محملاً وحطوطاً، تنكر
وتعلن تفكيرها، إلى أن كان عصر ظهور المسيحية في ذلك الوقت وصلت الحرب بين
الدقل والصمير ومن الجماعات إلى أقصى ما كان يجب أن تصل إليه من عمق، وكان
مظهر هذه الحرب بين حرية الصمير والرأي، وبين لدولة والسلطان ما كان من
المقصومة بين لامبراطورية الرومانية والدين المسيحي، وكما لاحظ «ستيوارت مل» من
أن رحلامن قياصرة روما كان فيهم يظهر رقى القدماء تمكبراً وأهمهم حقاً وأعلام
تصور للحاق الكبريم، هذا الرجل وهو ماركوس أو ليون من ندي تركي في لأحلاف
والحكم والهدنة آراء خائفة، هذا الرجل قد صطهد للمسيحية وعذب الناس لأنهم كانوا
يقولون رب الله. وهذا أيضاً طبعي لأن المسيحيين في ذلك الوقت لم يكونوا حراساً على
أن يستمتعوا بحريتهم بينهم وبين صميرهم خشب وبكهم كانوا خارجين على السلطان.
كانوا يكررون سلطان قبصر ويؤمنون أن يعسندو قبصر، كما كان يعسده غيرهم
وكانت عادة قبصر حزه من لدن رسمي وانظام السياسي. والعرب أن اضطهاد
قياصرة الرومان للصمير المسيحي، وما سمكوا من دم، المسيحيين كان باضطهاد
كاضطهاد الاثنيين لسقراط، فهذه الدماء المسيحية التي سفكت في سبيل الاحتفاظ
بالرأي وحرية الصمير قد روت الأرض وملأته باس يقدسون الشهداء ويسرعون
إلى المسيحية.

والشر كل الشرأيها السادة يأتي من أن الانسان يطغى. ويكاد يكون طغيانه
حرراً من طبيعته. هذه المسيحية التي جاهدت في سبيل حرية الصمير والتي نعتت

الذين العف والطلم من قيصرية الروم ، والتي سفكت دماء مئات الآلاف من أبنائها في سبيل الحرية ، هذه المسيحية لم تكذب تصحح ديناً رسمياً حتى تأثرت أو اعتنقت نفس المبادئ التي كانت تحارب بها ، وفرضت على خصومها بعد أن ضمروا ، ما كان يعرفه عليها حصومها ، حين كانوا أقوى . هـ المسيحية الرسمية قد اضطهدت الوثنيين وقتلتهم وعذبهم . ثم مضى الأمر على هذا النحو حتى أصبحت مصادرة الرأي ومحاربة حرية التعبير شيئاً يوشك أن يسكون رسمياً في بلاد الروم في أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ، وحتى واحد من أبناء السكينة من كان يقول إن من أظهر حادراً للدين الرسمي يجب أن يقتل . ولست في حاجة إلى التحدث عن المظالم التي اقترفتها الملوك والسلطات لمصادرة الرأي ومقومة التعبير الحرة أثناء القرون الوسطى . كماكم يذكر من ذلك الشيء الكثير ، وكلكم يتفق على لاساية من تار هذا كله ، ثم كلكم يعلم أن نتيجة هذه المقاومة المتصلة كانت انتصاراً للرأي . وكان ظهور مذهب الجديد ، مذهب الإصلاح ، نتيجة لمقاومة حرية رأي ، وكان انتصار مذهب البروتستانت في أوروبا هو انتصار مذهب حرية رأي والصمير . على أن من مذهب البروتستانتية قد لقي مة ومات عيفة ، ولكن هذه المقومات التي لقيها في بلد كفرنسا ، انتهت إلى هذه النتيجة الباهرة التي قد نتحدث عنها في محاضرة أخرى ، وهي وجود طائفة من فلاسفة فرنسا يملكون حرية الرأي ، ويتحدثون التسامح منذاً سياسياً ، ويرون أن التسامح يجب أن يكون القاعدة العليا ، ولما مة لأولى والأخيرة لكل سياسة رسمية يكون عليها الحكم في بلد منقب يحترم نفسه ، ولولا هذه المقاومات العظيمة لما وجد فولثير وروسو ، ولما أعلنت حقوق الإنسان في أمريكا وفي فرنسا التي مارلينا يعيش في طها إلى اليوم

أنكم تلاحظون في عند ما عرضت لكم تاريخ حرية رأي قد سلكت طرق في العرب مد يد ثم إلى أن انتهت ولم ذكر الشرق ، وهذا صحيح ومنه واضح وهو الشرق القديم ، الشرق الذي كانت يسبق العصر اليوناني ، هذا الشرق لا نستطيع أن نجد فيه طلائعاً للرأي وحرية ، لاسكاد نجد شيئاً من هذا في تاريخ الشرق القديم ، ثم وجدت الخصومات حول رأي في الشرق عند ما يتصل الشرق باليونان أيام الاسكندر

أما الشرق لآخر ، الشرق الذي يتنبدى من نحو القرن السادس لمسيح والذي نعيش الآن في طله ، الشرق الذي تنثر الأمانة العربية ، الشرق الذي تنثر بالعرب والدين العربي ، الشرق الذي تنثر بالإسلام ، هذا الشرق لاسلامي أيها السادة ربما كان من تسعد أقطار الأرض من هذه الدحية ، وأحق أقطار الأرض بالاحلال ، ذلك أنه لم يعرف مد و حدود لاسلام مصادرة حقيقة ، حلقة بهذا الاسم ، تقوم على الحرب لمنظمة الحرية ربي ، تقوم الاسلام على حرية الرأي معينا له حريصا عليه . واطل من كل مكر حرم صدف في البحث وان يحل لا يستطيع بحسب من لأحوال أن يحل على الاسلام ، ولا على الدين لحصوله منهم صادروا الرأي وقادوا حرية رأي بوع من الأنوع .

من المحقق فيها السادة أن نظام لاسلامي نجد في تاريخه الأول هذه الحلقة الخالدة ، التي تصور الحرص على حرية الرأي ، والف مع حرية الرأي ، وإيثار حرية الرأي على الحياة . هذا النظام ظهر في هذه الحلقة الخالدة التي فاد الذي صلى الله عليه وسلم لعمه «و الله » وصعدوا الشمس في يميني والعم في يساري على أن أترك هذا الامر ما همت »

هذا النظام الذي نجد في تاريخه هذه الحلقة الخالدة والذي نجد في كنهه مقدس ولا كراه في الدين ، قد بين الرشد من العلي « لا يمكن بحل من لأحوال أن يكون في وقت من الأوقات خصه بحرية الرأي ، وكل من حاصم حرية الرأي فهو عدو للاسلام ومع ذلك ثم السادة فإن يرى لاسلام من العداوة لحرية الرأي ، ويرى من كل حصومه لحرية الرأي . ود كان لاسلام هو الدين الذي يحمل حرية رأي أصلا رسباً من بين المسلمين من يجهرون بمحاربة حرية الرأي ، ومن ينحدون الاسلام وسيلة لمحاربة الاسلام

ودا لم يكن بد من أن تؤدي اليكم بكل صراحة وشجاعة رسالة العقل ورسالة الاسلام معاً ، فاني على اليكم صدق ما يتردد « أن كل من يخاصم حرية الرأي فهو عدو للاسلام »

فولتبر

ميداني . سادتي

انتهيا من حرية الرأي في المحاضرة الخاصة الى هذا العصر الحديث الذي كان
فيه الصرع شديد بين مذهب الإصلاح وبين الكاثوليكية . وقد قلت لكم في آخر
المحاضرة ان هذا الصرع وهذه التهمة التي لقيها مذهب الإصلاح ، انتحاً ظهور
فلاسفة يدعون الى حرية الرأي ويجاهدون في سبيلها ويبحثون في جهادهم حتى انتهوا
الى ما انتهوا اليه من الثورة الفرنسية

وأريد اليوم أن أحدثكم عن فيلسوف من هؤلاء الذين دعوا الى حرية الرأي
وجاهدوا في سبيلها ، وانتهى بهم الجهاد الى نصر مؤزر وهذا الفيلسوف هو فولتير

وأحب قبل أن أحدثكم عن فولتير أن ألاحظ بعض الملاحظات التي لا بد
منها ، فاسم فولتير من هذه الاسماء التي تثير الحلب عند كثير من الناس ، ولكنها في
الوقت نفسه تثير البعض عند كثير منهم أيضاً ، ذلك أن هذا الرجل قد أحسن الى
كثيرين وأساء الى كثيرين . أحسن الى المصطفدين ، ولكنه أساء الى الذين كانوا
يصطهدون الناس ، أحسن الى الصغار ، ولكنه أساء الى الأقوياء . أحسن الى
المظلومين ، وأساء الى الظالمين . ومن حيث إن الظالمين عادة لا يظلمون عمواً ، وانما
يعتمدون على بعض لأصول والمبادئ ، يتحدثون سيلاً الى انطم ، ويتحدثون العدل
أداة الى الجور والحق سيلاً الى الباطل فلم يسيء فولتير الى الظالمين من حيث إنهم
ظالمون بحسب ، ولكنه أساء الى الظالمين ولى لأصول التي اعتمدوا عليها في ظلمهم
وجورهم ، وأطعنكم قد فهمتم ما أريد أن أقول ، فقد ذكره فولتير الاصطهاد الديني
وقاومه مقاومة عنيفة ، فلم يكتف بالأساءة الى الظالمين والمصطفدين باسم الدين ، ولكنه
اندفع في ذلك الى غير حد فأساء الى الذين ندمه وهو من هذه الناحية كان بعضاً

الى رجال الدين وما زال ميصاً اليهم ، وسيظل ميصاً دائماً الى كل مؤمن بدينه حقاً فأحب أن تلاحظوا اننى عندما أتحدث عن فولتير أتحدث عنه حديث مؤرخ ليس عبر ، ومواء لذي أ كان فولتير مصيباً أم مخطئاً ، أ كان مريضاً أم مغضباً . اما الذى يعنى من فولتير الآن ، هو ذلك الميلسوف الذى جاهد فى سبيل حرية الرأى وأثر جهاده فى الحياة الفرنسية أولاً ثم الاوربية بعد ذلك ، ثم الانسانية بوجه عام

ولد فولتير فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، بالضغط فى سنة ١٦٩٤ من أسرة من الطبقة الوسطى . كان أبوه موثقاً فى باريس ثم تنهى الى عمل فى ديوان المحاسبة . وفى هذا الوقت كانت الطبقة الوسطى فى فرنسا قد أحدثت تقدماً تقدماً واسعاً فى الحياة الاجتماعية كانت تظهر من التقدم فى جميع فروع الحياة ما مكنها من أن تفرض نفسها على الجماعة الفرنسية فرضاً . وكانت قد لقيت من معونة السلطان شيئاً كثيراً فاستطاعت أن تبرز مركزاً متماراً فى التجارة والصناعة والأعمال الحرة بوجه عام ، بل استطاعت أن ترقى الى المنصب العامة بعد ان كانت هذه المناصب مقصورة على طبقة الأشراف ، بل استطاعت أن ترقى الى طبقة الأشراف بها بواسطة هذه القرارات والمراسيم التى كان يصدرها الملوك ويرفعون بها الرجل من الطبقة الوسطى الى طبقة النبلاء

ولد إدم فولتير من أسرة من هذه الطبقات الوسطى شعبة عصبية الخط من النشاط . وكان أبوه بحكم صناعته متصلاً بالطبقات الراقية وبأكبر النبلاء فى باريس ، كان موثقاً لجماعة عظيمة من الكبراء اباريسيين ، فكان يلقاهم ويتحدث اليهم ، وكانوا يزورونه ويزورهم . وكان الشعراء الذين امتاروا فى القرن السابع عشر فى فرنسا من نفس طبقة فولتير ، كورنى وبوالو وراسين وموليير وغيرهم ، كانوا كلهم من هذه الطبقة

نشأ فولتير ادباً فى بيئة لا بأس بها ، ليست معدمة ولا فقيرة ، بل طب خط من اليسار والعنى . ثم ليست محطلة من الناحية الاجتماعية بل راقية مخترمة . ثم هى مفرقة من النبلاء ومن يتصلون بالقصر والذين يتقربون اليه . ثم هى بحكم هذا كله على

اتصال بالصالونات الأدبية التي يروى فيها شعر راسين وموليير وكورنى وغيرهم من
الأمم، التي تقرأ الاندية في باريس في ذلك الوقت
ولم يكد فولتير يبلغ العاشرة من عمره حتى ارسل الى مدرسة من مدارس
اليسوعيين ، فتعلم فيها

وكانت مدارس اليسوعيين في ذلك الوقت هي ارقى المدارس في فرنسا تعلم فيها
ديكارت قبل فولتير برمن طويل . ولم يكد ينتمى فولتير الى الثامنة عشرة من عمره
حتى كان قد اتم تعليمه وأخذ يظهر شخصيته الأدبية واضحة حلية . بل لم يكد
يتجاوز العشرين حتى أخرج القصة الخيالية الأولى من قصصه المسرحية وهي قصة
(أوديب)

ولكن فولتير تأثر جداً بالحياة الأدبية ، وكان تأثره بها أشد مما كان يريد أبوه ،
فكان يميل الى الشعر وكان يميل الى الغلبة والهم وحياة الادباء الفارغة من كل
ما يفيد المال ويمكن صاحبه من الكسب المادى ، فعضب أبوه وأبكر عليه هذا أشد
الانكار وأراد أن يصرفه عن الأدب ، وجاهد في ذلك ما استطاع ولكنه لم يوفق .
وأراد أن يصرفه الى صناعة تعود عليه بالعائلة المادية . فحشد في أن يلحق ابوه
برحل من عظماء فرنسا وهو سفير فرنسا في هولندا لعله يتربن على بعض حياة الجدل .
وسافر الفتى مع السفير ولكنه لم يكد يصل الى لاهاي حتى عرف سيدة فرنسية لها
ابة جميلة حلابة ، فالتصل بالسيدة ، واتصل بامانة . وكان بينه وبين الفتاة خطوط ،
واشكت السيدة الى السفير ، واضطر السفير الى أن يرد هذا الفتى الى باريس . وها
حاول الرجل أن يصرف ابوه مرة أخرى عن الأدب ، وحد في ذلك ، ولكنه لم يوفق
حتى انتهى به الأمر الى أن توصل الى أن يتعلم بأمر القبط على هذا الفتى
وارماله الى السجن . فقبض عليه وأرسل الى السجن وقضى فيه حياً ثم خرج .
وكان أبوه يظن أن هذا التأديب سيصرفه عن الأدب ، ولكن ذلك زاده إلحاحاً
فيه وتمسكاً به .

وما زال الفتى يجتهد في صناعته هذه ، وفي حياته الأدبية حتى نجح في التمثيل ثم
أخذ يظهر آثاراً أدبية تشر فتى نجاحاً وأخرى تشر فتى غصباً وسخطاً ، وأبوه ضيق

بذلك كاره له حتى انتهى به الأمر الى أن صدر أثرًا أعجب الملك والملكة ، وصدر القرار بأن يخصص له مرتب من القصر ، وهما أحسن والد فولتير أن الأدب صناعة لا يأس بها .

على أن فولتير كان أديبا نادق معاني الكلمة ، وادق معاني الكلمة هذا أنه كان مصطربا لا نظام له في الحياة يدفع في اللهو الى أقصى حدوده . وكان صاحب عث وطوما وسعه العبث واللهو . وكان أدبه يقر به الى الطبقات العليا في فرنسا ، ولم يكده يبلغ الخامسة والعشرين حتى كانت معروفا في أرقى الطبقات في باريس وخالف الأشراف والنبلاء .

ولكنه كان حاد اللسان حاد الطبع ، انتهى به هذا الى أن أعصت بعض الناس وأخفق عليه بعض السلا ، فعزى به هؤلاء السلا . وحلا من المقرين الى القصر وهذا الرجل اسمه الشماله دي روهان Chevalier du Rohan الذي قرر أن يكلف بعض خدمه أن ينتظر فولتير حين يخرج من الملعب وأن يصب عليه بعض المعصى ، فانتظروا الخدم حتى خرج ذات ليلة من الملعب ثم تلقوه بمصيرهم وأخذ السلا يرون هذا ويصعكون لذلك . خلق فولتير من ذلك الوقت على السلا . وأخذ يشعر شعورا حادا حادا معروف بين النبلاء الممتازين وبين الطبقات الأخرى الوسطى أو الدنيا التي لا حظ لها من الامتياز .

حاول فولتير أن ينظم لنفسه ، وأن يبارر هذا الرجل ، ولكنه لم يوفق الى شيء من هذا ، ولكن الذي وفق اليه انما هو صدور أمر الحكومة بانقضى عليه وانقائه في السجن فأرسل الى الباستيل ، وأمضى به نحو سنة . وفي هذه المدة بدأ كتابا من كتبه التي تناحت له شهرة عظيمة وطال عليه السجن ، وأخذ الذين يحبونه يعملون على إخراجهم ، ولكن الحكومة أذنت بإخراجه من السجن على أن لا يبقى في فرنسا ، فقبل وأعطي على نفسه عهدا بذلك فخرج من السجن وعبر الماش الى إنجلترا حيث أقدم ثلاث سنوات من سنة ١٧٢٦ م الى أواسط سنة ١٧٢٩ م

هذه المدة التي أقامها في إنجلترا كانت عظيمة الأثر في حياته ، وكانت عظيمة الأثر حدا في حياة الأدب الفرنسي . بل في حياة الفرنسية العامة من جميع الوجوه ،

كان فولتير شديد لذكاء قوى الطبع حاد المراجع سريع التأثير بكل ما يرى ويسمع ويحس ، شديد التأثير بالدين عاصروه ، والمجددين منهم خاصة ، كان ميالا الى المحافظة في الأدب ، متأثراً بالأدب اليوناني واللاتيني . وأدب القرن السابع عشر ولكنه في الفلسفة كان مجدداً جداً ، كان معروفاً عن الفلسفة الرسمية في فرنسا أشد لانحراف متأثراً بالحركة الجديدة وهي حركة لميل الى الموم التحريرية . ولم عبر البحر الى بلاد الانجelier صادف حسن ثمة لهذا الميل ، فلم تكن هناك في أوروبا أرض أثر فيها العلم التجريبي كإنجلترا

ويكفي أن تذكروا أن فولتير عبر البحر الى إنجلترا في عصر كانت تدود فيه فلسفة « نيوتن » و « ستوكشافان » العمية . لم يكند فولتير يصل الى إنجلترا حتى انغمس في الحياة الأدبية الانجليزية انهماكاً مذهشاً ، وحل الى نفسه في قرية من القرى الانجليزية ، ولم يكند يتم سنة ونصف سنة حتى أمس اللغة الانجليزية إتقاناً مكه من أن يشرب فيها كتابين ، ود الكتابان يطهران سحاح عظيم .

على أن فولتير حين سافر من فرنسا الى إنجلترا لم يسفردون أن يصطحب معه كتاباً تقدمه الى بعض كبراء الانجelier وبينهم كتاب الى سفير فرنسا في لندن ، وهذا السفير قدمه الى عظماء الانجelier وبلانهم ، عندما وصل فولتير الى إنجلترا واتصل بهؤلاء لم يكن الا الفرنسي الذي يتأثر بالحياة الفرنسية وحية الطقة الوسطى في فرنسا التي لا تلتزم الحجة الانجليزية الدقيقه سيما حياة السلاء والمتارين . ويقبل به عندما زار الشاعر لانجelier المعروف « بوب » دعه الى امدهاء ، وكان فولتير ضعيفاً معموداً فأخذت روج الشعر تحته على لأكل ، وأخذ فولتير يقص عليهم الاسباب التي من أجلها يشعر بالألم ، فكان في هذه القصص بسيطاً يسيراً فراسياً بأدق معاني الكلمة ، نسباً ومتجاهلاً تقليد الانجelier حتى ان اللادى حين سمعت هذا كله ضافت به وشمازت وتركت المائدة وانصرف .

اتصل في إنجلترا بفلاسفة الانجelier الذين كانوا يعاصروه ، وقرأ آثار الفلاسفة الذين سبقوه ، واتصل بالشعراء ورجال المال والسياسة ، وتأثر بالحياة الانجليزية في جميع أطوارها وفروعها أشد التأثير ، وفي هذه المدة التي أقام في بلاد الانجelier أتم كتابه

الذى كان قد بدأه في السجن ، وشره صار في هذا الكتاب بنجاح عظيم ، وهو قصيدة قصصية عن حياة هنرى الرابع والحروب المدية الفرنسية . وفي سنة ١٧٢٩ سعى حتى أذن له بالعودة الى فرنسا ، لأنه لم يستطع أن يعيش في المنفى عيشة هادئة ، إنما اشتغل بأشياء كرهها منه الانجليز : اشتغل بالسياسة ، وبالسياسة الدولية اشتغل بشئ . يوشك أن يكون نجساً وسعى بين رجال القصر وبين بعض الافراد من السلا ، فكرهه اولئك وهؤلاء ، واصبحت الإقامة في المنفى عليه أمراً متعذراً ، فاستأذن حتى أذن له بالعودة الى بلاده ولكنه لم يعد صفر اليدين إنما عاد مملوء القلب والعقل بما أخذ وحط في بلاد الانجليز ، ومملوء اليد ايضاً بما كسب من مال ، ولم يكند يستقر في فرنسا حتى أصدر كتاباً سماه الرسائل الانجليزية أو الرسائل العلمية ، والفرض الاساسى من هذه الرسائل هو المقارنة بين الحياة الانجليزية والحياة الفرنسية ، هذا الكتاب وضعه بالطبع باللغة الفرنسية ولكنه نشر ترجمته بالانجليزية في بلاد الانجليز أولاً ثم عاد ونشره في فرنسا ، ولم يكند يظهر ما في هذا الكتاب من وصف الحياة الانجليزية والثناء عليها ، وذكر الحرية الانجليزية المليب - الحرية الشخصية ، حرية الصحافة ، حرية الفكر السياسي - ومن ذكر العلاقة بين الشعب والملك وبين الشعب والوزراء ، وبين الشعب والبرلمان ، لم يكند يعصل هذه الاشياء ويبين الفرق بينها في المنفى ، وبين الحياة الفرنسية الخاضعة للاستبداد الذى لاحد له ، حتى أحدث ثورة عنيفة جداً في بلاده اشترك فيها رجال السياسة والدين والجيش والقصر والوزراء ، وأصدر البرلمان حكمه بتحريق الكتاب ، وضاطر فولكير الى أن يهرب الى الحدود العرسية الى اللورين ، وهناك نزل صبيحاً على قصر من قصور البلاذ وعاش أعواماً في هذا القصر ، كان لها ايضاً أثر ليس أقل من الأثر الذى تركته الأعوم التى قصاه في المنفى في حياته ، كانت صاحبة القصر سيذة اختلفت فيها آراء الناس ، قالوا انها شديدة القبح وكانت نزعها حيلة ، وبعض الناس يقولون انها كانت على شئ من الجلال ولكنها كانت ساحرة خلابة على كل حال ، هذه السيدة هى مدام دى شاتيليه ، احبها فولكير وراحتة وكان جهاهما عرياناً حقاً كان فيه ما يكون في الحب عادة ، ولكن كان فيه شئ آخر هو هذا الحب العلمى العالى . فقد كانت مدام دى شاتيليه مثقفة ثقافة

علمية راقية، كانت شغوفة جداً بالعلوم التجريبية وبعلم الطبيعة بنوع خاص فحيت هذه العلوم الى فولتير، او دفعته اليها دافعاً، القصر يستحيل الى مدرسة أو معمل طبيعة، واذا العاشقان يشتركان في التحارب العلمية المختلفة وكانت على ذلك توجه في العلم والادب، وتسيطر على ما يكتبه من الآثار العلمية، وتطلب اليه ان يخفف من هذا أو ذاك، وتأذن له بنشر هذا أو ذاك، ثم هي تسي في الوقت نفسه في ان تظهر بالعمو عنه في القصر، وما تراد نحمد حتى توفى، واذا فولتير يعود الى باريس بل الى فرساي واذا هو مرضى عنه يختلف الى القصر، ويخلط عن فيه من الأشراف والنبلاء، وبشترك معهم في الحياة، ثم يداهم فولتير الى المانيا فيتصل بفردريك ملك بروسيا ثم يعود ويعيش في فرساي عبثة سيدة حداثاً، وقد ظفر برضى الملك، وصاحبة الملك مدام دي عبادور وهو في هذه الحياة بين مدام دي عبادور وصديقه مدام دي شاتيليه.

ولكنه أديب حاد الطبع، طويل اللسان مدفع الى الحرية، مدفع البهاق غير تحفظ حتى يصيب به السلا في هذه المرة كما ضاقوا به قبلاً. ثم في ذات ليلة كانت صديقه مدام دي شاتيليه تلعب الورق، وتحمس وتسرف في الحارة. فقال لها فولتير بالانجليزية، لعلك تلعبين مع جمعة من الفرس يسرفون في العش، وسمعت جملة فولتير وتآلب عليه النبلاء، وتعرض لخطر عظيم، واضطر الى أن يهرب من القصر مع صديقه مدام دي شاتيليه ون يعيش مشرداً.

وفي نحو سنة ١٧٥٠ دعاه فردريك الى أن يتصل به، وذهب اليه فأقام عنده أعواماً، وكان الحب قوياً جداً بينه وبين الملك الألماني، وكان هذا الملك شديد الحب للأدب الفرنسي، وكان لا يتحدث ولا يكتب الا باللغة الفرنسية حتى قال فولتير إن اللغة لألمانية في المانيا هي لغة الشارع والحليل، أم لغة القصر ولغة المثقفين هي اللغة الفرنسية.

كان إذن فولتير سعيداً مع صديقه ملك بروسيا، ولكنه لم يتحرج من أن يتصل بالسياسة هناك أيضاً، وأن يحاول العمل لفرنسا، وفي أن يحدث أو يشي. بعض العلاقات الودية بين فريدريك وفرنسا. ولكن فولتير كان أديباً، وكان حاد الطبع، حاد اللسان أيضاً، فلهي لأن أخذت الغيرة تظهر بينه وبين الملك،

وأخذ الناس يتحدثون بأن فولتير عين على الملك ، لأنه يعيبه على أن يظهر ما أظهر من آثار . وأخذ الملك يظهر شيئاً من الصيق فولتير كما ضاق فولتير به ، ثم ينتهي الأمر بحطوب تعصب الملك على فولتير . فيصطر فولتير إلى أن يترك باريس وأن يعود إلى فرنسا . فأنتم ترون أن الرجل كان مضطراً مشرداً ، يشاء مصطهداً في فرنسا ، ثم يصطر إلى بلاد الانجليز . ثم يعود إلى فرنسا ، ثم يصطر إلى اللورس ، ثم يعود إلى باريس ، ثم إلى ادب . ثم إلى مرة أخرى بعد أن عصب عليه فردريك ، وبعد أن تعرض للخطر هناك

ولكن فولتير لم يكن ديباً خصباً ولكنه كان هزاً في الكتب لئلا ، ومهراً جداً في إحصاء الملوك والعشيق بهم لتعلق ، وفي الكتب لئلا منهم إلى أقصى حد ممكن . ثم كان مصاراً ماهر في المناورة . فلما عاد من ادب كان قد كون لنفسه ثروة ضخمة حقاً لم يظهر بها أدب قط ، فكان يستطيع أن يجد لنفسه مكاناً يعيش فيه بعيداً عن الكبد والدمع . عشة حرة مترفة مخلوقة بالعلم . وقد فعل ، فذهب إلى سويسرا ، واشترى لاسعة دراً في جنيف ، وأخرى في لورس ، ورأى اللشت ، وأخرى للجنيف ، ولكنه لم يكن يسافر في جنيف حتى أعصب منه أهل المدينة ، أعصبهم بسبب بسط ، فقد كان فولتير كاتباً ماهر وسعراً عصبياً في تمثيل خاصة ، وكان يحب التمثيل بينما كان أهل جنيف متأثرين بمذهبهم مذهب « كلن » حريصين على حياة نواشك أن تكون شديدة الحشوة ، فكانوا بكرهوا التمثيل والكوميديا بوج خاص . فلما سمعوا تمثيلة الكوميديا في منزله فخرجوا وعصوا ، وما كادوا يسمعون أن فولتير سيق إلى المنين حتى اجتمع مجلسهم وطلبوا إليه ألا يفعل ، وحس فولتير أنه سيق مقاومة . فاجتمع معه قاعدة وسطاً واشترى في فرنسا ولكن قريباً جداً من جنيف - أرضاً تحدها فيها قصر ، وهي في قرية ، إلى بعد نصف ساعة من جنيف فكان له إذا قصره في جنيف ، واستأجر أرضاً محيطة في قرية واتخذ لنفسه أيضاً فيها مقاماً ، ورأى أنه على هذه القاعدة يستطيع أن يكون في فرنسا وسويسرا في وقت واحد فهو يلجأ إلى فرنسا حين بكرهه أهل جنيف ، ويعود إلى جنيف حين يضيق به أهل فرنسا ، دون أن يكلمه ذلك لاسيرة نصف ساعة ، وكتب إلى بعض أصدقائه

يقول « لقد أصبحت الآن رجلاً تقوم على أربع لي رجلان في سويسرا ، ورجلان في فرنسا »

أخذت حياته بعد ذلك تعرف الهدوء . ولكنه الهدوء الحبيب المتبع الذي نستطيع أن نطابق لأدب القديم والحديث فلا نطفر بهدوء يشبهه خصباً واثقاً ، فقد قضى في هذه الحياة الحسنة هذنة استعد أكثر من عشرين سنة . كان فولتير صديق الصحة مثلاً دائماً ، ولكنه عمر حتى ينف على الثمانين ، ومع أنه كان مريضاً دائماً أنه كان متعافياً ، متعافياً جميع فروع الإنتاج الأدبي والعقلي التي عرفها هذا العصر ، كان متعافياً في الشعر ، في التاريخ والفلسفة ، متعافياً في كل ما كان يتعرض له لأدب ، والفلسفة في ذلك وقت . ويكفي أن نتموّن آثار فولتير عدداً هائلاً وطبعت تمت سبعين مجلداً صغرى .

ما الذي أراد أن يصوره حكم هذا هذا التحصيل الصليل فهو جهاد فولتير في سبيل حرية الرأي . هو هذا الجهد منذ أخذ فولتير يفكر ويكتب في فرنسا قبل أن يسافر إلى إنجلترا ، مع عدد من نحن ، كان قد شنت أمة الحزبية الانجليزية ، وفتح شدة الانتعاش مثل الأعلى في الحرية هو هذه الحرية لا محالفة التي سيج للناس أن يذكروا ويذكروا وأن يشعروا ويصنعوا ويمكروا وما يكتنون . وكان اهتمام فولتير ونحرق كتابه ودعوه إلى الهدى سبيل لدفع عن حرية الرأي ، فكانت كل كتبه التي كتبها في التاريخ أو الفلسفة أو الأدب تنتهي دائماً إلى غاية واحدة هي كسب هذه الحرية حرية التفكير وحرية الاعلان

ولكن هذه الحرية التي جاهد فولتير في اكتسبها صون حياته صهر حياته فيها خصباً متعافياً عدداً استقرت به الدار في سويسرا وفي فرنسا .

في ذلك الوقت كان فولتير تينياً عجمياً ، كان فولتير رجلاً كالرجال ولكنه كان دائرة معارف . وكان في الوقت نفسه صحبياً لا يصدر حريضة بل كان يصدر كتباً ورسائل ومقطوعات ويدبج هذا كله بطرق مختلفة من طرق الاذاعة .

أخذ قصره معبلاً للأدب والفلسفة والتاريخ والتقدم على اختلاف أنواع التقدم يعنيها من كل هذا الآن قدده للحياة العربية . لم يكن فولتير كغيره من الفلاسفة

المعاصرين صاحب مذهب معين واضح منظم في السياسة أو الفلسفة السياسية، إنما كان عميلاً، يلاحظ الحياة الفرنسية العملية، وما فيها من العيوب السياسية والاجتماعية ولا يكاد يلاحظ عبثاً في الحياة السياسية إلا قيده، ثم فكر فيه تفكيراً يسيراً، ثم كتب فيه كتاباً أو رسالة، ثم تطبع خلسة في السردون أن يشعر أحد بها ثم تنقل بها حقائب المسافرين الذين كان فولتير يكثر الاتصال بهم، وإذا هؤلاء ينشرون في فرنسا ويذهبون إلى باريس وغير باريس، وإذا كتب فولتير عملاً الأرض الفرنسية ولا يكاد يمضي شهر بل لا يكاد يمضي أسبوع حتى ينتشر في فرنسا رسالة أو كتاب صميم من ناحية من النواحي الاجتماعية أو السياسية في فرنسا، حتى أصبح فولتير في العشرين سنة الأخيرة من حياته سيطراً على الرأي العام الفرنسي بل الأوروبي كله حتى أصبح الرأي العام الفرنسي أداة بصرفها كما يحب وكما يشتهي. وقد طهر أثر هذا ظهوراً واضحاً حياً في بعض المحادثات فقد أنهم في تولوز رحل من البروتستانت بقتل ابنه، وحوكم الرجل وحكم عليه بالموت وأخذ فيه الحكم، ووصل إلى فولتير أن هذه القضية قد وقع فيها خطأ قصائي وأن الرجل بريء. فهتم بالأمر وأخذ يدرس القضية وتبين أن الرجل كان بريئاً، وأنه لم يقتل فأخذ يدافع عن الرجل وأمرته وأخذ ينشر الرسائل ويسعى لدى رجال القضاء والقصر ورجال الدولة ويسري دفاعه ثراً وشهراً حتى الب الرأي العام الفرنسي تأليفاً عنيماً حتى صدرت أوامر القصر بإعادة النظر في القضية. ثم تقرر القضية من جديد ثم يظهر أن الرجل بريء. ثم يلجأ الحكم وتبرأ أسرة هذا الرجل ويرد إليها اعتبارها.

هذه الحركة في قضية كالاس حلت للفيلسوف مكانة أخرى في فرنسا غير مكانة الفيلسوف والأديب والشاعر. نظر الشعب إلى فولتير على أنه حامى الشعب وقائده إلى الحرية، ومقد الشعب، وأنه حامى المصطفيين، ومن هذا الوقت تعمل تأثير فولتير في قلب الشعب، واتصل الشعب بقلب فولتير.

وأخذ فولتير كلما سمع عن تقيصة يبحث فيها ويبحثها ويكشف أسرارها ويدد ويسمى عند الحكومة والمحاكم والقصر في إزالتها وكان ينتصر في أكثر الأحيان حتى أصبح رعباً نادق معاني الكلمة وأوسمها، وهذا كله لم يصرفه عن الاتج

الادبي الراقى الذى هو انتاج المترفين فى الفن كما أنه لم يصرفه عن العمل فى الاتصال السياسى بملوك أوروبا فكان على اتصال غردريك وكاترين وكبيراء ، لانجليزية .

وعلى هذا النحو أصبح فولتير ملكا فى صيته هذه . ملكا بأوسع معانى الكلمة مستمتعاً بما كان يستمتع به الملوك من السلطان المملى والقانونى أيضاً - له قصره وله حاشيته وموظفوه وهو فى الوقت نفسه رعيم لشعب عظيم هو الشعب الفرنسى ، وهو قائد الرأى العام الجديد فى أوروبا ، هو داعية الحرية والمدافع عنها فى جميع الاقطار الأوروبية ، لا عند عامة الشعب بل عند الاشراف والسلا . كذلك .

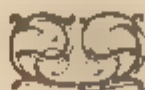
وفى أواخر حياته فى سنة ١٧٧٨ كان فولتير قد وصل الى أهد ما يمكن أن يصل اليه رجل من الشهرة وبعد العيب والحب فى جميع الطبقات الفرنسية حتى كانت الملكة تتهنى لو استطعت أن تراه وأن تلمسه . وكان اهل باريس يشعرون بشوق الى لقاء فولتير وكانوا يلحون عليه إلحاحاً شديداً أن ينزل الى باريس واضطر الى أن يستجيب للباريسيين فامر الى باريس فى فبراير سنة ١٧٧٨ ولا استطاع ان يصور لكم ما تدركه الكتب عن احتفال الباريسيين بهذا الرجل . وعن هذا المجد العظيم الذى لم يطمعه أديب ولا فيلسوف من قبل . كن فولتير أديباً ، ومعنى هذا أنه كان يحب المجد ويكلف الشهرة ويحرص على السلطان . وكانت هذه الأشهر القصيرة التى قضاه فى باريس أسعد أيامه ، فكان منتصباً دائماً وسكت حصومه جميعاً فلم يسمع الا صوته المجد والاعجاب وكان فى الخامسة والثمانين من عمره وكان ضعيفاً ، ولكنه اندفع فى أساب المجد الذى لقيه فى باريس ، فكان كثير الحركة والانتقال يذهب الى الملعب ليذهب لثقل ، ويذهب الى المجمع القومى ليعرض على المجمع مشروع معجم جديد للغة الفرنسية ويذهب الى القصر ويذهب هنا ويذهب هناك . وهو مع ذلك قليل الأكل كثير الشرب للقهوة فقد كان يشرب خمسة وعشرين قدحاً فى اليوم الواحد . وفى أوائل مايو أدركه المرض واستأنس الأطباء وأخذ فولتير يحس ألماً شديداً : المايجمايا والمناخسيا ، وكان يعتقد أنه لو استطاع أن يعود الى ملكه فى قرية لاستطاع أن يعي نفسه عاية تعصمه من الموت فى حين ، وكان يتوسل لى طيه أن يخرج من هذه لورطة ،

ولكنه أشرف على الموت وعرف أنه مشرف على الموت ، وهما أخذ رجال الدين يسمون حوله ويتحركون ويسرفون في الحركة ، يريدونه على أن يموت مسيحياً كاثوليكياً . ولكنه في بظهر لم يكن مستعداً لأن يستعيب لرجال الدين في كل ما كانوا يريدونه منه ، اد كانوا يريدون منه أن يعين إيمانه لكاثوليكية وأن يرفض كل ما كتب . فكتب لهم شيئاً عاصياً ، فخلعوا عليه ، ولكنه طلب اليهم أن يتركوه ، وأن يدعوه يموت هادئاً ، ثم كتب لاسلام أو لرأى الذي مات عليه ، وهو يلخص في هذه الكلمات « أموت عند الله محمداً للأصدقاء غير كره للأعداء عدواً للاضطهاد » وفي اليوم العاشر من ديسمبر سنة ١٧٧٨ توفي فولتير ورفض رجال الدين أن يدفن في باريس في مقبرة الميمنية ، وكان فولتير قد قبل المفاوضات مع رجال الدين اتقاء لهدد الرقص ، كان يريد أن يدفن كما يدفن الناس ولكنه لم يفته الى هذه النتيجة التي كان يسمى اليه فاني القسيس أن يدفعه ، ولكن بعض أصدقاءه أجمعو حثته إحداه ، وجرحوا بها من باريس جلسة . ودفعوا بها الى شامباني « وهذا تلقاه رئيس ديبى ودفعه كما يدفن الصابى ، وما كاد هذا القسيس يعمل ذلك حتى عرل من عمله . على أن يصح عشرة سه لم تكند تنقضي على موت فولتير ورفض رجال الدين دفعه حتى تعبرت لجل وأعلنت الثورة الفرنسية . ثم قررت فرنسا ممثلة في نوبها أن ينقل جثث فولتير من سامسني الى اوشيون حيث يستقر عظماء الفرنسيين

ليس من شئت أن فولتير أنه الى رجال الدين ولى الدين المسيحي . بل الى الأديان كلها ، هو كان عدواً للديانات ، وكان يعطل ذلك ولا بأن للديانات محالمة للاساية لأنها سبب لاضطهاد ودماء ، وثانياً بأن الديانات محالمة لامل لأن فيها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها ، وثالثاً بأن الديانات عنده ديمقراطية وهي من خصائص الطبقات المحبطة لاتصل بالطبقات العليا ، فولتير لم يكن ديمقراطياً محال من الأحوال . هذه الأساب الثلاثة هي التي بعصت اليه الديانات ، ولكنه اندفع في رفض الديانات الى سحب كثير لا حده له فقد هاجم التوراة والكتب المقدسة كلها من أجل هذا كان فولتير بعيداً بل مارل بعيداً كما قلت لكم الى رجال الدين بل الى كل مؤمن ، ونظير آثار هذا البغض حتى في هذه الايام فالذين يؤمنون

ويحبون دينهم بفضول فولتير بعضاً شديداً حتى في تقدم له ، وانقاد من المسيحيين يتكرونها حتى يصد هذا الغرض كل شيء في تقدم ، ويكنى أن تقرأوا ما كتبه « اميل فاجيه » عن فولتير وما كتبه « بول سوديه » فثرون الناقض الشديد بينهما أحدهما مسيحي مؤمن شديد الإيمان فهو مبغض لفولتير ، وبغضه يدفعه الى أن يتعصب على فولتير فيفسد عليه انصفه فاداً قرأتم رأيك لاجيه فثرون ان فولتير عدله رجل لاحظ له من فلسفة ولا شيء ، إلا أنه كان رجلاً أحسن كتابة الرسائل حتى مع فيها . ومع ذلك فرسانه ليست شيئاً القياس الى رسائل غيره . فذا تركتم هذا الرجل وقرأتم (بول سوديه) الذي لم يكن مؤمناً وانما كان حر الرأى كما يقولون في فرنسا مستجدونه يملو في حب فواير وإكباره حتى يرفعه الى الألوهية الادبية ، وكذلك يختلف الناس في فولتير يحبه قوم كثيرون فيسرفون في حبه . وينفصه قوم كثيرون فيسرفون في نفصه .

ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أن فولتير كان لسان حرية الرأى ، والمجاهد في سبيلها ، وصدق ترجمان لأمانى الشعب الفرنسي بل الشعوب الأوروبية في القرن الثامن عشر . وهو من أهم بل من أكبر الذين وضعوا أسس الثورة الفرنسية وحسبه ذلك فخراً



9-21



ميداني ، ساداني

الرجل الذي أريد أن أحدثكم عنه الليلة رجل غير عادي ، لذلك أرجو أن تستمعوا للحديث عنه بعناية خاصة . فهو ليس كغيره من عظماء الرجال ، يمتاز بشوغيه ونهوقه وبراعته فحسب ، وانه يمتاز بشيء آخر ، يمتاز بأنه كان مريضاً ، وكان يائساً ، وكان سيئ الحظ ، وكان محبوساً أيضاً ، فالتقنين يريدون أن يدرسوا جان جاك روسو ، والذين يريدون أن يتحدثوا عنه في حاجة الى أن يتأهّلوا لهذا الدرس وهذا الحديث شيء من العطف والرحمة والكثير جداً من الاشتياق . فقد كان ذلك الرجل العظيم حقاً شدة الدس اثاراً للعطف والاشفاق . وان كان في حياته قد أثار البغض والمقت أكثر مما أثار أي شيء آخر

جان جاك روسو فرنسي الأصل ، سويسري المنشأ ، أسرته فرنسية ، هاجرت من فرنسا في القرن السادس عشر الى سويسرا ، ولم تلبث أن كسبت بمدينة جنيف الحقوق الوطنية فأصبحت سويسرية

ولد جان جاك روسو في أوائل القرن الثامن عشر في ٢٨ يونيو سنة ١٧١٢ وكان أبوه رجلاً غريباً ، مسرفاً في المعبث والمجون ، يصنع الساعات ، ويعلم الرقص ويسرف في الهم ، وعندما ولد جان جاك قضى على حياة أمه فانت اثناء ولادته ، ثم سافر أبوه هارباً من جنيف وترك ابنه من غير عائل فنشأ نشأة مهملة شديدة الإهمال ، ليس له من يعني به إلا أقاربه والمتصلون بأسرته ، وكان أظهر شيء في حياة روسو الأولى هذا الإهمال . ومن هذا الإهمال نشأت الصفات الأولى لروسو ، فقد أخذ يقرأ كل ما يستطيع أن يقرأ سواء في ذلك الجيد والردى ، ولم تكن هناك مراقبة ما على حياته تضطره الى أن يستقر في بيته أو في بيت من أوى البيس ، فقد كان يخرج

إذا اتبع له الخروج ، ويطوف في الشوارع ، ويطوف خارج المدينة ، ودفع بعد أن تقدمت به السن إلى مكاتب بعض الموثقين فلم يصنع شيئاً ، وقل رئيسه أو معلمه أنه لن يكون إلا حماراً ، وفي سن السادسة عشرة من عمره كان تظهر ما يمتاز به من الصفات حب الهيام في الشوارع والطرق ، وخرج ذات يوم خارج المدينة يتروض ، فطال عيابه فلما أن عاد وجد أبواب المدينة مغلقة فقرر أن لا يدخل المدينة أبداً ، فسار في طريقه حتى فرق سويسرا ودخل الحدود الفرنسية

ومن ذلك الوقت بدأت حياة جان حالك التي تمتاز بالهيام والاضطراب في غير نظام ، لقي قسيساً عبي به ثم قدمه إلى امرأة كانت تقيم في السبي ، وكانت هذه المرأة كاثوليكية غريبة الأطوار ، سبته السيرة ، كثيرة السكيد ، وكانت تشتمل بالحاسوسية ، وكانت حبيبة . مؤثرة الجمال ، تنصيد الشباب لتؤثر فيهم ولتخرجهم من البروتستانتية إلى المذهب الكاثوليكي ، عيبت هذه المرأة بالشباب وأرسلته إلى تورينو في إيطاليا ، وهناك دفع إلى جماعة من الرعاع ، أخذوا يؤثرون فيه حتى أخرجوه من دينه وحملوه على اعتناق الكاثوليكية . ولسكن جان جاك مع ذلك كان كارهاً لحياة الرهبان ، ولكنه طامعهم واعتنق الدين الجديد ، ولما تم اعتنقه للدين الجديد أخرج من الدير ، ودفع إليه مقدار ضئيل جداً من المال ، فأقام في بعض العرف التي استأجرها وأخذ يابو حتى استنفد ما كان معه من المال الضئيل ، ثم احتاج إلى أن يكتب فقدم نفسه إلى بعض القصور على أن يكون خادماً ، وأقام في هذا القصر وقتاً ما ، ولكن لم يطل فيه المقام لأنه سرق ولم يكتف بالسرقة بل أنهم خادماً بأنها هي التي سرقت ، فأخرج وأخرجت معه الخادم ، وهام على وجهه مرة أخرى وعاد إلى صاحبه مدام دي فرانس وأقام عندها ، وحدثت هذه لكي تجده له عملاً ، ولكنه كان كلاً على مولاه ، أيم يوحه لا يأت بخير ، ومن العسير جداً أن تتبع جان جاك في حياته هذه المصطربة ، فقد كان كثير النقل والارتحال ، كثير الاضطراب في حياته وفي سيرته وفي كل شيء . ولسكن منزل مدام دي فرانس كان هو ماوى اندي يأوي إليه من حين إلى حين

والذي أستطيع أن أؤخره لكم ، هو ان حياته مع مدام دي فرانس كانت

شديدة الأثر جد في سيرته كلها ، فقد عطلت عليه المرة في أول الأمر عطف السيد الذي يحمي ذلك العنى الصعب . ثم لم يكده هذا العنى يبلغ العشرين ، حتى استعالت الصفة بينه وبين هذه المرأة أن شيء هو العشق ، والعرب انه كانت يدعوها أمه وكانت تدعوه ثم للصغير ، وليس هذا كل ما نمت اليه حياته مع مدام دي فرانس وما هي إلا أوقات قصير حتى يظهر لها جاك انه لا يستثر وحده بحب أمه هذه ، وإن له شريكاً في هذا الحب وإن هذا الشريك استسفي ، وهو مضطرب في هذا الحب العربي تدور سسه على هذه الشراكة ولكن الحاجة تدفعه الى قبوله ، وينتهي به الأمر الى أن يحصع ، ثم تخصصه لأفرد من شريكه هذا لأنه يموت مسموماً ، ويحمله فلا أمه ، ويخصص له حبه . رسكه سبي . اعظم ما أسرع ما ترسل اليه لأفرد شريكاً آخر ، وما أسرع ما يرى نفسه مضطراً بين أن يقر موطنه لطبيعية ، وإلى أن يخضع مرة ثانية لمثل الشراكة الآتية التي حصع لها في المرة الأولى

على أن مدام دي فرانس كانت تعيق به بعض الشيء ، فترسله الى موبليه ليعلم نفسه من مصالحة . ويذهب اليه ويعود الى صاحبه قابلاً للشراكة دائماً . وسكه في لوقت نفسه ثقيل على الحديق وإن كان مقبولاً في بعض الحالات ، ثم ينتهي الأمر الى أن تستأجره وعشيقته له يسكن في مدينة بعيدة بعض الشيء ، فتحصل لصاحبها ويخصص جات جاك لأفرد والدرس ، ولكن نقراءة لا تطام لها ولدرس لا اعتدال فيه ، وقد هي القراءة مطلقة ، القراءة في الليل والنهار ، القراءة في غير احتياج وفي غير ترتيب . والدرس في غير حنار أو ترتيب أيضاً ، ثم في هذه المدة التي قضاها ككماً على القراءة والدرس كانت تردده أمه مدام دي فرانس من حين الى حين وما هي إلا أوقات قصير حتى يصيق بهذه الحيلة ويحاول أن يكتس له حيلة أخرى فيفر الى ليون ويتصل ببيت كبير هناك على أن يكون مرياً في هذا البيت ، ولكن في حياته الجديدة ليس حيراً منه في غيرها ، فهو حرب وإلكه يسرق البيت ويحب صاحبة بيت ويسبي . العناية من يجب عليه أن يربهم ، ولا يطول مقدمه في هذا البيت فيخرج منه ويعود الى صاحبه ، ثم مضطرب الطراف الى أن يرحل الى باريس وفي باريس تستحيل حياته الى حياة جديدة هي التي مسترحه من حياته الأولى من

طور الى طور وسنميره تعبيراً تاماً ، فيه خير لا حد له لأنه اتصل بالأدباء والعلماء
والارستقراطية ، وفيه شر لا حد له لأنه لقي عاملة أحبا واتخذها صديقة ثم رفيقة
وتدعى تيريز يفا سير

ومن هذين الأمرين تألفت الحياة الجديدة لجانب جاك ، أما اتصاله بالعلماء
والارستقراطية فقد جعل منه رجلاً عظيماً ، وأما اتصاله بهذه الصاة العاملة فقد جعل
منه رجلاً شقيقاً ، والعريب أنه استطاع أول الأمر أن يلائم بين هذين النوعين
المتناقضين من الحياة فكان بين الأديب والأرستقراطية كأحسن ما يكون ارستقراطية ،
وكان مع العلماء كأحسن ما يكون الرجل العالم ، كان ارستقراطياً مع الارستقراطية
وكان عالماً مع العلماء ، ولكنه بشأ شدة وضيمه - ان صح هذا التعبير - ومع انه تعلم
تعدداً شديد لاضطراب فكان إلى الجبل أقرب منه إلى العلم ، ثم كان في الوقت نفسه
محباً أشد الحب لصاحبة تيريز مع بعد ما بين تيريز العاملة الخفية الجاهلة التي هي
أقرب إلى العملة وإلى الامم في العملة منها إلى أي شيء آخر ، كان يلائم بين حياته
مع هذه الفتاة العاملة الجاهلة وبين حياته مع الارستقراطية ومع مع العلماء

فإذا بلغنا بحاج جاك سنة ١٧٤٩ رأبناه معروفاً في باريس كما يجب أن يكون
الرجل معروفاً في البيئات الرقبة ، يخلف إلى القصور كما تعود الأديب والعلماء
الممتازون ، بل ارتفع أمره حتى أصبح عضواً في جمعة دائرة المعارف مع بعض كبار
العلماء الفرنسيين الذين كانوا يهيئون دائرة المعارف في ذلك الوقت ، فهو إذاً قد
أصبح أديباً ممتازاً ، ولنا ندري كيف استطاع أن يصل إلى هذا المركز لأن حياته لم
تسكن توهله لشيء من هذا ، ومع ذلك فقد كان محبوباً وكانت النساء الأديبات
والارستقراطيات في باريس يحببته ونهاهكن عليه تم الكأ شديداً ، وكان هو سعيداً
بهذا مشهوراً به ، ولكنه لم يلبث أن أحس مرارته وضاق بالحياة أشد الضيق ،
فقد عرف سيدة ارستقراطية هي مدام دي نيه ، أحبها فأحسته ، وانخذلت له بيتاً قريباً
من قصره وأثرته في هذا البيت ، وكان بهذا البيت سعيداً معتبطاً ، وكان يرى انه
ارتفع إلى الدرجة التي كان يتمناها ، ولكنه لم يلبث أن أحس أن ارتفاعه هذا لم ينته

به إلا إلى الرق ، لأنه أحسن أنه خاضع لسلطان هذه السيدة التي تؤثره وتنعم عليه ، فهو مكلف أن يستجيب لهذه السيدة كلما دعت ، وهي تدعوه دائماً

و ذات يوم عزمت هذه السيدة أن تسافر إلى سويسرا فطلعت إلى جان جاك أن يرافقها في هذا السفر ، ففكره هذه المرافقة وضاق بها وتردد ثم امتنع ، وفهم من ذلك الوقت أنه لا يستطيع أن يعيش في هذه الأرستقراطية إلا إذا نزل عن صكرامته وحرية ، لأنه ليس أرستقراطي المولد ، وفهم أن الذين يريدون أن يعيشوا كالأرستقراطيين يجب أن يقبلوا الخضوع والذلّة والرق

ومنذ ذلك الوقت أخذ جان جاك روسو يشعر شعوراً قوياً جداً بالفرق بين هذه الطبقات ، بين هذه الأرستقراطية المتارة وبين هذه الطبقات الوسطى التي تظهر بالفنى والثروة ولكنها لا تستمتع بالحقوق كلها ، ثم بين هذه الطبقات الدنيا طبقت الفقراء وطبقات الشعب التي لا تستمتع بحق ولا ثروة وبما هي مضطرة إلى أن تعيش عيشة القل والحضوع

ومنذ ذلك الوقت أخذ جان جاك يشعر أنه ثائر متמרّد على النظام الاجتماعي ، وفي هذا الوقت أعلن للجمع العلمي في ديجون موضوعاً لمسابقة هو « هل هناك فائدة من ازدهار العلوم والفنون ؟ » هذا هو الموضوع الذي عرضه للجمع العلمي على الكتاب ولأديب ، وأسرع روسو إلى هذا الموضوع فدرسه وفكر فيه وأجاب عنه وكان صريحاً ولكن اجابته كانت قسلة القيت في باريس بل في فرنسا

وكان هذا الجواب ، لا ، لا فنع ولا خير للإنسان من ازدهار العلوم والفنون بل العوم شر والفنون شر والعلمة شر ، وخير للإنسان أن يجمل العلوم والفنون وأن يعود إلى حياته الطبيعية الأولى

وبعد أعوام بيها كانت الحياة الأدبية الفرنسية مضطربة أشد الاضطراب بهذا الرأي ، وبينما كان العلماء والأدباء يجادلون في هذا الرأي ، وروسو يقاوم أولئك وهؤلاء ، أعلن للجمع موضوعاً عرضه لمسابقة بين العلماء والأدباء وهو : « مصدر التفاوت بين الناس » فأقبل روسو على هذا الموضوع ودرسه وأجاب عليه وقال إن مصدر التفاوت بين الناس هو الحصار ومن الحصار شر كلها ، والخير أن يرفض الإنسان

الخصارة ويعود الى حبة الصبغة الاولى ، فكان حواء الك في كجوه الاول
مصدراً لثورة عسية وضطرب عظيم

وبهذين الكسين طهر الحاف غنياً حراً بين جال حاك وبين الدماء والأدواء
الذين كان يشتمل معهم في عداد دثرة المعروف ، فهؤلاء نصروا في العلم وورقي الفن
ورقي الآداب ونصروا النظام ولا جناح روحه عام ، وهذا الذي أحديكر وحدة علم
وقيمة الفن ويكر لنظام ويريد أن يعود الناس الى حبة الاولى ، وهذا الرجل
لا يستطيع أن يتعاون مع أصحاب دائرة المعارف

ثم تدعو الحية حان جاش الى أن يعود الى وطنه حبيب ، وهذا يعود الى دية
الاول فيرفض الكاثوليكية ، وهذا يصدر ريسو ما يحب موطنه و شيء من
السعادة لا بأس به فهو قبلة حبيب وهو عظم المدينة ، ولكنه لا يكاد يعود الى
باريس ويستأنف حبه حتى يدنو مسرعاً الى ما لم يكن له من أن يدومته الى
هذه الداية ، وهي سحق الناس جميعاً عليه يصنع كنه في التربية ، كتب « أميل »
ولا يكاد يعلم هذا الكتاب ويشره حتى يحدث ثورة شدة من التي أحسن كنهيه
الدقيق ، وقد البرلماني في باريس يتعمي على هذا الكتاب بالتحريك والتعجب على
صاحبه ، وإذا الذي يعمل اليه ، ود هو مضطرب الى الحرب

ولكنه طمع كذباً حرليس قرن من « أميل » حظراً ، هو « العهد الاجتماعي »
واد الكتاب يحدث ثورة ، لا في باريس وحدها ، بل في كل البلاد لاورية ، وكان
المقول أن يحدد جال جاك ملحد في وطنه حبيب ، ولكن كانه قد قصى عليه
في حبيب بالتحريك ، وقد حرمت حبيب على ريسو وهو لا يستطيع أن يلجأ اليه
بهذا أن أعقلت عليه وحرمت عليه ، ثم يريد أن يلجأ الى مدينة أخرى من مدن
سويسرا ، فإذا هذه المدينة قد حرمت عليه أيضاً ، وار مدن سويسرا كل قد
حرمت عليه ، وإذا هو مضطرب الى أن يلجأ الى حبة سويسرية لم تكن حرة في ذلك
الوقت ولكنها كانت حاصعة للسان بروبي ، وهذا تستقر به حجة عروماً ولكنه
لا يكاد يظهر بالحياة المستريحة الآمنة حتى تقوم الحلال حرل رنه ، وحتى يشهد هذا
الجدال حتى يؤاب الشعب عليه وحتى باقي حصومه - وفي مقدمتهم فولثير - في روع

الشعب أن روسو عدو الشعب ، وانه يزعم أنه ليس لفساد نفس ، وانه عدو للدين وانه لابد من أن يطرد من حضيرة البروتستنتية ، واذا الشعب سخط عليه كما سخط عليه كل إنسان ، ولكن الشعب يتعداه ويتبعه في الشوارع ويقذف بالحجارة ويقذف بيته أيضاً ، وذا هو مصطط الى أن يهرب ويلتصق له مسخاً في مكان آخر ، يهرب من ميونخ الى مدينة أخرى تتبع حكومته برن ، ولكن حكومة برن أصدرت أمراً بوجوب مهاجرة روسو من كل أرض تخضع لسلطته ، فيسكن ، وهو مستبعد بلا دافع ولكنه يطلب في الحكومة أن تادر له بلادة في سجن من سجون ، فهو لا يريد أن يكتب ولا أن يشغل به لم أوتش ، وما يريد أن ينتظر لموت من تريخا ، وهو يعطى على نفسه عهداً أن يقيم في السجن على نفقة خاصة ، ولكن الحكومة تأنى عليه هذا أيضاً ، فهو مصطط الى أن يترك أرض سويسرا كلها ، وهو متردد لا يدرى الى أين يذهب ، يذهب الى فينا ويستطيع أن يذهب الى برلين حيث فردريك ، ويستطيع أن يذهب الى إيطاليا ، وفتنا هو في هذا التردد يخطر له أن هذه المدن كلها بعيدة ، وانه يستطيع أن يجد مكاناً في فرنسا ، فيدع عن باريس ويذهب الى مدينة ستراسبورج ، وذا عرض يعرض عليه ، أن يذهب الى إنجلترا لأن الفيلسوف هيوم مستعد لأن يحبه ، ولأن يسهل عليه لاقعة الهدنة في بلاد الانجليز ، ولم يكن روسو يحب الانجليز ، ولا يحب بلادهم ، كأنه لم يكن يصرف عنهم ، ولكن العرض كان قماً ، وكان يقدم اليه في شيء من العاية والاهتمام والاحسان ، فلم يسمه الا أن يقبل . وكان الفيلسوف الانجليزي طريفاً وكريماً ، فقد تهدد روسو بأن يبسرله كل أمر ، بأن يبسرله الانتقام من ستراسبورج الى باريس ، ومن باريس الى بلاد الانجليز ، وأن يبسرله الحياة في إنجلترا كما يحب ويهوى ، فرفقه من ستراسبورج الى باريس ، ثم رافقه الى بلاد الانجليز وقدمه لرحل الى الارستقراطية الانجليزية ، وحدث في البداية مضيقه ، وكانت شهرة جان جاك قد سبقته الى إنجلترا فترجعت مض كتيبه ، وكانت المصروف عم لاقه من اصحابه ، وكان يرى مقام الانجليزي مستمداً أحسن الاستعداد لاهبط عليه ، وكان كل شيء ينفى ، أنه سيكون سعيداً ، ولكنه عندما وصل الى إنجلترا في سنة ١٧٦٦ لم يلبث أن أصبح شقي الناس لأنه كان

فيلسوفاً وكان محبوباً، ونلاحظ أولاً أن حياة روسوكات شديدة المدة جداً لما
الف الانجليز، فقد كان روسو يلبس لباساً شرفياً أرمينياً ثوباً واسعاً قصصاً ويشد
خصره بحزام ويضع على رأسه قلنسوة شرقية. ثم كان أشد الناس ارداء للعادات
والقلايد، وما ألف الناس من أوضاع، وعلى كل حال عني به لانه يميز عناية شديدة
حداً عندنا وصل الى لندرة، وعني به الميسوف هيوم واحتشد في أن يمتدح له كل
ما كان يريد، ولكن كل ما كان يريد جان حاك هما شيئان متناقضان: كان يريد
أن يكثر الحديث عنه، وأن لا يراه أحد ولا يقبل أحداً، ولا يزور أحداً، ويقال
أن بعض كبار المثليين عني بجهان جاك وقرر أن يمثل من أحده في بعض الملاعب
بعض الرأيات، وهبأت لذلك حفلة خاصة ودعي روسو اليها، وأظهر الملك والمملكة
رغبة في حضور هذه الحفلة، لارعة في التمثيل، بل لرؤية جان حاك، وأسمرت
الارستقراطية كلها في الحضور وفي آخر لحظة قرر روسو أنه لن يذهب الى الملعب.
لماذا؟ لأنه لا يستطيع أن يترك كلبه وحده في العرة، فلما بين له صديقه أنه لا يابق
حقاً أن يأتي أمراً كهذا، وأن يكلف الملك والمملكة وكاز الارستقراطية وهذا الممثل
العظيم الحضور ثم يخلعهم موعدهم لا شيء، الا لأنه يشفق على كلبه من الوحدة، قرر
أن يذهب. ويفاق عرفه ويأخذ امتاح حتى لا يمت الكلب، وخرج مع صديقه،
وبينا هو على الدرج اذا به يسمع باح كلبه فتسقط الدموع من عينيه فيأبى أن يذهب
الى التمثيل، وبعد جهد استطاع صديقه أن يقنعه آخر الأمر بالذهاب، فذهب بلباسه
الشرقي ودخل في «الوج» الذي هي له. في نفس الوقت الذي دخل فيه الملك
والمملكة، وكانت عناية الملك والمملكة بمطر روسو أشد حداً من عنايتهما بالتمثيل،
والواقع أن منظر روسو كان غريباً حقاً، فقد كان روسو لا يفهم حرفاً من الانجليزية
ولكنه كان يضحك وبكي. وكان يضطرب ويقوم ويقعد حتى خشيت جارته أن
يسقط فتشدته من ثوبه، ثم بعد أن ينتهي التمثيل ذهب الى الممثل وقر له، لقد
ضحكت عندما سمعت الكوميديا وكبت عندنا سمعت التراجيديا، ولكي مع ذلك
لم أنهم حرفاً مما كنت تقول

كان روسو كما قلت لكم شديد الحرص على الدقة ولست أقص عليكم تفصيل

حياته في انجلترا ولكنى أوحز هذا بحاراً ، قد انتهى الامر بحان جاك الى أن ظفر بقصر في مكان خلوي ، وكان صاحب القصر رجلاً طريفاً قتل أن يصيف روسو ، وكان يجب أن يضيف روسو على أن لا يكون ضيفاً بل على أنه مستأجر وكان يجب أن يقدم اليه كل ما يحتاج اليه ، وما أكثر ما كان يحتاج اليه ، وأن يأخذ منه أيسر أحر ممكن ، وقد كان كل ما أراد روسو فقبلت منه أجرة اسمية - ان صح هذا التعبير - وأقام مع صديقه تيريز . واحتملت لارستقراطية الانجليزية عهداً شديداً في أن تقل هذا لرحل وصديقه التي لم تكن روحه ولم تكن مثقفة ولا مهذبة ، وانما هي عالة غبية ضالة ، يقولون أن يجلسوا الى موائدهم وفي غرف الاستقبال مع هذه المرأة البلهاء ، وكل هذا لم يرض روسو ، فكان يرى أنه لم يظفر بما كان ينبغي أن يظفر به من العناية في بلاد الانجليز

وفي نساء هذه الحياة التي كانت تغلظها الشكوى من روسو وتغلظها العناية من الانجليز نشأت خصومة بين روسو وصديقه هيوم ، وهذه الخصومة مصدرها أن روسو اتهم صديقه بأنه يخونه ، ويهين عليه أعداءه ، ويؤلب عليه خصومه في باريس ، وكانت هذه التهمة في نفس الوقت الذي كان فيه صديقه الفيلسوف الانجليزي يسمى للحصول على مرتب منظم لروسو

معاً بكر من شيء . فقد فسدت الصلة بين الصديقين وأفسد هذا وألفت فيه الكتب ونشرت الفصول ، وانتشرت هذه الكتب في باريس وفي لندرة ، وأصبحت من المسائل التي شغلت الرأي العام بين سنة ١٧٦٦ وسنة ١٧٦٧ . وانتهى الأمر إلى أن استيقن جان جاك أن حياته في انجلترا أصبحت في خطر ، وهم بالرجوع الى فرنسا ، ولكنه خائف على حياته فكتب إلى رئيس الوزارة أن يعين له حرساً يحميه حتى يصل الى دوفر ، فيجيبه رئيس الوزراء أن أي سائق عربة في انجلترا يمكن أن يعتبر كأحسن حرس يحميه ، ولا يكتفى روسو بهذا بل يكتب إلى امين الملك بأن يعين بعض الفرسان لحمايته فيجيبه هذا مثل ما أجاب به رئيس الوزراء ، وينتهي الأمر بروسو إلى أن يفلت من انجلترا أفلت الهارب الذي لا يشك أن الأوربيين الفرنسيين والانجليز قد اتفقوا به وقرروا أن يقتلوه ، كان الخوف قد أخذ من نفسه كل مأخذ ،

فما كاد يصل الى دوهر حتى كتب إلى امين الملك أن يعين له نوع لموت الذي يريد أن يقضي عليه به ، وتزيد الظروف في نفس روسو فهو اد ما وصل الى دوهر يلاحظ أن الرمح ليست مواتية فلا يشك في أن الطبيعة قد أثمرت مع الفرنسيين والانجليز ثم ينتهي أمره بالرحوع إلى فرنسا

ويقضي حياته مشرداً مدة ها ومرة هناك يستقر بمض الشبي ، ولكنه لا يزال مضطرباً متردداً حتى ينتهي أمره إلى الوفاة سنة ١٨٧٨ بعد قولته عدة قصيدة

لنس من شك في أن حياة جان حاك روسو كانت حياة رجل مضطرب الأعصاب محتون إلى أحد حد ، ولكن ما ريبكم في أن هذا الرجل المضطرب المحزون هو أعظم الدس أثر في الحياة الفرنسية أولاً ، وفي الحياة الأوروبية ثانياً ، وفي الحياة الإنسانية بوجه عام من جميع وجوهها المختلفة ، هو أعظم الدس أثر في الحياة السياسية كلها ، فهو أبو الثورة الفرنسية بكنهه « القصد لاحتياجي » وهو الذي استطاع أن يعلن رأياً كان معروفاً قبله ، وكان شائعاً من غير شك - ولكنه كان مقصراً على الاعلاسة ورجال السياسة ، فاستطاع روسو أن يلقبه في نفس الطبقات الدب ولم تذكر تستطيع أن تفهم هذه لأشياء ، ولأن تذكر فيها - وهو أن لشعب مصدر السلطات « واستطاع روسو أن يفتح الشعب الفرنسي والطبقات الدنيا في فرنسا أن السلطة ليست لى الملوك ولا الى الارستقراطية وإنما هي مع الشعب من حيث هو وحدة لا من حيث هو أفراد متعددة ، وبأن الملك حين يستعمل سلطته وأن الوزارة حين تستعمل سلطتها وأن المجلس النيابية وهيئات الحكم والمحاكم إنما تستعمل هذه السلطة بإية عن الشعب لأنها مأخوذة له ، وليس لعملها أي قيمة غير الساعية التي يخولها الشعب للملوك أو لرؤساء الجمهوريات أو المجلس أو النواب والقضاة

هذه المكرة استطاع جان حاك أن يعلمها - إن صح هذا التعبير - في نفس الطبقات الدنيا في فرنسا - في نفس المل ، وفي نفس الصناع ، وفي نفس الزراع ، وفي نفس الشعب الفرنسي كله ، وأكثر الاعلاسات لحقوق الانسان الذي قامت عليه الثورة الفرنسية إنما هو نتيجة مباشرة بل مستمدة بالحرف من كتب روسو ، فالثورة الفرنسية السياسية أثر مباشر لجان حاك

لم يغب تأثير روسو السيامي عند إنشاء الثورة، فأنتم تعرفون أثر الثورة الفرنسية في نشر الديمقراطية في أوربا في بلاد الشرق بعد الحرب الكبرى، فحياتنا نحن الديمقراطية، ومذهبنا نحن في مهم الحكم ومما نريد من المثل السيامي الأعلى، تتأثر بهذه العنكرة التي كان جان جاك أول من اشاعها وأدائها في كتاب «العقد الاجتماعي» ثم لجان جاك أثره في الحياة الأدبية، وهو ليس أقل خطراً من أثره في السياسة، في كتابه أو قصته «هولمز الحديدية» مبني مذهب الرومانزم، وهو لماؤثر لادل في الكتاب والشعر، ليس ملكو «المثل والحياة» لأدسة في أوربا وهو لماؤثر لأول في جوت وشاتوبريان وهو، وغيرهم من لاديه، لذين ظهروا في أواخر القرن الثامن عشر والصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم له تأثير غريب منهض - ان صبح هذا التعبير - روسو هو الذي هدم الساطن الديني، هدم سلطان الكنيسة في فرنسا و«سكر سلطان النفس»، وإكسه في لوقت نفسه لم يكن كقوة غير عدواً للدين من حيث هوديس، وعدواً للكنيسة من حيث هي كنيسة، كان عدواً لطعن رجال الدين وعدواً الطاميان الكنيسة، وهو بنهر هذه العنكرة التي ظهرت أول أمرها فدمرت سلطة الكنيسة، والتي كانت هي ميدة لسلطان الدين والكنيسة بعد الثورة الفرنسية، وهذا كان روسو هو الذي أوجد «روسيير» وأوجد خصوص رجال الكنيسة فهم، الذي أوجد «شوبريس» وهو الذي أوجد مدافعين عن الدين في أول القرن التاسع عشر ولذين مهدوا للصبح من فرنسا الثورة وبين الكنيسة ليس يعرف التاريخ لأدني ولا إنساني ولا ديني رجلاً كان أشد ثراً في حياة الشعب الفرنسي وفي حياة الشعوب لأوربية من هذا الرجل الذي شأ مصطرباً، شدة الشك الذي لم يبرأ من السرقه ولا من الصبور ولا من جمع أنواع الفساد الذي انتهى إلى هذا الحنون الذي رأيتكم بعض صورته

لم يعرف لارنخ رجلاً أحدث من لآثار كهذا رجل، لستم توافقوني على أن درس حياة هذا الرجل في شيء من التوصل، شيء من المثل والثاني، حقيق أن يشير في نفسه شيئاً غير قابل من لرحمة ولا شفاق على هذا الرجل الذي أحسن إلى

الانسانية أشد إحساناً ، وأقرب من الإنسانية أشد إساءة لأنه كان في حياته نفسها مستحقاً لما لقي من إساءة

أما أنا فلا أحب جن حاك ، لكي أرحمه وأشفق عليه أشفاقاً عميقاً ولست أؤمن بأراه جن حاك كلها ولكي أعجب بها

ومن حسن حظه أنه ربما كان الفيلسوف الوحيد من فلاسفة القرن الثامن عشر الذي ظهر بمعية كاتب من كتابها المصريين ، فكذلك بما أظن قد قرأ الكتاب الذي وضعه الدكتور هيكل بك والذي أؤكد لكم أنه من أرق وأحسن ما كتب عن هذا الفيلسوف العظيم



رینانه



سيداتي . سادتي

سأحدثكم اليوم عن رجل مخاض كل المخاضة لرجلين الذين حدثكم عنهما في المحاضرتين الماضيتين ، فالفرق عظيم جداً بين (أرنت ريمان) وبين (فولتير) و (روسو) وهذا الفرق طبيعي ، فقد يكون الوقت الذي تنقضي بين ظهور هذا الرجل في الحياة الأدبية الأوروبية وظهور صاحبه قصيراً ، ولكن الأحداث التي حدثت في ذلك الوقت عظيمة جداً . أحداث كان يكفي أو كان يجب لحدوثها عصور طوال ، وحسبكم أن بين (فولتير) و (روسو) من ناحية وبين (ريمان) من ناحية أخرى الثورة الفرنسية كلها ، وإمبراطورية نابليون كلها ، وعصر الرجوع إلى الملكية إلى حد ما .

فإذا تمناهم لأحدث لجسام التي حدثت في آخر القرن الثامن عشر وفي أول القرن التاسع عشر ، والتي غيرت وجه لأرض في أوروبا على أقل تقدير ، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العقلية أو الأدبية . إذا تمناهم هذا لم تدهشوا حين ترون الفرق العظيم بين (ريمان) وبين صاحبه ، ومع هذا فالفرق ليس نهائياً - إن صح هذا التعبير - فبين هذا الرجل وبين فلاسفة القرن الثامن عشر تشابه أوجوه أن أستطيع تصويره لكم في آخر هذه المحاضرة .

(ريمان) ولد سنة ١٨٢٣ في مدينة من مدن بريتانيا الفرنسية ، من أسرة متواضعة ، وكان أبوه ضابطاً من ضباط البحرية التجارية من هذا الاقليم الذي ولد فيه (بريتيكا) ، وكانت أمه من جنوب فرنسا . والفرق بين هذين الاقليمين عظيم : فأهل بريتانيا قوم أخص ما يوصفون به بإسارهم الصحة ، ثم قوة الحياة لداخلية في نفوسهم . فهم يحبون حياة دالية قوية جداً . ثم هم قليلوا الميل إلى الكلام وهم

كذلك من أشد العرسيين ميلا إلى المثل الأعلى ، بل هم يدفعون إليه دفعا شديداً . ثم هم من أشد العرسيين شمساً كالرأي وتشدّد فيه ، وحرصاً على المحافظة وحب القديم ويعصاً للتجديد والانتقال من حال إلى حال . ثم هم محتطون بشخصيتهم الاقليمية العرسية ، وهم قليلو الاندماج في الوحدة العرسية العامة ، ولعلكم تذكرون انهم في الأعوام الأخيرة الماضية حاولوا أن يستردوا شيئاً من احتلالهم الخاص ، ودعا بعضهم إلى الوحدة الاقليمية .

على عكس هذا بالوسط ، أهل الاقليم الذي جاءت منه أم ريبان . فأهل الجنوب من أشد العرسيين ميلا إلى الكلام والدفاع فيه ، وإطهار لما يشعرون ولما يسكرون ، وهم يتلقون المثل الأعلى ، ولكنهم ليسوا حراساً عليه . لا يسرفون في الملاحظة ولا يسرفون في رفض القديم . وإذا صح هذا التعبير يستطيع أن يقول أن أهل بريتابا مسطون في الحركة بطناً شديداً ، بخلاف ما نجد أهل الجنوب يسرعون إصراراً شديداً . وأهل بريتابا مفضلون للكلام ، على حين يدفع أهل الجنوب فيه اندفاعاً . فالأقليات ، أو فأهل الاقليمين متنافسون أشد التناقص ، ويسترون أن حياة رينان تمثل هذا التناقض إلى حد بعيد .

كان أبو ريبان صانعاً من ضباط البحر ، ولكنه في آخر حياته اشتغل ببعض الأعمال المالية ، ولم يكن صاحب عناية بالمال ، ولا برع في تدبير الشؤون المالية ، فلم يوفق ، وتورط في أعمال انتهت به إلى الافلاس ، وانتهى إلى موت غريب ، جهت أسبابه ، واختلف الناس فيه اخلاقاً شديداً ، فمنهم من زعم أنه موهب ، ومنهم من زعم انه انتحار ، ومنهم من شك وتردد بين هذا وذلك .

وهما يكن من شيء . فقد كان رينان صلياً حين مات أبوه ، وقد كان قديراً وبس له من يعيه على الحياة إلا أمه وأخته هنرييت ، التي مبطول عنها الحديث في هذه المحاضرة ، وأخ له يدعى آلان رينان .

قصي رينان حياته الأولى في مدينة نريجييه التي ولد فيها ، بين أمه وأخته . وكانت أخته أسن منه ولدت سنة ١٨١١ بينا ولد رينان سنة ١٨٢٣ وهي التي ربه وعنت به عناية متصلة . وكان وهو صبي طاعية قاسياً يكلف أخته من المشقة ومن

الجهد شيئاً كثيراً. كان يتحكم فيها تحكماً لا حد له. وكانت هي تهبه وتعتاف عليه عطفاً لا حد له أيضاً، وكانت مسئلة هذه الضمان تجدد فيه لذة وراحة. ويقال إنها أرادت ذات يوم وكانت فتاة متقدمة في السن - تتجاوز خمس عشرة سنة - أرادت أن تخرج لتلقى بعض صاحباتها. فكره ريس أن تتركه وحيداً فألح عليها أن تبقى معه، ومازل يلح حتى رقت له وتبقت. ويقال إنها أذنته ذات مرة أنه إذا لم يؤثر الهدوء أن تموت، فله لم يهدأ ولم يستدل، ماتت، ومعنى هذا أنها ردت سكوتاً طويلاً وصمتاً عميقاً، وأخذ أحوالها يكلمها فلا تجيب ويداعبها فلا ترد عليه، حتى استيقن أنها ماتت، فاندفع اليها فقصها عصاة عبيدة دعها إلى أن تصرخ، فلما صرخت وحدث تطهر الألم أخذ هو ونساء ويقول لها: «تتهدين بأفك لن تموتى بعد». وكذلك شأ ربنان سعيداً نكاحاً في وقت واحد: سعيد بهذا الختان الذي كان يجده عند أمه وبعد أخته هنريت. وكان نكاحاً بهذا الفقر الذي كانت الأسرة تعانيه ونحوه له شيء من الشرف والكرمة والصبر.

وأرسل الصبي إلى مدرسة من المدارس الدينية، فتعلم فيها تعليماً دينياً خالصاً، ولم يكبد يتجاوز الثانية عشرة من عمره، حتى تدبر له ولأسرته أنه سيتبعه بتعليمه إلى أن يكون قديماً. وكان الفقر قد ألح على أسرته. وكانت أم ريسان حائرة عن أن تعمل وأن تكسب الحياة لنفسها ولأولادها الصغار وهاتما، وهذا تظهر الحياة الجديدة لها. ريت، وهذا يظهر لها هذه الفتاة خليفة بالأعجاب، وبالأعجاب الذي لا حد له، فقد أحست الفتاة ما تحبها وما يجد أحوالها من البؤس والصيق، وأحست أن أباها قد ترك ديوناً يجب أن تؤدى، وأحست بحر هذه المرأة وهذا الطفل عن الكسب فنهضت هي بهد اللعب، وأخذت تعمل لتفكك أمها وأخوها من العيش - عملت في المدينة أولاً في بعض مدارس البنات معصية، ثم رأت أن هذا العمل لا يلائمها لأنه لا يعمل عليها المال الكثير، فسافرت إلى «ريس» وتركت أمها وأخاها في المدينة وشغلت معلمة في المدارس، وكانت تكاف مسهماً فقالا لم تكن قد هيئت لاحتياها، كانت جادة ما وسعها الحد في أن تعلم وأن تتعلم، وأن ترسل ما تستطيع إرساله من المال لأبها لتعيش وترى أخاها الصغير - وما زالت كذلك حتى تقدم الفتى في السن

والعاشرة عشرة ، فأرسلت في طلبه الى باريس ، ودفعته الى مدرسة من مدارس اللاهوت كان يشرف عليها أسقف من الأساقفة الفرنسيين هو مونسنيور دي بونلو وكان قسماً دستقراطياً في العصر الذي ظهرت فيه الملكية الفرنسية بعد رجوعها إثر سقوط الامبراطورية ، وأخذت فيه الحياة الارستقراطية الفرنسية تعود أو تحاول أن تعود إلى ما كانت عليه قبل الثورة ، فكان هذا العصر عصر نشاط بالارستقراطية ، وعصر استئناف حياة النظم القديم . وكان الأسقف أو المدير لهذه المدرسة رجلاً من الارستقراطية ، يعنى عناية شديدة لتعلم الارستقراطية والتقاليد الأرستقراطية ، ويعلم الدين كما كان الدين يعلم في القرن الثامن عشر ، تعليماً رعباً ، قصد به إلى الشرف وإلى المظاهر وإلى إرضاء هذه الطبقات الرفيعة ، أكثر مما قصد به الى الدين من حيث هو دين . وأحسن ريبان هذا فصاق به وكرهه كرهاً شديداً . ولم ينته به الأمر الى كره هذا النوع من التعليم بحسب ، بل أخذ ينتهي به الى شيء من الشك في الدين نفسه . ثم انتقل من هذه المدرسة الى مدرسة دينية كبرى يتخرج فيها القسس وهي مدرسة « سان سيباريس » وفي هذه المدرسة دفع ريبان الى دراسة في شيء كثير جداً من العناية والألقان لأنها كانت مدرسة لا تعنى بالدراسة الدينية العادية ، ولا تخصيص تلاميذها في اللاهوت وحده وإنما تعنى بدراسة دينية عية متفهمة ، ويكفي أن تعلموا أنه في هذه المدرسة أخذ يدروس اللغة العبرية ، كما أنه أخذ يدرس الفلسفة : الفلسفة العصرية الجديدة وبوع خاص فلسفة الألمان المعاصرين .

ومن هاتين المدرستين دراسة العبرية من ناحية ودراسة الفلسفة الالمانية من ناحية أخرى تكونت نفس الشاب تكويناً مافصلاً الى حد بعيد نفس الطفل أو الشاب الذي أقبل الى باريس منذ أعوام . أما دراسة العبرية فقد مكنته من أن يقرأ التوراة في لغتها الأولى ، ومن أن يقرأ آثاراً اسرئيلية قديمة كتبت في لغتها الأولى ، على حين كان غيره من القسس ومن الذين يتجهون لخدمة الدين يقرأون التوراة ويقرأون الآثار الاسرائيلية باللغة اللاتينية . أخذ يقرأ هذا باللغة العبرية الأصلية . ودراسة اللغة العبرية ودراسة النصوص الدينية بلغتها الأولى خليفة أن تثير كثيراً من اشكوك ، ولو لم يكن فيها إلا أنها تدعو الى المقارنة بين الأصل والترجمة وبين ما يعهم من

الأصل وما يهمهم من الترجمة ، لكن ذلك كافيًا لتنبيه عقل الشاب الى ناحية من نواحي الدين ، هي الناحية التاريخية الصحيحة .

أما الفلسفة لأنانية فقد أثارت في نفس هذا الشاب شكوكًا لا تتصل بالنصوص ولا بالتاريخ ، ولكنهما تتصل بطبيعة الدين وبطبيعة الأيمان وبطبيعة الحياة ، وكان للفلسفة الأنانية تأثير في نفس هذا الشاب « ولا سيما فيشت وهيجل »

وبين تأثير الفلسفة الآن من ناحية ، والقسم السامية من ناحية أخرى ، اشتد الشك في نفس الفتى ، وإذا هو يشعر في وقت من الأوقات بأن هناك تناقضًا شديدًا حداثيين ما ورثه عن آتائه وما تعلمه في مدرسته لأولى ، وبين « تمصه في مدرسته الداية من تعاليم الدين ، وما أخذ عقله ينتهي اليه من انتسخ والآراء . نظر فإذا الدين المسيحي يعتمد أو يرجع عند التحيل الى أصول ثلاثة أو عناصر ثلاثة : العنصر الأول يتصل بالأخلاق ، فالدين المسيحي فيه عناية بالأخلاق ، وفيه عناية شديدة بصلاح النفوس المريضة ، وعلاج ما قد يعرض لها من لآثم والخطايا . والعنصر الثاني هو العنصر اللاهوتي - من صرح هذا التعبير - وهو الذي يتعمل بمقيدة والأمرار وطبيعة العقيدة المسيحية . والعنصر الأخير هو العنصر التاريخي الذي يتصل بنشأة المسيح وحياته وما عرض له من الخطوب وما شئى اليه أمره ، ثم « شأن عن ذلك من سيرة الرسل وانتشار الدين . .

فأما العنصر الأول فم يعرض له الشك في نفس ريبس ، فمن يقرأ الاناجيل ، والتعاليم لمسيحية لا يشك في أن هذا الدين يعي عناية واضحة جدًا تهذيب النفس وإصلاح الخلق ، وشعاع الانسان من الأمراض الفردية والاجتماعية ، فهو من هذه الناحية لم يتردد في حب هذا العنصر من عناصر الدين وفي استنفاذه والحرص عليه ، ولكن العنصر الآخر الذي يتصل بطبيعة لايمان والعقيدة المسيحية ، والامرار التي تقوم عليها المسيحية بالتوحيد أو بلاهوت المسيحي ، هذا العنصر تعرض لخطر عظيم جاءه من الفلسفة الأنانية التي أخذت تشككه في هذه الأمرار ، وأخذت تشككه فيما توارد من تفسير الصلة بين لاله والعالم ! فريثن عند « قرأ فلسفة الألمان آمن به كانت تعتمد عليه فلسفة هيجل وهو وحدة لوجود أو هو هذه العقيدة أو

الفكرة التي توجي إلى صاحبها أن الآلة وحدة تظهر في كل شيء وفي كل صورة من الصور وفي كل كائن من الكائنات التي يتلف منها العالم المحسوس ، فكرة أن الآلة لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤثر في العالم فاردة فردية شخصية نفس الافراد ونفس الاشخاص ونفس الجزئيات ، وإنما الآلة يحكم هذه الفلسفة ويحكم ما انتهى إليه العقل في هذه الفلسفة ، قوة عظيمة لا تؤثر إلا من طريق القوانين ولا تؤثر في لاشياء المردية ولا في الجزئيات . وإذ لما توارثه المتديسون من أن الارادة الالهية تؤثر في هذه الجزئية أو تلك وتعين هذا المرد وتماكس هذا المرد ، وتأتي بهذه لمحيرة وتحدث هذه الحادثة ، كل هذا انهار في نفس رينان ، وتردد الشاب أولاً ثم شك ثم حدد العقيدة المسيحية ، ولم يقف أمره عند هذا الحد ولكنه نظر إلى العصر الثالث التاريخي . طرأ على التاريخ وما ينصل نشأة المسيح وما عرض له ولاشجائه من الخطوب ، ودرس هذا من الوجهة التاريخية الخالصة ، وعلى المدح التاريخية الجديدة ، فأدركه الشك وعجز عن أن يوفق بين ما انتهى إليه البحث التاريخي الجديد وبين ما توارثه من العقائد . وهذا الشك في طبيعة الدين وفي تاريخه لم يقع رينان بأنه قد خرج من دينه ولكنه اقنع شيء آخر ، هو أنه لن يكون قسيساً . فأعرض عن حياته الأولى وعمل عما كان قد اعتزم ، وترك الفكرة التي كانت تدفعه لأن يكون رجلاً من رجال الدين ، وانصرف إلى أن يكون رجلاً من الرجال المدينين ، وفكر في أن يلتزم حياته من غير هذا الطريق . وفي أثناء هذا كانت الحياة المادية بالقياس إليه والقياس إلى أمه في الاقاليم شديدة شاقة ، وكان ما تسكبه أحته هنريت ضئيلاً لا يكفي لتسكبه هو من المدرس في باريس ، ولتسكين أمه من الحياة ، ومن أداء الديون فانتمت هذه الفتاة طريقاً لتكسب مالا أكثر مما كانت تسكبه ، ووقفت إلى أميرة بولوية كانت تنتمس مربية مرسية ، وانضمت بها وسافرت من باريس إلى بولوبيا وأقامت غريبة في هذه الأسرة عشرين ، تربى تلاميذه وورسل ما تسكبه إلى أمها وأخيها وأخوه يشغل في باريس ليبيعه هذه الحياة جديدة . ومن أشد الأشياء تأثيراً في النفس هذه الكتب المتبادلة بين الفتاة العربية في بولوبيا وبين هذا

الشاب الذي كان يدرس في باريس ويتم دراسته فيها، وينتهي للحياة الجديدة مستعياً على ذلك كما كانت ترسله إليه أخته من المال .

على ما عند ما تقرأ هذه الكتب ملاحظ ظاهرتين : فأما كتب المتانة فيسرها الحب الذي لا حده ، والحب الذي يدفع إلى البكاء أحياناً . وأما كتب الفنى فيها شيء من الأثرة وفيها شيء من العطفة أيضاً ، وفيها شيء من حب النفس الذي لا يتردد في تضحية كل شيء في سبيل رعبته الخاصة . ويظهر أن هذه خاصة من خصائص السوع ، فقد يقل أن أصحاب السوع أثرون بطمأنينة بضمحور بالدس وبكل شيء في سبيل النبوغ .

مهما يكن من شيء ، فقد صطرب ريد إلى أن يعبر حياته بغير تمام ، فبعد أن كان يريد أن يدرس دراسة دينية اضطرب إلى أن يدرس دراسة مدنية . وأخذ يهيئ نفسه للطفر «الشهادة» للدراسة الثانوية ، وشتمل في ذلك ولم يحتاج إلى عناء شديد فطاف بالبيكالوريا في أقل من أربعة شهور لأن درسته في المدارس الدينية كانت قد هيأته تهيئة حسنة ، ثم تفرغ للبأس ولم يكدر يقضى عاماً حتى طهر بالليسانس أيضاً سنة ١٨٤٨ . ومنذ هذا العام كان الفتى قد آتم دراسته الملي وأخذ يتأهب للدخول في الحياة العملية ، ولكن حياته العملية أيضاً كانت حياة موحمة إلى الدرس . وفي هذا الوقت صادفته الثورة الفرنسية ، وقيام الجمهورية الثانية سنة ١٨٤٨ ، ولكنه لم يحمل كثيراً بهذه الثورة ، لأنه كان يحب النظام الملكي الذي كان قنعاً في ذلك الوقت ، بل لأنه كان يهيئ له لم أكثر من عابته بالحركات السياسية التي كان يزهد فيها زهداً شديداً ، وعلى كل حال فقد كان رينان مبغضاً للنظام الملكي ، وكتبه إلى أخته تصور له هذا البعض ، وتصور لنا بنوع خاص كيف كان يرى الملك لويس فيليب وقصره كيف كان يزدرى هذا الملك الشيخ الذي أصابه السكل والعمور وأحد يعتمد على رجال الخاشية الذين لا يخلصون له ولا للدولة وإنما يخلصون لأنفسهم وكيف ترك لأمور السياسية تجري كما تستطع ، فأصبح عبثاً على فرنسا يكلمها من أمال ما يكلمها دون أن يفيد بها بعض ما يعدل هذا المال الذي تنفقه عليه . ولكن رينان على كل حال لم يهتم بالثورة ، وانقطع إلى الدرس العلمى أثناء اضطراب باريس .

في ذلك الوقت اتى رينان صديقه هو « برتولوم الكيافي المشهور ، فذم به تأثر شديد
 أصيب الى تأثره بالفلسفة الالمانية والدراسات الاسرائيلية ، وتأثر بالعلوم التجريبية
 الحديثة . ومنذ ذلك الوقت استيقن رينان أنه لم يصبح مسيحياً وأن هذا الدين قد
 أصبح غير ملائم لطبيعته فالحمد ون لم يحمر بالحامه ، والحمد رينان عريب ، هو الحمد
 حقيقي لأنه لم يكن مسيحياً ، ولكنه الحمد يحتاج الى شيء من التفكير ، فرينان ظل
 متديناً غير أنه لم يتدين كما كان الناس يتدينون وظل يعد آله ولكن آله كان غريباً :
 آله هو العلم . وكل ما كان يضمه رينان من الاكابر والاحلال والثقة للدين نقله الى
 العلم الحديث ، وكما أنه كان ينظر في شبابه أن حياة الانسان لا قيمة لها إذا لم يشرف
 عليها الدين ولم يضمها الدس ولم يسيطر عليه . من جميع نواحيها ، فقد سفل فجأة الى
 اعتقاد غريب مذهش حقاً هو الاعتقاد بالعلم . وحمل التنزع المليبة هي لآله الذي
 ينبغي أن يعد وأن يعترف به ، واد فقد صور لنفسه دبابة جديدة اسابية ، دبابة
 مدنية - ان صبح هذا العير - قوامها حب العلم وعبادة العلم والثقة بالعلم والاعتماد
 على العلم ، وكما أن أمور الدين منظمة هذه السلطة للديانة الكيابة فهو أيضاً قد
 تصور كيابة عمية ، وهو أيضاً قد تصور للدين الجديد قسماً وكها . هم العلماء .
 فمدارس كسثس ، والعلماء الذين يدرسون في هذه المدرس قس ، والعلم هو الآله
 الذي يعبد ويخدم في مدارس ، كما أن هناك إلهاً يعبد ويخدم في الكسثس . ويجب
 أن تنتقل أمور الاساية من الدين الى العلم ، ويجب أن تكون أمور الحكم الى العلماء
 لا الى رجال الدين كما كانت من قبل ؛ ولا الى رجال السياسة كما هي الآن . وإذا فلا
 يد من أن تتطور لاسابية بحيث تصبح الحكومة فيها مؤلفة من العلماء ، علماء
 يتقنون العلم كشون لانسان على اختلافه ، يتقنون العلم بالطبيعة وما يعرض لها من
 الخطوب وما يدبر فيها من قوانين ، ويلائموت بين حياة الانسان وبين الطبيعة ،
 ويمكسون الانسان من أن يكون سعيداً في الأرض حقاً . وإذا فكل حكومة لاتعتمد
 على العلم لا قيمة لها . وكل حكومة لا يكون العلم قوامها فهي مكونة على الحاد في العلم
 كما أن هناك الحمد في الدين .

ومن هذه الناحية استطاع رينان أن ينصرف عن السياسة اليومية التي كانت

تحدث في باريس وفي غير باريس ، وأن لا يحفل كثير بالثورة ولا بالجمهورية الثانية ولا بالامبراطورية التي أعنت بعد الجمهورية الثانية ، لأنه كان يرى أن هذا كله تخبط سيزول وينقضي ، ولأنه من أن يأتي اليوم الذي يتصرف فيه العلم ويؤول الأمر إلى العلماء وفي نحو سنة ١٨٥٠ كان ريبان قد ظهر في الحياة العلمية الفرنسية ، واشترك في مسابقة عرضها للمجمع العلمي الفرنسي ومجمع الآداب خاصة عن اللغات السامية فوضع كتاباً ضخماً في تاريخ اللغات السامية وفي النحو المقارن لهذه اللغات ، وعرض الكتاب فطفر بالحوارة ، وأخذ اسمه يعرف ، واشترك في مسابقة أخرى عرضها للمجمع موضوعها دراسة اليوسية في القرون الوسطى ، فطفر بالحوارة في هذا الموضوع أيضاً . وهو في أثناء هذا كان يستعد للدكتوراه ، ويبحث عن موضوع لرسالته ، وكان يختلف إلى أساتذة اللغات السامية في السكوليج دي فرانس وأساتذة اللغة العبرية فيها ، فكان يحضر دروس دي ساسي وبرسيغل وكانهم وغيرهم من أساتذة اللغات السامية ، وانتهى به البحث إلى اختيار موضوع رسالة الدكتوراه هو « ابن رشد وآثاره » وكتب في هذا الموضوع رسالة تقدم بها إلى السوربون وظهر بالدكتوراه . وكتاب ريبان عن ابن رشد أحسن دراسة وصحت للآن عن هذا الفيلسوف العربي العظيم

من ذلك الوقت أرسل ريبان إلى أخته يالغ عليها في أن تعود إلى باريس ودارل يالغ حتى عادت وباشت معه ، وأخذت أخته تمككه من أن يحيا حياة علمية حافلة : فظمت حياته المادية وأراحته من التفكير فيها ، ثم شاركته في حياته ، وأخذت تساعد في حياته العلمية بمساعدة الشريك مما كان يبالغ من العلم ، وتبني له الأبحاث وتحقق له المسائل ، وتكتب له نص المخطوطات وتنسخ له بعض ما يكتب من البحث ، وتقرأ آثاره وتلاحظ عليها ، وتنفذ ما يكتب وما يشير ، بل كانت تصطره إلى أن يذيع هذا ، وإلى أن يغفل ذلك . فكانت له كالزميل القوي يمد إلى زميله يد المعونة . ولكن أرملة عتيقة عرست لهذين الأخوين الشريكين اللذين كانت تجمع بينهما رابطة من أقدم الروابط ، رابطة لاختوة من جهة ، ورابطة الاختوة في العلم من جهة أخرى ، فقد أحدثت هزيت تلح على أخيه في أن يتزوج ، وأظهر

ريتان استعداده للزواج ، وبحيث هنريت لأخيها عن روج ، ووحدت الزوج ،
 وقت الخطبة ، ثم تبين أنها كانت تكره زواجه ، ولا تميمه عليه إلا امتحاناً له ، ترى
 أيقبل الاقتراح ؟ فما رأت أنه قد قبل ، وأنه قد تزوج أدركها يأْس شديد ، وجرع
 لاحد له ، واشأت يئسها وبينه خصومة مؤلمة حقاً ، فقد كانت هنريت تحبه حباً يتجاوز
 الحب الذي بين الشقيين ، وتأثرت بحيرة عريضة ، وكانت حياتها كلها يكاء ولوماً
 وحصاناً ، ومع ذلك فقد أظهر أخوها لها في بعض الوقت أنه مستعد للعدول عن
 الزواج ، فلما فكرت في ذلك نساء الليل وعرفت أنه إذا عدل عن الزواج فقد ضحى
 لها بحبه وبراحته وبدنه ، واذا فهي لانحسه حقاً ، فطبعة الحب الصحيح أن
 يضحي المحب ، وأن لا يقبل تضحية ، ولذلك أصبحت فأسرعت إلى بيت الخطيبة
 وألحت عليها وعلى أبيها في أن لا يسمعا لما سبقوله ريدان ، ولم ينته اليوم حتى كانت
 قد عدلت عن سخطها على أخيها وأصعبت من أشد الدس تشجيعاً له على الزواج ،
 ولكن هذا الزواج لم يكدر يتم حتى استعانت حياة ريدان وأخته إلى جحيم ، فقد
 عادت العبرة ، والعبرة العظيمة لشكرة إلى قلب هذه الأخت العاشقة إلى صبح هذا
 التعبير وجعات هنريت تعمي حياة كاهنكاء ولوعة وأمي ومقت وحصام ، وجعل
 ريتان وزوجه يناطدان ويتظرفان وهي تقاوم وتلين وتسخط وتمضب حتى أذن الله
 فررق ريدان نطفل فأسلت الأخت بالطفل عن أبيه

وفي سنة ١٨٦٦ نذب ريدان لبعثة عمية إلى بلاد الشام للبحث عن الآثار ،
 فاعطى حب أخته معه ، وجاء إلى بلاد الشام فرار فلسطين ، ثم زار بلاد الشام ولبنان ،
 وقام هناك بعض الحفريات واستخرج بعض الآثار المميّزة

وفي هذه الرحلة حرصت أخته بالحى وماتت ودفت في الشام ، وعاد ريدان
 وحيداً ، وبعد هذه العودة بقليل عرض عليه منصب استاذ لغة العبرية في الكوليج
 دي فرايس وكانت يقضى هذا المنصب منذ شبابه وفي شهر فبراير سنة
 ٨٦٣ استبح ريدان درسه الأول في الكوليج دي فرايس ، وكانت قد اتخذ
 لنفسه موقفاً هو إلى محاسبة الامبراطورية أقرب منه إلى تأييدها ، فقد كان
 من الأحرار ومع ذلك فقد عين في هذا المنصب وبدأ يلقي درسه في الكوليج ،

وازدحم الدرس ازدحاماً شديداً على قاعة الدرس. وكثرت مختلفين في رينان اختلافاتاً شديداً. كان هناك الكاثوليكيون الذين يفضون رينان ويخاصموه، وكان هناك الأحرار والمحددون المحاصرون للإمبراطورية وكثرت يؤيدون رينان، وازدحمت الكوليج دي فرانس ازدحاماً دعا الشرطة إلى التدخل، وأخذ رينان ياتي درسه، وبينه لم يبق هذا الدرس. فلم يكذب يقدم في الدرس حتى ذكر المسيح بأنه رجل لا نظيره. هذه الجملة أثارت تصديق الأحرار، وأثارت غضب الكاثوليكين. فريمان يذكر المسيح بأنه رجل. ولم يكذب يعود إلى دأره حتى كانت الأحرار قد سدقوه منظر هارين هاتين مصغبتين وكان المحافظون ساحطين، وإذا قرر يصدر من وزير المعارف يوقف الدرس، وإذا أرمه جامعة يخدمه، هذا الدرس

لم تكن هذه الأزمة بسيرة ولا هيبة، فقد انقسم الفرنسيون فيها إلى قسمين. فأما الأحرار المعارضون أنصار حرية الشعب وأنصار المذهب الجديدة، وأنصار فلسفة القرن الثامن عشر. فكلهم كانوا عموماً له. وأما المحافظون ورجال القصر سوع خاص ولإمبراطورة وحاشية الإمبراطورة فقد كانوا، خصوصاً لرينان، وكان وزير المعارف مع هؤلاء. والعريب أن رينان نظر فرأى معه خلاصة الشعب الفرنسي أنصار التجديد وعدة المستقبل، فاستيق أن العصر له من غير شك فلم يحمل بقرار وزير المعارف، وأعتقد أن الرأي العام الذي يتأثر بالرأي الحر سينتقل له، وسيكره الوزير والإمبراطور على أن يعبد الأذن له في متابعة هذه الدروس. والعريب أنه لم يكتف بهذا بل أصدر كتابه بعد ذلك قليل (حياة المسيح) فأضاف شراً إلى شر، وثورة إلى ثورة فهذا الكتاب أعضب رجال الدين والمحافظين والعلامة الذين لم يكونوا من أنصار الحرية ولا من أنصار التثنية بالمذهب الجديد. ثم لم يكتف بهذا بل أخذ يتحدث من لوريير وأخذ يكتب إليه طالباً أن يستأنف الدرس. ثم عرض الوزير عليه مصعباً فأتى، وظل الوزير محتفظاً بوقفه من سنة ١٨٦٢، ١٨٦٣ إلى أوائل سنة ١٨٦٤ وريسان مؤمن بالرأي العام، معتمد عليه، واثق بأنه مستمر من غير شك. ولكنه نظر فإذا قرار يصدر بنقل رينان من الكوليج دي فرانس إلى قسم المخطوطات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد الذي لم يؤخذ فيه رأي رينان، ولكن قرار الوزير اشتمل على

شيء من الاهانة لرينان ، فقد كان رينان يتقاضى مرتبه اشده هذه المدة ، فوجد الوزير طريقة الى أنس ينقله ليستطيع أن يعمل ويستحق المرتب الذي كان يأخذه على غير عمل ، وكان القرار بطريقة لا تلائم كرامة الاستاذ ، وهما ثار رينان ورد على الوزير بروداً عنيفاً وقذفه بهذه الجملة وهي « اذهب الى الشيطان مع أموالك » ومنذ ذلك الوقت أصبح رينان خصماً صريحاً للامبراطورية والوزارة ، وظل رينان بعيداً عن الكوليج دي فرانس ، حرصاً مع ذلك على أن يعود اليها ، يطالب بأن يؤذن له في أن يأتي دروسه بعيداً عن الكوليج دي فرانس في بيته ، وسكته لا يظفر به يريد . في هذا الوقت معنى في دراسته العلمية وأخذ يصدر كنبه المشهورة في تاريخ المسيحية ثم في سنة ١٨٦٨ تقدم للانتخابات ولكنه تقدم معتدلاً . لا ماصراً للجمهورية كما كان المتطرفون ، ولا ماصراً للامبراطورية كما كان المحافظون وسكته حر معتدل ، ففشل في الانتخابات وانتصر عليه الجمهوري المتطرف

ثم كانت الحرب ، وكانت الهزيمة ، وكانت الثورة ، وسقوط الامبراطورية ، وقيام الجمهورية المتطرفة . ولعلكم همتم أن رينان لم يكن من أنصار الديمقراطية بل كان خصماً لها ، وكان مؤمماً بالعلم . وما دام مؤمماً بالعلم وبأن الحكم يجب أن يكون الى العلم فهو ليس من الديمقراطية في شيء ، لأن الديمقراطية تفعل الحكم الى الشعب كله ، وهو لذلك من أشد خصوم الجمهورية . كان مدنياً في شكل الحكم ، كان اوستقراطياً علمياً ومع ذلك فالجمهورية لم تكذب تعارف في فرنسا حتى ردت اليه منصبه ، وأدت له في استئناف دروسه ، ثم لم تمض أعوام حتى أصبح في ظل الجمهورية التي يكرهها والديمقراطية التي يقدمها ، لم يصبح استاذاً ، وسكته أصبح مديراً للكوليج دي فرانس ، فحبه الديمقراطية التي يكرهها ، وترفعه الى أرق مناصب من مناصب التتظيم والتشريف والاجلال والاكار .

قضى رينان ما بقى من حياته استاذاً في الكوليج دي فرانس ، يلقى دروسه في اللغات السامية ، ويتحدث ويحاضر في أنواع الفلسفة والعلم ، ويؤلف الكتب المختلفة في مادته التي تخصص فيها وفي مواد أخرى كالسياسة والأدب ، وأصبح بين سنة ١٨٧٥ ، ١٨٩٢ أكبر رجل أو أكبر ممثل للحياة العقلية لرقية في باريس وفي البلاد الفرنسية

جيمًا ، وكان تأثيره عظيمًا في حياة الفرنسيين . ولكن الغريب من أمره أنه انتهى الى هذه الصورة التي أريد أن أحتم بها هذه المحاضرة . انتهى الى هذه الصورة العقلية الشاذة ، فقد أصبح رحلاً يقبل جميع المذاهب الفلسفية على اختلافها ، لا يذكر شيئاً اسكاراً صريحاً ، ولا يؤمن بشيء . انما صريحاً ، أصبح صورة من صور الشك ، كان يلقي درسه ويؤيد مذهبه بالحجج والبرهين . ثم يقول في آخر هذه الحجج والبراهين (ومع ذلك فنت مقتنماً بما أقول) . كان يتحدث في مجالسه بالتناقضات ، يقول : (من الخير أن يكون الانسان رجلاً فاصلاً ، فالمضيلة مخف في حقيقة الأمر ، ولكنها لذة يجد فيها بعض الناس راحة ، ومن يدري فقد يتبين أن الأمم والجماعات أصحاب رذيلة . من الخير أن يكون الانسان متديناً ومن يدري لعل الديانات ان تكون صحيحة ، ومن الخير أن يكون الانسان ملحد ، ومن يدري لعل الاتحاد أن يكون صحيحاً) وكذلك لم تكن تعرض لربان في عصره الأخير فكرة إلا قبلها ورفضها في وقت واحد ، حتى أحدث في العقل الفرنسي في ذلك الوقت اضطراباً شديداً ، وحتى دفع الشباب الى شيء من الشك الخطر الذي لم يقف عند المسائل الدينية ، بل تجاوزها الى مسائل سياسية وطنية

لم يكده ينتهي القرن التاسع عشر حتى شعرت فرنسا والشباب الفرنسي الجديد بأنه لابد من مقاومة ، ولابد من رد فعل لهذه المدممة والشك الخطر ، وطهرت المدارس انه نسبة الحديث مقاومة لهذا الاضطراب الذي انتهى اليه رينان ، والذي انتهى اليه العقل الفرنسي

وأخص ما يمتاز به رينان في حياته كلها وفي هذا العصر لأخير نوع خاص ، انه كان من أشد الناس انتصاراً لحرية الرأي ؛ ولم يكن له يد من هذا لأنه كان صحيحه ، ولكنه اندفع في الانتصار لحرية الرأي حتى لم يفرق بين حرية رأي وبين الشك ، وحتى جعل الحياة العقلية لونا من ألوان المثلث - ان صح هذا التمهيد - نستطيع أن نستقي من رينان هذا الجهد الصادق في سبيل العلم والبحث الحر ومقاومة الصعق وهذه الثورة على المسرفين في المحظوظة ، وهذا البحث التاريخي الصحيح الذي مكه من أن يكتب تاريخ اليهود والمسيحيين ، وهذه الكتب العلمية الفلسفية الرائعة التي نجد

فيها لذة . ولكننا لا نستطيع أن نستقي هذا الاسراف في الشك وهذا الالوه
بانظريات ، وهذا العبث بالحقائق وهذا الاندفاع الى القبول والرفض والاستعداد
لقبول كل نظرية وتلقي كل رأي وفي الاطمئنان والاضطراب . وفي هذا خطر لا بد
للذين يقرأون رينان من أن يتقوه

والآن أنكم قد تصورتم في شيء من الايضاح حياة هذا الرجل ، فلم يبق من
هذه المحاضرات إلا المحاضرة المقبلة التي أحدثكم فيها عن زميله وصديقه وشريكه في
الرأى والعامة أثناء القرن التاسع عشر وهو « نين »



الفيلسوف نبين



سيداتي . سادتي :

أما الفيلسوف الذي أريد أن أحدثكم عنه الليلة ، فالحديث عنه يحتاج الى عناية خاصة ، لأن حياته العادية يسيرة جداً ، ليس فيها ما تمودتم أن تسموه من الاضطراب ومن اختلاف الظروف ، ومن هذه الطوارئ . الكثيرة التي غس حياة علماء الرجال ومن المصير جداً أن أتحدث اليكم ساعة كاملة عن الحياة العادية لهذا الفيلسوف « تين » كما تحدثت اليكم عن « فونتين » أو « جان جاك » أو « رين » . فأريد أن سأحدثكم حديثاً عميقاً ولكن أخشى أن يكون جافاً بعض الشيء ، لأنني سأحدث اليكم عن مذهبه أو مذهبه في العلم والفلسفة والتاريخ والأدب ، إذن فالحديث غير رائق ولا مريح وقد يدعو الى تفكير والى تأمل . وأظن أن التفكير العميق ، والتأمل بعد الافطار وفي رمضان ليسا من الأشياء التي يستريح اليه الناس كثيراً ، فقد أرادت الظروف أن يكون الحديث عن « تين » في هذا الوقت .

ولد تين في أوسط القرن التاسع عشر بالصبط سنة ١٨٢٨ م . بعد رين بمحو خمسة أعوام ونشأ في شمال فرنسا ، في أسرة من الطبقة الوسطى أيضاً كميريه من الفلاسفة الذين تحدثت اليكم عنهم . كان أبوه موثماً كما كان أبو فونتين موثماً أيضاً ، وكان من أسرة بروتستانتية ، وقد بدأ حياته كميريه من شأن الطبقة الوسطى في مدرسة من المدرس العادية في موطنه ، ثم انتقل الى باريس فأنتم دراسته الثانوية هناك ، ولم يكمل يبيع العشرين من عمره حتى كان قد أنتم هذه الدراسة ، ثم تقدم في التحصيل واستطاع أن يدخل مدرسة المعلمين العليا . ومدرسة المعلمين في ذلك الوقت أرقى مدرسة في فرنسا للدراسة العلمية والأدبية والفلسفية أيضاً . وهي المدرسة التي أخرجت لعربنا في القرن الماضي - وهـ - تزال تخرج لها حتى الآن - أدباءها وفلاسفتها وشعراءها

وكتابتها وورائها أيضا . في هذه المدرسة اتصلت تين بجامعة من كبار الأساتذة الفرنسيين ، وجماعة من الطلاب الذين كان لهم أعظم الأثر في حياة فرنسا في النصف الثاني من القرن الماضي .

أنتم تين دراسته في نحو سنة ١٨٥١ وتقدم للامتحان الذي يتقدم اليه عادة طلاب هذه المدرسة ، امتحان الاجريجيبيون وهو امتحان الاستاذية للثانوي ، ولكنه لم ينجح ، ثم ترك المدرسة واشتمل بالتعليم في بعض الكليات في الأقاليم . وبعد ذلك بنحو سنة أو أكثر بقليل كان في فرنسا الانقلاب الذي أحدثه « بيلبون الثالث » . وكان أول أثر لهذا الانقلاب في الحياة العقلية الفرنسية أن ساء الظن بين الجامعة والحكومة ، وأسست الحكومة رأيها في الجامعة الى أقصى حد ، وفرضت سلطاتها عليها ، وتبعت أسنذتها بالمراقبة فيما يقولون وفيما يعملون ، واحتججت في أن تبعد عن التدريس من يظهر في دروسه أو في سيرته أنه محب للحرية أو مؤيد لها أو داع اليها أو عاطف على النظام القديم نظام الجمهورية ، أو مناصر للثورة الفرنسية ، وكان تين من هؤلاء فأبعد عن تدريس وتعلم الى مكان آخر ، فأخذ يعلم فأحسن نفس الصغط الذي أحسه في كايته الأولى ، واضطر الى أن يطلب الى وزارة المعارف أن تمدحه اجازة طويلة . فأسرعت الى ما كان يريد فتخلصت منه ، وتخلص هو منها أيضا ، ومنذ ذلك الوقت انقطع تين لشئئين : الدراسة العلمية الخالصة من « حجة » ولأسفار والتحول من « حجة » أخرى . وانقطع للبحث والتأليف . وفي سنة ١٨٥٢ تقدم الى السوربون برسالة للدكتوراه في الحس فرفضت هذه الرسالة لأنها كانت متاثرة بالآراء الجديدة الى حد ما

ثم تقدم برسالة أخرى للدكتوراه فصلت وظهر بهذه الدرجة الجامعية العليا ، وكانت هذه الرسالة قد كتبت عن الشاعر الفرنسي العظيم « لافونتين » . أخذ تين محبوب في انحاء اوربا ، في فرنسا ، وانجلترا ، وايطاليا ، والمانيا ، وهولنده ، وهو في انحاء هذا كله مشتغل بالبحث والتأليف ، يظهر كتابا إثر كتاب ، حتى عين بعد أكثر من عشر سنين مدرسا في مدرسة الفنون الجميلة ، وأخذ يلقي فيها محاضرات في الفن وفلسفته وتاريخه كما أخذ يكتب في الصحف . ثم كانت الحرب بين فرنسا والمانيا ، وكانت

الطريفة الفرنسية، ثم الثورة أو الحرب المدنية في فرنسا، وكان لهذه الحركات تأثير عميق جداً واضطرته لى أن يدرس الحياة الفرنسية درساً دقيقاً عميقاً ، فأخذ يطلع كتابه عن أصول فرنسا الحديثة ، وكان غرضه أن يدرس الحياة الفرنسية في هذا العصر . كيف شأت ، وما هي المؤثرات التي دعت هذه الحياة أن تتطور من الثورة الفرنسية أولاً ، ثم قيام الامبراطورية ، ثم ما حدث بعد ذلك من تطورات لى أن كانت الحرب والمهزيمة .

ثم مضى تين في حياته هذه لا يكاد يصرف بحال من الأحوال عن الدرس والبحث وتأليف الكتب ، والكثافة في الصحف الى أن مات في أواخر القرن الماضي بعد وفاة رينان بعام واحد سنة ١٨٩٣

هذه خلاصة حياة هذا الرجل ، وأنتم ترون أنها بسيطة ، ليس فيها شيء عريب وليس فيها هذا الاضطراب ، ولا هذه التطورات المبهمة التي رأيتوها في فولتير ، وجرانت ، وريمان . ومع ذلك فليس يعرف القرن التاسع عشر رجلاً أثر في حياة الشعب الفرنسي ، وفي حياته العقلية خاصة كما أثر الميخوف تين . كان صديقاً لريمان . وكان مازعاً لريمان - أن صح هذا التعبير - يدارعه العقل الفرنسي ، وعقل الشباب الفرنسي سوع خاص . تين وريمان هما لاساذان اللذان حصص الشباب الفرنسي لهما خصوصاً تاماً نحو ثلاثين عاماً من سنة ١٨٦٠ الى ١٨٩٠ ، أو ١٨٩٢ أو ١٨٩٣ ، على أن بين هذين الصديقين اختلافاً عظيماً جداً ، فقد رأيتهم عن رينان انه كان متحماً أول أمره الى حياة رجال الدين ، يهيج نفسه لأن يكون قسيساً ، وانه انصرف الى العلم عن الكنيسة وعن حياة القسس ، ثم مضى في حب العلم والفلسفة الدينية ، ثم عي بتاريخ الديني - بتاريخ المسيحية خاصة ، إلى أن أنق حياته . أما تين فلم يفكر مطلقاً أن يكون رجلاً من رجال الدين ، كما كان تمكبره متحماً الى الحياة العلمية الخالصة . على أنه قد صادف مثل ما صادفه رينان في حياته العلمية الأولى صادف الفلسفة اللاتينية في حياته فتأثر بها أشد التأثر ، صادف فلسفة هيغل كما صادفها رينان وتأثر بها كما تأثر بها رينان ، ولكن يظهر أن تين عني ، لعلم التجريبي عاية تفصيلية دقيقة ، عاية مباشرة لا كعناية رينان ، فقد عرف رينان قيمة العلم التجريبي بواسطة صديقه برتو

أما تين فإنه عرف قيمة العلم الثموري وخطره من تجاربه الخاصة، وكان ريمان مؤمناً بالعلم يكبره كما كان يكبر الدين حين كان يدرس الدين، ويعتمد عليه في تنظيم حياته الاجتماعية دون أن يعرف تفصيل هذا العلم أو يشارك فيه، وأن يكون له حظ خاص دقيق. كان تين يشتمل بالعلم بطريقة مباشرة، طريقة تفصيلية دقيقة جداً، كان إذا تحدث عن العلم تحدث عنه وهو عالم به مشارك فيه، وكان يؤمن بالعلم إيماناً احتشاد خاص، على حين كان غيره يؤمن بالعلم إيماناً لا يحلو من التقيد. ومن هنا ظهر الفرق العظيم بين الرجلين في تصور العلم، تين لم يتخذ من العلم ديناً، ولم يفهم العلم على أنه مسيطر على الحياة الأساسية، ولا أنه مصلح لهذه الحياة، ولا صالح لأن يكون ديناً للأساسية كلها؛ ولا على أن العلماء يستطيعون أن يكونوا كنيسة كما يكون رجال الدين كنيسة، نظر إلى العلم على أنه أداة إلى المهم ليس غير، نظر إلى العلم على أنه وسيلة إلى المعرفة لا أكثر ولا أقل في الوقت الذي كان ريمان ينظر إليه على أنه عية.

بين مراجع هذين الرجلين مراجع ريمان الذي لم يستطع إلا أن يكون قسيساً، فقد كان قسيساً دينياً في أول الأمر، ثم أصبح قسيساً عموماً بعد ذلك، ثم انتهى إلى أن أصبح قسيساً من قس الشك في آخر حياته. ومراجع تين الذي لم يكن لا عالماً وعالماً بالمعنى الدقيق ذاته، بين هذين المراجعين اختلاف عظيم هو مظهر الفرق بين الأفكار التي تركها ريمان والآثار التي تركها تين؛ فالآثار التي تركها ريمان كما رأينم أكثرها يمس الدين، فإذا بعد ريمان عن ترويج الدين المسيحي أو الاسرائيلي فإنه يبعد عن هذه الأشياء ليعود إليها مرة أخرى، وكان إذا درس اللغات السامية درسها من حيث هي وسيلة إلى درس ترويج المسيحيين أو الاسرائيليين، وإذا درس العلم أو نظره فيه، فإنه ينظر إليه على النحو الذي قدمته إليكم، على أنه علم يوشك أن يكون ديناً في المستقبل. أما تين فإنه لا يدرس العلم إلا من حيث إنه أداة المعرفة والمهم، وهو إذا كتب فهو يكتب في أشياء لا تتجاوز العلم وإنما هي العلم نفسه حتى عبدها كان يدرس الأدب أو التاريخ.

وأول كتاب أذاعه تين عن لافوتتين وهو الرسالة التي نال بها درجة الدكتوراه كان في ظاهره كتاباً أدبياً، ولكنه في حقيقته بحث فلسفي من أعرق الأبحاث العلمية،

هو في هذا الكتاب لا يدرس الأدب كما تعود الناس أن يدرسه ، على نحو فيه بحث عن مظاهر الجلال والحسن ، وغيرها من هذه المظاهر التي تغلب الموس وتثير المواقف إنما يدرس أدب لافونتين على أنه ظاهرة من ظواهر الحياة في عصر لافونتين ، كما تدرس الظواهر الكتابية بالصبط ، وهو في مقدمة هذا الكتاب يرى أن الإنسان حيوان ينتج الأدب والفلسفة ، كما أن دودة القز تنتج القز ، وكما أن الأرض تنتج ما تنتج من نبات ، واذن فيجب أن يدرس هذا الحيوان الذي ينتج الأدب ، كما تدرس دودة القز التي تنتج القز ، والأرض التي تنتج النبات . وهو من هذه الباحة يوشك أن يكون مدياً ، وهو مسرف في التأثير بالفلسفة والعلم امرفاً يوشك أن يكون ماديًا وهو مسرف في التأثير بالفلسفة والعلم امرفاً يوشك أن يخرج الأدب عن طوره الذي أله الناس فهو عندما يدرس شعر شاعر من الشعراء أو نثر كاتب من الكتاب ليس يعيه ما سيجده في هذا الشعر من جمال ، أو ما سيثيره هذا النثر من العاطفة ، إنما الذي يعيه نفس الشاعر الذي أنتج الشعر والكاتب الذي أنتج النثر ، وهو عندما يعي بنفس الشاعر أو الكاتب ، فهو يعي بالشاعر أو الكاتب من حيث هما فردان من أمة أو جماعة ، وهو لا يدرس لافونتين ليدوق شعر لافونتين مما يدرس لافونتين وشعره ليمهم البيئة التي عاش فيها ، ولأمة المرسية في العصر الذي شأ فيه لافونتين لأجل أن مهم المذهب الأدبي لتين لا بد من أن نلم المامة قصيرة جداً برأيه في المسفة عامة والفلسفة الاسابية خاصة . لافونتين عند تين ظاهرة يجب أن تدرس كما تدرس غيرها من الظواهر العلمية . فلا بد اذن لهذا لدرس من قاعدة ومنهج وهي القاعدة الطبيعية لهذا الفيدوف ، كان تين متأثراً بالفلسفة الانسانية ، والفلسفة الفرنسية الوصعية ، فلسفة أوجست كومت ، وهو منكرو قبل كل شيء الحرية الفرد ، ولا أريد الحرية السياسية ، ولا الحرية الشخصية ، إنما أريد الحرية الفلسفية . وهو ينكر الاختيار ، ويعتقد أن العلم متأثر بظائمه من القوانين تدبره وتسيره دون أن تعرض هذه القوانين للخطأ أو الاضطراب . فهو اذن من أنصار الجبر . من الذين يعتقدون أن الارادة الفردية لا تؤثر في حياة العالم بشكل من الأشكال . وقد معتم ما قلته لكم من أن تين يرى أن الانسان ينتج الأدب والفلسفة كما أن دودة القز

تنتج الفقر ، وكما أن لأرض تنتج السد . فهو يعتقد أن الطريقة لهم لأشياء .
والحياة إما هي الانتقال من المركب إلى البسيط ومن العام إلى الخاص ، وإذن فهو في
طريقته فيلسوف قبل كل شيء ، يريد أن يتيم شيئاً من الأشياء فهو لا يعتمد في فهم
هذا الشيء إلا على الحس يرى أو يسمع أو يلمس ، والطرق والسمع واللمس ينقل إلى
عقله صوراً ، وعقله يعمل في هذه الصور فيحرفها ويستخرج هذه لأشياء المحسوسة ،
وهو إذن من أنصار مذهب الحس ، والمثرتين الفلسفة الانجليزية الحديثة ومذهب
لوك خاصة ، وهو معرض عما بعد الطبيعة لا يرى للإنسان وسيلة إلى العلم إلا بالحس . هو
لا يؤمن بما بعد الطبيعة ، ولكنه لا يحده وإنما يقول لا أراه فلا أعرفه . من الممكن
أن يكون ما بعد الطبيعة موحوداً ولكن لا سبيل إلى الحس به ، وهذا رأيه في الإله
فهو يقول من الممكن أن يكون إله موحوداً وأن يكون لهذا الكون خالق ، ولكني
لا أراه فلا سبيل إلى أن أعرفه . ولا أعرف الله معرفة علمية ، ولكني لأحده
جموداً علياً ، فالإله شيء قد يكون موحوداً وقد لا يكون موحوداً . إذا انتقل إلى
دراسة الإنسان فرأيه في الإنسان ردي . هو يعتقد أن دراسة نفس الإنسان
وحداها تنحل إلى شيئين اثنين : لسان قبل كل شيء حيوان متوحش ، وهو بطبيعته
كثيره من الحيوانات الصارية المغترسة تهدده الحصاره شيئاً قشياً ، وما زالت تهده
وترقه حتى أخت عراثره هذه المكرة ، فالإنسان بحجابه أو بصورته الطبيعية شرير
والحصارة أخت غريبة الشرفيه وحمته متفقا إلى حد ما ، وإذا عرض لهذه الحصارة
ما يزيلها أو يقف تأثيرها ظهر الإنسان على شكله الأول ، معترساً ضارباً ، وعاد إلى
حياة الطبيعة حياة الاثم والاحرام . والإنسان بعد هذا محزون وعنه ليس إلا تكلم
الأصل فيه أنه لا يستطيع أن يفكر ولا أن يستنبط شيئاً ولا أن يستخرج حقيقة علمية
من الأشياء المحسوسة ، أنه هذا شيء اكتسبه من الحصاره ، وهو مع هذا لم يكتسب
منه إلا شيئاً قليلاً ، فالإنسان إذا فكر فإنه يفكر في أقل أوقاته ، أما في أكثر أوقاته
فإنه يرسل همه إرسالاً ، يتحيل أكثر مما يعقل ، وهو إذا تحيل يمضي نحو الجنون
أكثر مما يمضي نحو العقل . وهو إذن يحتقر الإنسان ، وما دام هو مؤمناً بالجنون مسكراً
للإرادة ، مؤمناً بأن لسان شرير بطبعه ، وأن عقل الإنسان شيء مكتسب ، فهو غير

متماثل بالحياة ، وهو ساحط مكر الدس مكر الحينهم على اختلاف . وهو في حياته اليومية العملية متأثر بذهبه المسمي فهو بعض الحسنة مؤثر للأمة ما وجد ايها سبيلا لا يتصل بالأندية ، ولا يختلف اليها لا كارها ، وهذا لم يكن له بد من أن يلقى الدس هو يلقى جماعات قليلة بخارم وبصطبيهم من الذين يستطيع أن يتحدث اليهم في العلم والأدب والفلسفة .

بعد أن تصوروا فلسفة « تين » على هذا النحو لدى لخصته لكم تلخيصاً ضئيلاً جداً يكاد يمسد هذه المسمة ، نستطيعون أن نلاحظ أن اتجاه الأدبي قد يكون عميقاً حقاً ، مؤثراً في العقل وفي الناحية المعكنة ، ولكنه ليس يكون من هذا الأدب الرائع الذي يسحر ويمس القلب ويستأثر بالعقل والشعور ، فحين لا يريد أن يتحدث لا إلى القلب ولا إلى الشعور ولا إلى المسطة وإنما يريد أن يتحدث إلى العقل .

والغريب أنه مع هذا التصديق الذي فرضه على نفسه ، قد استطاع أن ينتج آثاراً أدبية خالدة ، ولا شك أن آثاره ستكون أحلى من آثار صديقه وزميله ريبس .

أهم نظرية أدبية لثين اعتمد عليها في جميع دراساته لأدبية هي النظرية مشهورة بنظرية تأثير الأديب بما يحيط به من هذه العناصر الثلاثة التي يرى تين أن دراستها هي الدراسة الطبيعية لكل أديب . وهي جنسية الأديب وإقليمه أو بيئته والعصر الذي يعيش فيه ، فليس من سبيل أن نهم شاعر أو فيلسوفاً أو سائلاً منتحاً إلا إذا عرفت هذه العناصر الثلاثة . يجب أن نعرف الجنس أو الأمة أو الجيل الذي نشأ فيه هذا الشاعر أو ذلك الفيلسوف على أنه شخص في هذا الجنس أو الأمة أو الجيل ، ثم ما لهذا الجنس من التأثير في هذا الشاعر أو الفيلسوف ، ثم يجب أن نعرف الأقليم والظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط به ، ثم يجب أن نعرف العصر الذي يعيش فيه ، وما يؤثر فيه من المؤثرات المباشرة المعاصرة أو القديمة التي جاءت من التاريخ ، ومن كل هذه المؤثرات التي يتأثر بها في عصره ، وتأثر بها لانسانية بوجه عام . واذا نحن فالتدين كانوا ، يدرسون الأديب من حيث هو فرد لم يكونوا يوفقون في دراستهم ، والذين يدرسون الأديب من حيث هو منتج لم يكونوا يوفقون في دراستهم ، إنما كانوا يقتطعون الأديب اقتطاعاً من أمته أو من عصره ، وما دام تين مؤمناً بأن الحياة

الانسانية كغيرها خاضعة لقوانين العلم ، فليس من سبيل الى دراسة الفرد من حيث هو فرد ، ولا سبيل الى أن يدرس على أنه فرد ، والفرد جزء من أمة ، والأمة جزء من جنس ، والأمة متأثرة بالانفهم ، متأثرة بالزمان ، متأثرة بكل ما يتصل بها من مظاهر الوجود والحياة . وعلى هذا النحو كانت دراسة تين الأدبية للشعراء ليست دراسة للأفراد بل هي دراسة أمم ، ودراسة حيل من لأحبال ، وهو من هذه الناحية كان خصصاً حقاً ، ويكفي أن تأخذوا أي كتاب من كتب تين وتقرأوه فستجدونه ممتعاً عنيًا بالحواطر والآراء والقفارات العديدة ، خذوا كتابه عن لافونتين فستجدون فيه دراسة ممتعة مثقفة كل الاقمار للحياة الفرنسية في عصر هذا الشاعر ، خذوا درسه لأي أديب من الأدباء الآخرين فستجدون درسه درساً لعصر الأدب وليثته ، وستجدونه قد طلق هذه النظرية أحسن تطبيق ممكن ، عندما أراد أن يدرس تاريخ الأدب الانجليزي - وهو قد درس تاريخ الأدب الانجليزي ليبين صحة هذه النظرية التي أحلمها لكم اجالا - أراد أن يختار حياة أدبية كاملة وأن يوضع هذه الحياة الأدبية للدرس العلمي الخاص الذي لا يتأثر لا بالأهواء ولا بالعواطف ولا بهذه المؤثرات التي قد تغسل على الانسان تفكيره

وهذه المصاع التي تكون الحياة الأدبية توجد عند أمم ثلاث اليونانية القديمة والأمة العربية والأمة الانجليزية . فلم يرد تين أن يدرس اليونانية لأنها بعيدة جداً ، وهو لا يستطيع أن يدرسها ، لا درس المؤرخ ، وهو في حاجة الى أن يدرسها دراسة مباشرة ، ولم يرد أن يدرس تاريخ الأدب العربي لأنه فرنسي وقد يتأثر بعواطفه وميوله ، لا أثر للأدب الانجليزي لأنه أدب عصري ولأنه أدب كامل كما يقول لا ينقص في درسه لميوله ولا لشيء من هذه الأشياء ، فوضع في هذا الأدب كتابه وأحصع هذا الدرس لهذه النظرية : نظرية التأثير بالجنس والبيئة والعصر . طور كتابه في تاريخ الأدب الانجليزي ، في محلات أربعة فإذا هو الى الآن أحسن كتاب وضع في تاريخ الآداب الانجليزية ، وهو من الكتب التي يعتمد عليها للانجليز أنفسهم .

خذوا من هذا الكتاب أي فصل من المصول ، خذوا بمحضه عن شكبير أو غيره من الأدباء للانجليز المعاصرين وغير المعاصرين ، فستجدون درسه درساً للحياة

الانجليزية في الوقت الذي عاش فيه الكاتب أو الشاعر الذي يدرسه . من هذه الناحية كانت الدراسات الأدبية لثمين عية حقاً ، ولكنها من ناحية أخرى خاطئة جداً ، ذلك أن ثمين يقيم نظريته هذه قبل كل شيء على فكرة ليست صحيحة على كل حال ، هي فكرة شائعة عصرية نشأت مع القرن الماضي ولا يزال الناس يؤمنون بها إلى الآن ، وأغلظها تدرس في المدارس والجامعات وفي حاضرات نخب ، وهي فكرة أن الآداب هي صورة للجماعات ، وأن الآثار الأدبية صورة دقيقة أو مقاربة لحياة الجماعات التي تنشأ فيها . وما دام كل أثر أدبي مرآة لحياة الجماعات التي نشأ فيها ، فلا سبيل لي أن يدرس هذا الأثر الأدبي إلا من حيث هو مصور للجماعة ، وإذن لافوتين لا ينبغي أن يدرس من حيث هو لافوتين ، إنما من حيث هو مرآة للعصر الذي نشأ فيه . وفي شاعر من الشعراء لا ينبغي أن يدرس من حيث هو ، بل من حيث هو يصور العصر الذي عاش فيه . هذه هي الفكرة التي قس الناس بها في القرن الماضي فكرة قد يكون لها شيء من الحق ، ولكنها بعيدة كل البعد عن أن تكون الحق كله ، فأي أدب يمكن أن نعتبره مرآة الحياة الاجتماعية أو البيئة التي نشأ فيها . أهو الأدب الذي ينشأ في الطبقات الوسطى ؟ أهو الأدب الذي ينشأ في الطبقات الدنيا ؟ أهو الأدب الذي ينشأ في الطبقات العليا ؟ وما عدا ما ذكر الطبقات لا يريد الطبقات الاجتماعية ، إنما يريد الطبقات العقلية ، فأنتم تعلمون أن هناك أرسقراطية فيه ، فهناك أشخاص يمتازون بطبيعتهم في الشعر والفكر عن معاصريهم في الحس والشعور والتفكير ، أخذوا فيلسوفاً من الممتارين في أي عصر من العصور ، الذي تجردوه أو يد حشكم ، هو قبل كل شيء من هذا الفيلسوف أو الشاعر أو الأديب محض لمعاصريه لا يعيش كما يعيشون ، هو يسكر لا كما يسكر معاصروه ، إنما يفكر كما يسكر الناس بعد جيل أو جيلين أو أجيال . حدثوا أنه العللاء المعري مثلاً أنطون أنه قد فهم في العصر الذي كان فيه ؟ كلا إنما كان ممقوتاً لا يفهمه إلا أصدقاؤه الأخصاء ، أما عامة الأدباء والملاسة الذين كانوا في عصره فقد كانوا يفتنونه ويكرهونه . وكان رجال الدين يشكون في إيمانه ومهم من تنهم بالكفر من غير تردد ، ولعلكم تذكرون أنه تعرض لسوت . حدثوا فولتير أو جان جاك ، أول ما يمتاز به فولتير أو جان جاك أنه كان محفلاً للذين كانوا يعاصرونه

فبينما كان فولتير يدعو إلى حرية الرأي كانت الجماعات التي تعيش مع فولتير معادية لحرية الرأي ، وكان الذين يؤمنون بحدوده في عصره قلة ، ونحن الآن نؤمن بنظريات فولتير في حرية الرأي . لماذا ؟ لأنه قد وجد قبله ووجد قبل أوانه . أكثر من قرن . وكذلك جان حائل ، وكذلك أبو العلاء ، فمن الآن فهم فلسفة أبي العلاء حبراً ممدودها أهل عصره . حدوداً من شتم من الفلاسفة أو الأدباء الذين يستحقون هذا الاسم مستحدون بهم يحانون العصر الذي كانوا يعيشون فيه في الشعور والتفكير واتهم والاحساس . بما يصورون العصر الذي سيأتي بعد عصرهم . فولتير لا يصور بدقة القرن الثامن عشر ولكنه يعي . للقرن التاسع عشر ، وهو لا يصور بدقة العصر الذي عاش فيه ولكنه يش . ويكون الثورة الفرنسية . إذن ليس صحيحاً أنك إذا درست أدباً من الأدب . أنك تعلم فيه مرآة للعصر الذي يعيش فيه . وأنك فليس صحيحاً أنك إذا درست أدباً من الأدب . مصطر لأن تدرس ما يحيط بالأدب من المؤثرات لأن هذا لأدب متأثر بهينه ولكنه مؤثر فيما يحيط به أكثر من تأثره بهذه الأشياء . إذن فطرية المجلس والبيئة والعصر تقوم على أساس خاطئ . ومن هذه الباحية كان تبن بهذه الطريقة منها إلى نيتحين متقصين أشد التدقيق . دراسة تاريخية خصبة واكتنفا من الدحية الأدبية غير قيمة . يتخذ الأدب وسيلة للدراسة عصره فوفق أحسن توفيق . ولكنه من ناحية أخرى يعجز شخصية الأدب محو هو يدرس فرنسا دون لافونتين ، و يدرس المجنونا دون أن يدرس شكسبير ، و يدرس أي أمة دون أن يدرس الأدب الذي أراد أن يدرسه ، ومن هنا كانت الكتب التي وضعها تبن في الأدب أشبه شيء . مقدمات للدراسات التي عي بها لأنه يكتب كتاباً في تاريخ العصر والبيئة والمجلس حتى إذا فرغ طرأه قد درس الأدب ، ولكنه لم يصل بعد إلى هذا الأدب أنظكم قد تصورتم لأن على نحو ما مذهب تبن في فهم الحياة والأدب ، وما كان يحيط به من الأشياء ، وقد اعتذر من تي قد أطلت ، ولكي محتاج إلى دقائق حتى لا تكون الصورة التي تذهبون بها عن تبن مشوهة ناقصة ، لا بد أن أقول لكم أن تبن بعد هذا كله كان من خصوم الديمقراطية ومن أعداء الثورة الفرنسية ، لأنه كان يرى الإنسان شريراً بطبعه ، والثورة صُرف من هذه الظروف تظهر لإنسان كما فطر

شريراً مفسداً ، ومن هذه الناحية كان مبغضاً لسلطان الجماهير ، وهو مع هذا كله من أشد الناس تأثيراً في الانتصار لحرية الرأي وكتاباتهما كلها انما تدور حول حرية الرأي هذا الرجل الذي كان ينكر الاختيار وينكر حرية الانسان ويؤمن بالجبر ويعتق الديمقراطية وينكر سلطان الجمهور ويؤثر الارستقراطية والارستقراطية الانجليزية خاصة ، هذا الرجل الذي كل شيء في ظاهره يدل على أنه من خصوم الحرية ، هو ممن مكثوا لحرية الرأي ، عندما عرض لكل هذه النظريات ووضعها موضع البحث والمناقشة أثار فيها كل هذه الخصومات ، واستباح لنفسه أن يناقش في أشياء لم يكن الناس قد تعودوا انكارها ، ودعا غيره الى رأيه فأثار الخصومة والجدال ، ماذا عمل ؟ انما فرض حرية الرأي على نفسه وخصومه وأنصاره فرضاً . وهو بهذا دفع الفرنسيين والشباب الى أن يفكروا في كل شيء ، ويتمقوا كل شيء ، وأباح لهم أن يعرضوا كل شيء للانكار والشك والرفض اذا دعى الأمر الى الرفض ، فإذا عرقت أن الشباب الفرنسي في مدة ثلاثين سنة كان ينظر الى الرجل على أنه استاذ به يشرب كلامه - ان صح هذا التعبير ويتأثر بأرائه في كل ما يعمل وما يقول . وإذا عرقت أن كثرة الكتاب الفرنسيين الذين أخذوا ينشأون منذ سنة ١٨٧٠ قد تأثروا بتبين ومذهبه ونظرياته ، وهم الذين يكونون الرأي العام - وأريد بالرأي العام الأدبي والعقلي في فرنسا واوربا بعد ذلك - اذا عرقت ذلك عرقت أن حرية الرأي اذا كانت قد أنشأها فولتير وأصحابه في القرن الثامن عشر فقد أنتم انتصارها وسيادتها رينان وتين في القرن التاسع عشر .

وأظني قد استطعت في هذه المحاضرات أن أعطيكم قصرة لا شك أنها غير واضحة ولكنها مقاربة عن تطور حرية الرأي منذ نشأ العقل الانساني ، في المصور اليونانية الأولى ، الى أن بلغ هذا العصر الحديث .

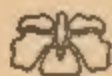
أما مصير حرية الرأي منذ الآن ، فاني أستاذكم في أن أقول ، اني لست شديد التفاؤل في شأنه ، لأن ما نراه من تطور الحياة السياسية في العالم المعاصر لنا الآن ، يدل على أن حرية الرأي توشك أن تعرض لخطر عظيم . وأنكم تشهدون كما أشهد ، وتلاحظون هذه الأخطار التي تعرض لها حرية الرأي ، لا أقول في مصر ، فهي تستمتع بشيء غير قليل منها ، اذا قيست الى بعض البلاد الأخرى ، وأنكم لم تنسوا

أن بعض الدول الأوروبية المتحضرة ، التي عملت عملاً لا بأس به لتكوين حرية الرأي ، أخذت تقاوم الآن هذه الحرية ، ولم يتحرج وزير من وزرائها من أن يذم العقل واتاج العقل ، ويصادره ويدعو إلى أن تحرق الكتب تحريقاً ؛

هذه الظاهرة لا توجد في بلد واحد بل توجد في بلاد مختلفة ، بل هي توجد بالفعل في بعض البلاد التي انتشر فيها مذهب فولتير وأصحابه .

وقد أخذ يوجد بالفعل ظواهر خطيرة في بلاد كفرنسا وإنجلترا ، في قوم لا يدعون إلى قبح حرية الرأي ، ولكنهم يدعون إلى ما يعرض هذه الحرية للخطر ، يدعون إلى محاسبة الديمقراطية ، ويعلمون فشلها ، ويريدون أن يقيموا نظاماً يعتمد على السلطان القوي ، أكثر مما يعتمد على إرادة الشعوب ، وقد رأينا النظم التي تعتمد على السلطان القوي ، وتهدر إرادة الشعوب في غير فرنسا وإنجلترا ، وعرفنا أن نتائجها الأولى إيذاء العقل ، وتضييع حرية الرأي .

وإذا كان لي أن أتمنى شيئاً لمصر ، فهو أن تكون أقل البلاد تأثراً بهذه الظواهر الجديدة التي من شأنها مصادرة حرية الفرد وحرية الشعوب ، فليس يعنيني من أمر السلطان أن يكون قوياً أو ضعيفاً . وإنما الذي يعنيني أن يكفل لي السلطان أن أكون حراً فيما أقول ، حراً فيما أعمل ، حراً فيما أفكر أيضاً



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038051729

893.7H954

036

ø5338115

